فهرست

صحيفه	سطر	خطا	صواب
٦١	١٢	فزاع	فذاع
٧٦	١١	استتم	استتم
٧٩	١٤	بينها	بينهما
٨٠	٥	متها	منها
١٠٦	٣	الثقاة	الثقات
١٠٨	١٠	الغذارى	العذارى
١١٢	٩	معوذيهم	معوز بهم
١١٣	٩	منشائه	منشئه
١١٣	١١	فى اكنافه	من اكنافه
١١٤	٢٢	الجواح	الخوارج
١٧١	٩	الكربزى	الكزبرى
١٧٥	١	اخوا	أخا
١٧٧	١٢	المسلمون	المسلمين
١٨٠	١٩	بنية	بلين
١٩٣	١٤	باهيلها	باهليها
١٩٦	٥	بامؤنسى	يامؤنسى
١٩٦	٨	الدواء	الدوا
١٩٦	١٤	يثوب	بثوب
١٩٧	٧	كان	كأن
١٩٨	٢	أمل	امل
٢٠٠	٤	نهاه نفس	نهى ه نفسا

رجاء

المرجو من القارئ الكريم ان يرد بقلمه ما في هذا الجدول من الصواب الى أماكنه قبل المضي في قراءته

صحيفه	سطر	خطا	صواب
٩	٢٠	المنطبق	المنطيق
١٦	٩	ارسمت	ارتسمت
٢٨	٥	طرقه	طوقه
٢٩	٦	رساله	رسالته
٣١	١٩	فعلتها	مقلتها
٣٢	٢	أصبوا	أصبو
٣٦	١٣	آيانه	آياته
٣٨	٤	لسحرهم	ولسحرهم
٥٠	٢٠	تمش	تمشي
٥١	٣	الدرا	الدار
٥١	١٥	آدات	أداة
٥٢	٤	ومن	وممن
٥٢	١٧	يدى	يدا
٥٢	١٨	غريبين	غريبان
٥٢	١٩	لكلا	لكلتا
٥٥	١٦	نرك	ترك

ولا تزال تلك المؤلفات قائمة بين أيدينا حتى اليوم . غير أنها فقدت منزلتها كما فقدت كل أنواع التأليف منازلها فى فترة الجمود التى أصيب بها الشرق فى العصور الاخيرة فانقطع التأليف وذهبت الايام بحياة رجال كثيرين كانت خليقة ان تكون قدوة طيبة لو صادفت أعمالهم وآثارهم عناية بحفظها

جاء صديقنا السندوبى فحمل عن اخوانه الادباء وعن الامة كافة اصلاح هذا الخطأ واستدراك مافات عسى ان يحتفظ على الفائدة كلها أو بعضها فوضع كتابه « أعيان البيان » ملتزما فيه أن يلم بنشاة كل أديب كاتب أو شاعر وآثار قلمه وتأثيره فى أنهاض الادب العربى من فجر القرن الثالث عشر الى الآن . ولقد تبينت من اتمام السندوبى عمله العظيم ان له ميزة على أدباء هذا العصر هى أنه كافأهم فى المعرفة والعلم وفضلهم بتنفيذ عزمه ومغالبة الايام على الصبر والجلادة

ومن يعلم ان رجال البيان العربى الذين أنشأهم القرن الماضى اشتات متفرقون وان الاهمال الذى استحكم فى أهل هذا القرن ذهب بتراجمهم وآثارهم وان قصد الصحة فى ذلك يحتاج الى تعب فى البحث وصبر طويل على استطلاع الحقائق من قطر غير هذا القطر ودور كتب غير دار الكتب المصرية الخديوية يعلم ان صاحب « الاعيان » جلد على الشرس حتى يروضه ، كثير المعالجة للبعيد حتى يقربه

اطلعت على كتابه فقرأت مقدمة شهدت شهادة عدل انها تغنى الطالب يضرب فى بطون الاسفار قصدا الى معرفة الاسلوب العربى وماطرأ عليه من التغيير فى جميع العصور مع الابقاء على رونق البلاغة وتجويد العبارة . أو قصداً الى معرفة ماتفعل الكتابة بالنفس وما كانت تتخذ وسيلة اليه من شئون الملك ودواعى الحكم فى الشرق عند الامويين والعباسيين وفى الغرب عند الاندلسيين . وسيرى الناس صدق ما أقول يوم يكمل حظهم بتناول هذا الكتاب الجليل إن شاء الله

وللكاتب الاديب الشيخ محمد الهياوى

« أعيان البيان » — اسم كتاب مشبع ممتع . صنع يد صديقنا الاديب حسن أفندى السندوبى . وهو فى موضوعه مرتبط بحاجة الادب العربى فى هذا العصر ارتباطا لا فكاك له ولا استغناء عنه . والعجب ان تتهيأ أسباب النشاط لصاحبه الاديب حتى يصبر على عناء تأليفه ، وصعوبة تصنيفه

نقول ذلك لا لاننا نجد فى كفاءة السندوبى وفرة أدبه وفطنته قصورا عن وضع كتاب مثل كتابه . بل لاننا نعرف فى أخلاق المقتدرين من أدبائنا نكوصا عن العمل وملالة للبحث وسأما من التأليف والتصنيف . وكم أعلن رجل أو رجال منهم الى الامة عزيمتهم على القيام للادب العربى بحق الخدمة التى يقتضيها طور اللغة واللسان فى هذه الايام . ثم لم يكن منهم بعد طول التربص بهم والتشوف الى مؤلفاتهم إلا جمود فقعود . و إلا انصراف عن الابتداء فى العمل أو انقطاع عن تمام ما أخذوا فيه

أما صديقنا السندوبى . فلقد أقنعنا بانه استطاع أن يجمع الى كفاءته الادبية الصبر على التأليف ومشقة البحث عن الحقائق الصادقة فى متفرقات المراجع . والكتاب الذى أخرجه الينا يقتضى عناية أعظم مما يقتضيه كل كتاب . وسأطلع القارىء على قيمة تلك العناية حتى يجزل حمده ، و يكبر همته

فى نوع التأليف عند كل أمة كتب تشبه أن تكون فلسفة حياة الرجال تزن أعمالهم وآثارهم وتدل على ما تركته آراء كل رجل من الاثر الطيب أو غيره فى البيئة التى عاش بينها . وقد كان لهذا النوع من المؤلفات منزلة لدى أهل الصدور الاولى من أبناء العربية

كلمات عن الكتاب

﴿ كلمة جريدة المؤيد ﴾

وضع حضرة الاديب الفاضل حسن افندى السندوبى الكاتب المعروف كتابا له سماه « أعيان البيان » ترجم فيه اعلام الادباء وأعيان الكتاب والشعراء من أول القرن الثالث عشر الهجرى الى الآن و رتبه على أسلوب حسن لم يسبق اليه . فهو يذكر حياة المترجم ثم يقفوها بفصل فى مميزاته يبين فيه عن الصورة الذهنية التى ارتسمت فى مخيلته من مطالعته مؤلفات المترجم ودرس كتاباته واستقراء مكنوناتها بحيث يلبسه من الوصف والتمييز ثوبا محكما نسج بيد الانصاف وحيك بمنوال الاصابة . ثم يتلوه بفصل فى بيان مؤلفاته وموضوعاتها ومنزلتها وما ينفع منها وما لا يفيد . ثم يفرد بابا فى آثار أقلامه فيختار فيه ما يراه جيدا من نثر المترجم ونظمه موشى بالشروح والتعليقات محلى بصور المترجمين

ومن عرف فى حضرة مؤلفه الفاضل المكانة الادبية، وسعة الاطلاع، و بعد الهمة ونفاذ الرأى ، علم أن كتابه هذا سيكون من أنفع الكتب الخالدة وأمتعها ان شاء الله

حسن التشبيب

خذوا حذركم من نظرة الحدق النجل * فكم أرشقت بالصب نبلا على نبل
متى أمكنت قلب امرئ فعلت به * لعمرك ماشاءت من الاسر والقتل
ومهما ارنت أو رت زناد الغرام فى الـ * فؤاد فأمسى فى عياء و فى شغل
وان غزلت الحاظها نسجت لنا * سقياتها أثواب سقم من الغزل
وان نعست أجفانها أيقظت أسى * هواها بقلب لم تكبله من قبل
لئن شبهوها بالمهند فانثنى * وقد أدركته خجلة الغل والكل
وقالوا بها سكر فقلت غلطتم * ولكنه سحر يجر الى السل
لئن أنكر العذال سحر جفونها * فآيته البيضا السواد من الكحل
تأمل عذولى فى رقائق هدبها * ترى السيف فيها والهوى سابق العذل
فلا تقفن حيث العيون فانها * مصارع جد فى مكامن من هزل
وما بطل من قام والحرب قائم * الى بطل بل من لوى من هوى النجل
بنفسى لعوبا بالعقول تخالها * قريبا ويقصيها الدلال على الخل
لها مالغصن البان والريم والطلا * رضايا وجيداً واعتدالا بلا عدل
تميس فتزرى بالقناة وانها * لتنآد من حر النسائم فى الاصل

الى هنا وقف القلم عن تحبير هذا القسم الاول من هذا السفر وسيتلى بثان ان شاء الله .
القاهرة في ٢٩ ربيع الثاني سنة ١٣٣٢ الموافق ٢٦ مارس سنة ١٩١٤

ولا تراع قوانيننا ولا أدبا * وملا ملام خفيف العقل ذى ثقل
فالناس قد رفضوا القانون بينهم * واستحسنوا الرفض لكن لا لحب على
وليس همهم الا التمدن أى * تحايل ماحرم الرحمن فى الازل
واسل الهموم بنار الهم واسل فتى * سلا وسلى فؤادا بان فى شغل
وروق البال بالراووق منبسطا * بالقبض منك على ساق له جدل
من كف ساقية كالظبى آنسة * تزرى بطلعتها للشمس فى الحمل
تقول للبدر فى الظلماء طلعته * بأى وجه إذا أقبلت تظهر لى
هيفاء ضامرة الكشحين مائلة الـ * ـعطفين سكرى بلا عل ولا نهل
وطفاء فاترة الاجفان عاطرة الا * أردان ساحرة الالباب بالكحل
تفوح أردانها طيباً كما نفحت * أقطار مصر بمدح الاوحد البطل

شعر ناصيف

بنصيف قد أنصف الدهر بيرو * ت فأضحت تتيه فى ثوب سؤدد
ولئن أصبحت تفاخر كل الـ * ـمدن أضحى لعمرى الحال يشهد
ما سمعنا بمثله عيسويا * يتحدى بمثل معجز احمد
نظم الدر والدرارى فى أحسـ * ـن سمط من البيان ومهد
ألمعى لكنه عيسوى * كان أولى بفضل دين محمد
لو تروى ارتوى بكوثره العذ * ب وأروى اظماء من بات يجحد
جل من قسم الحظوظ فلا عتب * وان كان العقل فى الامر ممهد
حكم مولى يقضى علينا بما شا * ء تعالى عن التولد سرمد
دم حليف العلا نصيف بفضل * لا يوازى وحسن حمد مؤبد

ثم ارجع فاقول سيدى الحمد لله الذى أنجاك وأنجالك وحباك وأحبابك السلامة من ذلك الحادث المهول ، والحمد لله الذى كفى الجميع أمره ، ولم يجرع أحد منا مره ، فلكم ولنا وللجميع الهناء الاكبر ، ولله تعالى الحمد والشكر أكثر ما يحمد وأكبر ما يشكر

نبذ من شعره

سهام العيون

أقطف ورود خدود الغيد بالقبل * وقل وفاء بحق للهوى قبلى
واخلع عذارك فى خالى العذار ولا * تبال فالعذر عند الخال منه خلى
واشرب بطرفت زرجونيـة عللا * من المحيا الذى يشفى من العلل
وكن على حذر من أسهم عرضت * لمن تعرض للالحاظ والمقل
من أعين مارنت الا رمت مهجا * تبيت فى وهج منها وفى وهل
تحيك ماغزلت ثوب الضنا فترى * منها الحماسة للالحاظ فى الغزل
واهصر قدودا زدهت ممشوقة فغدت * معشوقة لغصون البان والاسل
واضمم جناحك فوق الخصر مختصرا * واجعل كنفسك كفلا مامن الكفل
وان تشا فارتشف من مبسم ضربا * ولا تخف ضرب حد الشارب الثمل
وكرر الرشف تشف النفس من كيد * وتطف من كبد نارا من الغلل
وعض غصن اقاح الثغر محتسيا * من كأسه قرقفا قد شج بالعسل
واطرب بعود وقانون ولا تنِ في * لهو بدا واطرح الاتراح بالجذل

استأخرت ، ولا وانس فضلك منى استنفرت ، وانى بها لرءوف ، شفوف بحسنها الشفوف

سيدى مالك نسيت من لهج بذكرك وذكراك ، ولا يتمنى بعد دوام الايمان الا دوام محياك ورؤية محياك ،

سيدى مالى لا أرى هدهد كتابك المبين ، أم كان من الغائبين ، لاعذبن خاطرى به عذابا شديدا أو لاذبحنه أو ليأتينى بسلطان مبين ، يأتينى من سبأ ساحتك بنبأ يقين ، يقينى من الجوى فيقينى انه شفاء لقلبى الجريح من النوى ، أفان أحاط بما لم يحط به فى البلاغة أحد ، جرد سيف الغبطة لرحم أحبته وأحد ؟ أوان جد ورثيت البراعة ماجد أومزح ، جند جيش الهجران وصعر خده للاخوان ومرح ، كلا انه لكتاب كريم ، وان كان ربما شرد ونفر كريم

سيدى ما تماثل جمائلك التى كانت تهز أعطافها نسمات الحنين ، الى أسيف بنيك الذى له فى كل آن أنين ، تسنت ولم تتثن كعادتها وما الشمائلك التى لعبت بها شمول اللطافة وهى أحلى من اللطافة ، وألذ من الكنافة ، تجنت ولم ترمقنى حور غاداتها ، الرافلات فى حرائر بهجتها

سيدى ماهذا الدلال وماله من دليل ، وماذلك الملال وليس له وجه جميل ، بعد ذلك الجميل من ذلك الجناب الجليل ان كنت مقصرا فان بكل كمال محلق ، أو كنت عن الوفاء أقصرت فيما أسلفت فانى الآن على بابك متملق

سيدى وأبيك ، ماهذا الظن بمعاليك ، وأخيك وحميك وفيك ، ما كذا كان أملى فيك ، سيدى كيف أمكن علياك ، أن تمزق بغير الاحسان سماء سجاياك ، ولا سبيل لخرق العوائد ولا مجال ، وقد قيل أيضاً ان الخرق والالتئام فى السموات محال ، ولا أزال أقول سيدى سيدى ، حتى يشتد بعودك الى حنانك الى ساعدى

بها المسرات، لكل نفس نفيسة منها أنيس لا ينام، وجليس يغنيك حديثه وأخلاقه عن الندامى والمدام، ن والقلم وما يسطرون، انه لكتاب كريم يذعن بفضله المسيطرون، مافيه حرف الا وجاء من أسرار البلاغة لمعنى، ولا لفظ الا ولو صور لكان عقدا حسنا لجيد كل حسنا، ومافيه من معنى، الا وهو لجسد الادب روح، ولا فصل الا وهو فى سماء الكتابة يوح، فهو كشاف دياجر الادب، وترجمان لسان العرب، ومفتاح أبواب البيان، ومصباح أبناء العرفان، وحلية فرسان الكلام، وحلية أرباب الالباب والاحلام، وروضة مصاقع الادباء، وبهجة أحداق النبلاء والنبهاء، وسلافة العصر، وقهوة انشاء النظم والنثر، والضحى والليل اذا سجى، انه لدواء لكل داء وشفاء لكل شجى، وانه لمهجة الادب ولسانه، وساعد البيان وبنانه، علمنا كيف يكون الترسل، وبم يكون الى نهج البلاغة حسن التوصل، وأرانا كيف يكون سحر البيان، وكيف ينطق بحكمة الاشعار اللسان، غردت أطيار فصاحته، على أفنان بلاغته، فأطربت الحى وأحيت الطرب، وبسمت قراطسه عن حدائق نفائسه فرأينا فيها حدائق غلبا، وفاكهة وأبا، ولعمرى لقد فتح أبواب البراعة، بعد ان كانت مسدودة، وبنى بروج الخطابة بعدما كانت مهدودة ....

من رسالة الى السيد الحلوانى

سيدى ما الذى أوجب تناسيك لحبك الذى لم ينس لعهدك والذى لا يزال على ممر الايام يرقب الك ويرعى ودك، وما الذى توهمته فى صديقك الفقير الصادق، حتى قطعت صدقات رسائلك عنه وهو بها وامق وبك واثق

سيدى ما هذا التجنى، والاغضاء عنى، سيدى ما العرائس كتبك عنى

القصائد التى لم تتضمن سواهما ، وذلك لا ينافى تقديم غير النسيب عليه فى نحو الكتب والرسائل مما يشملهما وغيرهما ، ومتى اجتمعا مع غيرهما وكان الغير أهم كان هو الاولى بالتقديم ، كما يرشد اليه الكتاب والسنة وسنة الادباء من قديم ، والسلام أهم فى ذلك المقام ، فيكون أحق بامامتهما فى محراب الكلام ، وأجدر بان يكون هو المصلى ، والنسيب الجلى ، ثم المديح كذا كان ظهر لى ، وظننت انه نظر صحيح ، ولما احتج السيد بأن النفل قبل الواجب مشروع بالاجماع ، كان من ذلك شد الازرى وسداداً لنظرى اذا ابتداء السلام نفل بلا نزاع ، وأما مقابلة المدح فلله الذى النسيب وسيلة له فمن مقابلة النعمة بالشكر ، وهو واجب بل عبر عن تركه فى كثير من الآيات كما لا يخفى على السيد بالكفر ، وربما كان هجس لى ان العرض الذى كان عرض للسيد لولا الاغضاء عن النظر فى معانى تلك القضية بما يطول لا نطول به يد الالزام لا سيما وفى الحديث الشريف من بدأكم بالكلام قبل السلام فلا تردوا عليه السلام ، فثاب الى عقلى ، وأدركت ان مدارك السيد لا يحوم حول حماها مثلى ، والعرب أنطق ببيانها والخيل أعرف بفرسانها «وبعد» فما هذه الرسالة البديعة المثال ، البديعة المنوال ، البعيدة المنال ، ألآلئ فى نحور حور ، أم كواكب مشرقة فى ديجور ، وحدائق أزهار ، أم رقائق أشعار ، ومغانى كواعب أتراب ، أم معانى فرائد آداب ، وثغور باسمة عن جمان ، أم زهور بديع فى رياض بيان ، وغانية تطوست ، أم غالية تنفست ، وطوس أسفر ، أم طرس بالفضائل أزهر ، رسالة زينت سماء البراعة بمصابيح البداعة ، وزيفت رسائل اخوان الصفا بما تفردت به من حسن الصناعة ، ماتركت فصل خطاب الا فصلته ، ولا فصل خطابة الا وبجواهر بدائع البداية فصلته ، وما أدراك ماهيه ، بقية كل نفس زاكية ، وأذن واعية ، ظرف ملئ ظرفا ، وجام جامل الادبا بسلاف طابت عرفا ، بل جنان تتورد منها الوجنات ، وتحدق لها الاحداق فتحدق

آثار أقلامه

نخب من نثره

من رسالة الى الاحدب

السيد حفظه الله شيخ الادب وفارسه الذى من خطا معه فى حلبته فقد أخطأ وأساء الادب ، كيف لا وهو الذى بنى قصوره وشيدها ، و بين معالمه بعد الاندراس وحددها ، ورفع فى سبيل البيان مناره ، ونصب أعلامه ابتداء ورفع أخباره ، وجلى عرائسه للخطاب من الخطباء ، وأبرز خرائده من الخدور أترابا عربا ، وتجمل بتفصيل ما أجمل من جمله ، وتفضل بتبيين ما تشابه منه توضيحا لسبله ، واستخرج من معادنه إبريزه فصفاه ، واستنتج ما ترشحت به الفضلاء من نتائج قضاياه ، اذ تمكن من تصريف رياح المعانى فهى تجرى بأمره رخاء حيث أصاب ، وتميز من بين سادة العصر بان أتاه الله الحكمة وفصل الخطاب ، فتى فاه فاح عرف الحكم ، ورأيت لسان الحال له بالتفرد فى لسان العرب قد حكم ، وحيث جال فى رهان كبا جواده كل جواد من الكتاب ، ومهما قال حاضرا ، وخير الفقه ما حاضرت به قال الذى عنده علم من الكتاب ، لكن الذى جال فى القريحة القريحه ، وسال من أودية الفكرة التى هى بأسنة الخطوب جريحه ، ان تقديم النسيب على المديح انما هو كما جرت به عادة العرب فمن بعدهم فى نحو

مُؤَلَّفَاتُهُ

سعود المطالع — كان الابيارى قد وضع رسالة صناعية ضمنها لغزاً فى اسم الخديو اسماعيل عليه الرحمة ثم شرح هذه الرسالة وحل هذا اللغز فى كتاب دعاه بهذا الاسم واستخرج من هذا اللغز خمسة وأربعين فنا وهو كتاب جليل واقع فى مجلدين كبيرين ومطبوع فى مطبعة بولاق

النجم الثاقب — كتاب وضعه فى المحاكمة بين جريدة البرجيس التى كان يحررها بالعربية فى باريس سليمان الحريرى التونسى و بين جريدة الجوائب لمنشئها بالاستانة الشيخ احمد فارس فى مآخذ لغوية، وانتقادات فى فنون انشائية، حكم فيها بتبريز منشىء الجوائب على محرر البرجيس . وقد طبع هذا الكتاب على الحجر سنة ١٢٧٩ ﻫ وهو نادر الوجود

الوسائل الادبية — كتاب حوى الكثير من مراسلاته نثراً ونظما الى بعض أدباء عصره لا سيما الشيخ الاحدب والسيد الحلوانى . طبع فى مطبعة الوطن سنة ١٣٠١ ﻫ وهو مشهور متداول

وله نفح الاكمام فى مثلثات الكلام . والكواكب الدرية فى نظم الضوابط العلمية . ونيل الامانى فى توضيح مقدمة القسطلانى . والباب المفتوح لمعرفة أحوال الروح فى التصوف . والقصر المبنى على حواشى المغنى . والدورق فى الاضداد اللغوية . وصحيح المعانى . والفواكه فى الادب . وترويح النفوس على حواشى القاموس . وغير ذلك رسائل وتقاريظ كثيرة أكثرها مطبوع

الخديو توفيق باشا فاسند اليه أمامة معيته وافتاءها فظل بها الى أن توفى سنة (١٣٠١ ﻫ ١٨٨٨ م) رحمه الله

مُمَيِّزاتُهُ

للشيخ عبدالهادى أياد غر وأقلام حداد فى فنون الادب العربى تذكر له بالشكر وتؤثر بالثناء، غير أنه كان مولعا بالسجع ، مفرطا فى تجشم أهواله ، وتحمل أثقاله ، متهالكا على نكات البديع ، مكثرا من إراقتها على بساط طروسه ، ولعله كان يظن أن الكتابة انما تنقاد الى الحريص على تطلبها وليست فيض النفوس ، وغيث الارواح ، ووحى الملكات ، وما كانت اللغة وفنونها إلا مثاراً لكوامن الاذهان ، ومبعثا لمطايا الفكر . ولقد يتراوح فى ظنى أنه كان من المنهافتين على أدب أهل التكلف والصناعة من كتاب الاندلس وشعرائه ، المفرطين فى احتذائهم وتتبع آثارهم فى طباقات البديع وجناساته مما هو مخالف للطبع السليم ، مباين لملكة الذوق الحسن . وقلما رأينا أحدا من الناس تأدب بأدب الاندلسيين ، ووقف نفسه على ماهو مدون لهم من منظوم ومنثور ، ثم كان غب سراه أن صار بين أهل الادب من فضلاء الشرقيين محمود الاثر فى أدبه ، موفور الفضل فى تحبيراته وخطبه . وما كان المبرزمن فحول الادباء فى الاندلس الا من تلمذ لاعيان أهل الفضل من الشرقيين . ولولا ماسام به نفسه من التكلف فى نثره ، وحملها عليه من التعمل فى نظمه ، لعد من الكرام الكاتبين ، وحسب من الشعراء المجلين ، واذا فاتته هذه فلا يخطئه أنه كان من أكابر أدباء زمانه الذين أنجبهم الازهر من بين علمائه على ندرة نجبائه منهم فى ذلك العهد

الشيخ عبد الهادى نجا الابيارى

ترجمته

هو عبد الهادى بن السيد رضوان نجا ولد فى قرية ابيار من قرى اقليم الغربية بمصر سنة (١٢٣٦ هـ ١٨٢١ م) وكان والده من أهل العلم والفضل فلقنه مبادئ القراءة والكتابة وأذاقه حلاوة الآداب وألوان الفنون والاعراب ثم ألحقه بالازهر فجاور به مدة طويلة حصل فيها على سائر العلوم الازهرية من دينية ولسانية وما لبث أن ذاع صيته و بعد ذكره . ولما نما فضله الى الخديو اسماعيل باشا دعاه الى حضرته وعهد اليه فى تأديب أنجاله وتلقينهم الآداب العربية فقام بما عهد اليه خير قيام مع مواظبته على التدريس فى الجامع الازهر ومراسلة أدباء عصره وشعراء زمانه وتخرج عليه رجال اشتهروا بالعلم والفضل نخص بالذكر من بينهم العلامة الشيخ حسن الطويل . و يؤخذ مما كتبه المترجم فى بعض رسائله أن وشائج الالفة بينه و بين اسماعيل صديق باشا الشهير بالمفتش لم تكن على ما يرام فأوغر عليه صدر الخديو اسماعيل فأوعز الخديو الى بعض خاصته أن يكتب الى المترجم له بترك القاهرة واختيار بلد آخر لسكناه . فأم ابيار ومكث بها الى أن نُكب اسماعيل صديق فاستدعاه الخديو اسماعيل اليه وقربه وأدناه وأفاض عليه من سجال فضله وغزير عطاياه . ومازال ملحوظاً بعنايته الى أن تولى

عن لغة الكتب ، وهذه اللغة الدارجة نراها تتهدد دائما اللغة الاصلية ، واذا طال الحال عليها هكذا تميت كثيرا من ألفاظها فوق ما أماتته فيلتزم العرب فى آخر الامر ان يهملوا باللغة العربية كما فعل اليونان والارمن بلغاتهم الاصلية ويعطوا اللغة الدارجة محل اللغة الاصلية ، فتصير اللغة الاصلية لغة العلماء وأصحاب التفتيش فقط كاللغة اللاتينية عند الافرنج ، ولا يمكن أن يتصور حصول خسارة للعرب أعظم من هذه ، ولكن ازدياد عدد المدارس والمكاتب والمطابع فى هذه الايام وأملنا بالزيادة على زيادتها فيما يأتى يجعلان لنا شيئا من الطمأنينة من هذا القبيل .

ومازالت العرب كذلك حتى سقطت رغبة الملوك والاكابر فى العلم فانقطعت أسباب الطلب ، وتعطل السعى فى تحصيله ، ودرست مصنفاته حتى فقد كثير منها فلم يبق لها عين ولا أثر ، وكسدت بضاعة العلم ، وأفنى الدهر أهله ، واستولى الجهل بسطوة عظيمة على الناس حتى صاروا يظنون ان تحصيل العلوم أمر فاسد، وسعى باطل، فلما رأت العلوم كساد بضاعتها ، وعدم رواج سوقها بين العرب ، اكتست ثياب الحداد وسارت كاسفة البال قاصدة بلاد أوربا عن طريق المغرب واسبانيا تلتجئ هناك تحت الالوية الغربية ، واذ كان الافرنج قد زاروا البلدان المشرقية واختلطوا بالعرب مدة مستطيلة وهناك استفادوا ذوقا جديدا ، ورغبة جديدة فى المعارف والعلوم واطلعوا على فوائد التمدن فتحوا لها أبوابهم وقلوبهم مرحبين بذلك الصديق القديم الذى كان قد فارقهم منذ اجيال كثيرة لعدم قيامهم بحقه ، ففعل كرلوس الكبير ملك فرنسا بالعلوم العربية كما فعل المامون بالعلوم اليونانية ، فأمر بترجمة اطايب تصانيف العرب الى اللغة اللاتينية محافظا على نسختها الاصلية خلافا لما روى عن المامون . وهكذا العلوم التى انتقلت من الغرب الى الشرق من جهة القطبة الشمالية رجعت بار باحها الوافرة من الشرق الى الغرب من جهة القطبة الجنوبية وأخذت تنتشر فى البلدان الغربية حتى وصلت الى أقصى أطرافها ، وهكذا أخذ نورها يتناقص فى الشرق و يتزايد فى الغرب منذ الجيل الثانى عشر حتى وصل الى ما وصل اليه الآن عند العرب والافرنج

جعلت له اللغة واسطة و بابا للعلوم أن يجعلها غاية و يصرف حياته كلها واقفاً أمام ذلك الباب على نقشه و زخرفه الخارجى مع إيقانه بأنه يوجد وراءه تحف قديمة وحديثة تساب القلب وتخلب الالباب ، وصاحب العقل السليم لا يسعه الجهل بان منهج الاقدمين فى وضع قواعد هذه اللغة ونظامها وادخالهم بين تلك القواعد أبوابا من كل العلوم والفنون وتعليلاتهم المستطيلة التى يحسبها البعض منزلة مع أنها ليست الامناسبات حصلت بعد الوقوع تلهى أبناء هذا الزمان عن الالتفات الى الامور الحقيقية وتشغل وقتهم عن الوصول الى الفنون المفيدة ولا شك أن ذلك هو من جملة الأسباب التى أوجبت فقد العلوم من بين العرب . ومما لا ريب فيه أنه يجب وضع قاموس اللغة العربية والعلوم المختصة بها بالذات فى قالب يجعل تحصيلها فى ظرف سنة ميسوراً لاهلها الذين نباهتهم فى اكتساب اللغات الغريبة فى المدة المذكورة يشهد بانه لا يجب أن يصرفوا أكثر منها فى تعلم أصول لغة رضعوها مع اللبن ، ولكن اذا وجد قوم من أصحاب الغنى والخطر يلذ لهم الفحص عن الامور القديمة والتفتيش عن المواد السالفة و يقصدون ذلك بالذات فلنترك لهم الحرية التامة فى هذا الامر و نكلفهم بالمحافظة على اللغة القديمة ولندع تكأكؤ الاعرابى وأساجيع الحريرى وفير و زاباديات الفير و زبادى موضوعات لتأملاتهم الدائمة ، ودرسهم الابدى . والظاهر ان هذا الاصلاح محفوظ للاجيال المستقبلة

وهو مستغن عن البيان ان اللغة من شأنها ان تنمو بنمو معارف أهلها وفنونهم وصنائعهم ومتاجرهم واختراعاتهم ومن ثم كان وضع حد للالفاظ والمعانى فى لغة قوم مما لا تجوز محاولته ولا يمكن اجراؤه ، لانه اذا وضع حد معلوم لالفاظ لغة ما كما هو الحال فى اللغة العربية التى منذ أجيال كثيرة قد دخل فيها ما دخل ولم يبق باب لدخول غيره يلتزم أصحاب تلك اللغة عن امتداد المعارف والصنائع عندهم لاجل التمكن من استخدام الفاظ للتعبير عما هو فى أنفسهم ولقضاء مصالحهم ان يلتجئوا الى لغة أجنبية أو يخترعوا كلمات جديدة حوشية ، وهكذا تولدت عند العرب لغة دارجة بينهم تختلف كثيرا

الخيدع ؟ ثم لقية آخر فقال ماهذا الخيطل ؟ ثم لقيه آخر فقال ماهذا الدم ؟ ولو لقيه آخر فى هذه الايام لقال ماهـذا البسين ؟ فقال الاعرابى فى نفسه أحمله الى السوق وأبيعه فسيجعل الله لى فيه مالا كثيرا فلما أتى السوق قيل له بكم هذا ؟ قال بمائتى دينار فقيل له إنما يساوى نصف درهم فاحتمى الاعرابى غضبا ورمى به الى الارض وقال تبا له ما أكثر اسماءه وأقل ثمنه

وبما أن العرب كانوا يكرمون الابل ويعظمونها لانهم كانوا يكتسون بوبرها ويتغذون بلحومها ولبنها وكانت هى تقوم بكامل خدمتهم الارتحالية بمنزلة عربات برية أو مراكب بحرية ترى لغتهم مشحونة من الالفاظ المتعلقة بهذا الحيوان الهائل الجسم العظيم القدر فلا يوجد عضو للناقة الا وله اسم خاص ولا توجد لها حالة أو معنى الا وقد أوجدوا لها كلمة تدل عليها حتى صرنا اذا راجعنا قاموس العربية نجد فيه ألوفا من الكلمات التى تنبعث منها رائحة النوق والجمال ويمكننا أن نقول على سبيل المبالغة أنه يوجد فى اللغة العربية عبارات للناقة تكاد تساوى وبرها عددا ، فما هى الفائدة للحضر من هذه العبارات مع استغنائهم بالعربات عن خدمة الابل وبقرقعة دواليب المراكب النارية عن عجيجها وبرائحة الفحم الحجرى عن رائحتها ، فهنا محل واسع للاصلاح ونقل ما يمكن نقله من تلك العبارات البدوية الى موضوعات حضرية يضطر الى وسائط التعبير عنها كل من ألقاه الدهر فى وسط جماعة متمدنة

هذا وان حالة العلوم المتعلقة باللغة العربية كالصرف والنحو مثلا ليست بأقل احتياجا من اللغة نفسها الى الاصلاح من هـذا القبيل فانها فى حالتها الحاضرة لا توافق الذين يقصدون العلوم طلبا لنوال ما يترتب عليها من أمر المعيشة وذلك لان كامل حياتهم بالكد يكفى لتحصيلها على حقها ، وهذا من جملة الاسباب التى تجعل أهلها يهملونها بالكلية أو يتخذون لغة أو لغات أجنبية ضرائر لها ، وهل يليق بالانسان الذى انما

هذا ولا ينبغى أن نغفل عن تلك الكلمات النافرة الميتة الموجودة فى قواميس اللغة العربية مما لا فائدة منه للعرب الا التثقيل على الذهن العربى والقلم الشرقى، فهذه الكلمات يجب الحاقها بالكلمات الاجنبية المارذ كرها أو استخدامها لمعان أو مواد جديدة لم يصل اليها العقل العربى ولا الصناعة العربية أو ابدالها بكلمات من اللغة الدارجة مما جعل له الاستعمال قوة لا يمكن تحصيلها بغيره

ومما لا يشك به أن منبع الكلمات المترادفة الكثيرة الوجود فى اللغة العربية المكتتبة هو اختلاف القبائل التى تكلمت بهذه اللغة ، ولا يصدق أن بنى قريش أصحاب اللغة الفصحى كان عندهم خمسمائة اسم للاسد، والظاهر أن الذين جمعوا متفرقات هذه اللغة عن السنة العرب فلاجل شدة اهتمامهم وحرصهم على حفظها كاملة من دون أن يفقد منها شىء جمعوا كل ما وجدوه من موادها بين العرب الذين كان لكل قبيلة منهم لغة خاصة واصطلاحات جارية عندها دون غيرها ، والبعض يحسبون أن كثرة المترادفات فى العربية غنى لها . والحال أن ذلك لا يجب أن يحسب غنى لانه لا يفيد زيادة فى المعانى التى هى المقصد الاصلى من اللغات ، واللغة التى يوجد فيها ألفاظ كثيرة لمعنى واحد مع أنه يوجد معان كثيرة لا يوجد لها فيها ألفاظ للتعبير بها عنها هى فى الحقيقة فقيرة لا غنية وأهلها فقراء لا أغنياء ، و ينتج مقصود نافيما تقدم مما يأتى

قيل مر ذات يوم أبو علقمة ببعض طرق البصرة فهاجت به دابته مرة فوقع الى الارض فوثب عليه قوم يعصرون ابهامه و يؤذنون فى أذنه فافلت منهم وقال « مالكم تكأكأتم علىّ كتكأكئكم على ذى جُنة أفرنقعوا عنى » أى « مالكم اجتمعتم على اجتماعكم على مجنون اعتزلوا عنى » فقال بعضهم دعوه فان جنيته تتكلم بالهندية . وقيل ان اعرابيا اصطاد ذات يوم سنورا ولم يعلم ما هو فلقيه رجل فقال ما هذا السنور؟ ثم لقيه آخر فقال ما هذا الضيون؟ ثم لقيه آخر فقال ما هذا

من أوسع وأحسن مايوجد لاى لغة كانت يجهلان مستقبلها أهم وأعظم من باقى اللغات فى العالم ، واعتبار أهلها لها واحترامهم لقدميتها وفضلها صيراها غير قابلة للتغيير كعادات أهلها ، ومع مانراه من شدة ميل أبناء العرب ولا سيما فى هذه الايام الى اللغات الاجنبية وعدم التفاتهم الى لغتهم الشريفة لانخشى عليها من حوادث الدهر ، لان ذلك وقتى ناتج عن أسباب توجب زهدا فى اللغة العربية ورغبة فى اللغات الافرنجية ، وهذه الاسباب سلبية كانت أو ايجابية لابد من زوالها وبذلك يزول ماتسبب عنها . ومادام القرآن من الجهة الواحدة والكتب العربية فى فنون مختلفة من الجهة الاخرى مظللة على هذه اللغة يغلب الظن بانها تثبت غير منحصرة فى دائرتها الحالية وهى الهند وجزيرة العرب وشمال أفريقية بل ستمتد شرقا وغربا وجنوبا وشمالا بين أقوام آخرين ممن يقرون لها بالفضل وان كانوا لا يستطيعون التكلم بها ، ومع اننا نرى العجم والتتر والافرنج من الجهة الواحدة آخذين فى توسيع دائرة لغاتهم وادخالها بين العرب ، والمتفرنجين من الجهة الاخرى آخذين فى افساد و إماتة لغة أمهم بواسطة ابدالهم كلماتها المأنوسة بكلمات أجنبية نافرة لاتليق للغة العربية كما أن ملبوس أهلها لا يليق للعرب لابد من قيام أناس من أبناء العرب الغيورين على لغتهم يسقون مقدارا كافيا من الافيون « للكومسيون » و « السيكورتاه » و « سكوزى » و « افندم » وما ضاهاها فيغمى عليها بحيث لا يبقى أمل فى صحوها و يضعون قنينة من روح النوشادر أمام أنف « العمالة » و « الضمانة » و « لاتؤاخذنى » و « سيدى » وهلم جرا من الكلمات العربية التى تدل على المعانى المدلول عليها بالالفاظ المذكورة فتستفيق من سباتها ، و بهذه الوسيلة يزول الفساد الطارئ على اللغة العربية والذوق العربى من هذا القبيل ، على أنه كما أن الناس تحتاج الى الناس كذلك اللغات تحتاج الى غيرها ولكن يجب الاقتصار على مالا وجود له فى أصل تلك اللغة مما يزيدها قوة وحسنا لا تنافرا وثقلا

وايطاليا وجرمانيا وانجلترا فى مدارس أسبانيا من ينابيع آداب العرب المتدفقة ، وفى سالرنو ومنتبلر وقفت تلاميذ النصارى المتواردة الى هناك من جميع أقسام أوربا لاجل تعلم الطب على تصانيف أبقراط وجالينوس حتى ان اليهود واليونان لم يأنفوا من تعلم صناعة الشفاء من العرب ، ومن ذلك ان العرب هم الذين بواسطة قدرتهم وحسن صنائعهم نبهوا الافرنج فى أجيالهم المظلمة من سُباتهم الثقيل الى طلب العلوم والصنائع وذلك يسلم به الافرنج أنفسهم ولا ينكرونه

رابعاً فضل اللغة العربية وطواعيتها فى قبول العلوم من دون احتياج الى استخدام لغات أجنبية الافيماندر ، وبما ان اللغة هى من أقوى الوسائط لوجود الآداب وانتشارها بين أهلها لا بأس اذا توسعنا قليلا فى الكلام على اللغة العربية وما يتعلق بها على وجه الاستطراد فنقول

لا سبيل الى الشك بان اللغة العربية هى من أقدم لغات العالم وأكملها وأشرفها ولولا الخوف من أن تطلب منى البينة لكنت أدعى لها بانها هى اللغة التى أنزلت على قلب أبينا آدم فى الفردوس الارضى ، وأقل ما أرغب أن أدعى لها به هو انها مع أختيها اللغة السريانية واللغة العبرانية أعضاء متفرعة أو فضلات باقية من تلك اللغة الآدمية المنزلة ، والباين من تاريخ هذه اللغة ان الله قد حفظها بنوع عجيب لغايات لا تدرك من تقلبات الايام وصروف الدهر ، ومع ان أصحاب هذه اللغة وصلوا الى أحط درجة من الجهل والبربرية بقيت اللغة محفوظة عندهم بواسطة التقليب والنقل مصونة من الفساد والتشعب الى لغات شتى بخلاف لغات أوربا ، وبعد ان خضعت لسلطان القلم الاسلامى صار بذل العناية وصرف الهمة باختراع وسائط قوية لحفظها سالمة صحيحة ، واتساع قاموسها وغناها فى الالفاظ والمعانى يجعلانها فى الرتبة الاولى بين اللغات حية كانت أو ميتة ، وكثرة عدد المتكلمين بهذه اللغة وكون الاراضى والاقاليم والبلدان التى هى منتشرة فيها

منها وهى العلوم الطبيعية والعلوم الرياضية والعلوم اللغوية حتى انه لا يوجد فى العالم قوم يقدرون أن يفوقوا العرب حتى لا نقول أن يدركوا طبقاتهم فيها

ثانياً ثبات العرب وتجلدهم فى مقاساة المشقات والمصاعب المقترنة طبعا بتحصيل العلوم وذلك لدى وجود الاسباب المحركة اليها ، ويزيد ذلك وضوحا اذا اعتبرنا قلة الوسائط وضعفها فى تلك الايام ، فان البخار والسيال الكهربائى كانا حينئذ غير خاضعين للانسان وكانت المطبعة التى تحسب من أكبر قوات العالم والنظارة التى قلبت كثيرا من مبادىء الاولين من أساساتها لم تزل مستورة تحت ظل الغوامض وكانوا مع فقد صناعة الطبع يلتزمون ان يوجدوا كل ما أوجدوه من هذا القبيل بواسطة رأس قناة صغيرة الجرم ضعيفة العزم ، وكذلك قوة الانثى التى هى أكبر قوة فى الدنيا كانت فى تلك الاعصار محصورة فى لجج بحار الجهل العميق والغباوة الشديدة وكثيرا ما كانت هذه القوة تستخدم لاجل الضرب على رأس العلم فى نعومة أظفاره ، وعدم تحزب هذه القوة للعلم والعلماء كان من أكبر الاسباب لفقد العرب العلوم بهذا المقدار من السرعة

ثالثا فضل العرب على العالم فى هذا الامر وذلك من أوجه عديدة . منها انه فيما كانت العلوم والآداب فى خطر الفقد والتلاشى بسبب الحروب والمنازعات والفتن الاهلية فى العالم الغربى وجدت لنفسها فى مدارس العرب ملجأ تأوى أليه فحافظ العرب على الحلقة المتوسطة من سلسلة العلوم التى تربط العلوم القديمة بالعلوم الجديدة ولولا وجود هذه الحلقة لكنت ترى خلاء متسعا بين العلوم القديمة والحديثة لم يكن سبيل الى ملئه ، ومنها انه فيما كانت أوربا غائصة فى لجج الجهل والغباوة فى أجيالها المظلمة فتح العرب مدارسهم لقبول شبان الافرنج عندما استفاقوا من غفلتهم ووصلت العلوم تحت ظل وحماية العلم الاسلامى الى حدود بلادهم ، وهناك ناولتهم الاسلام باليد اليسرى أضعاف ما كانوا قد تناولوه منهم منذ نحو خمسمائة سنة باليد اليمنى ، وهكذا شربت شبان فرنسا

تهذيبها وتحسينها ، وكذلك الاشعار التى وجد عند العرب منها أكثر مما وجد عند باقى شعوب العالم جميعا لم تكن الا من نتائج اجتهادهم وجودة قريحتهم . ومن الغريب انه مع وجود اشعار « هوميروس » و « ورجليوس » وغيرهما من شعراء اليونان واللاتينيين المشهورين لا يوجد فى اشعار العرب شىء مقتبس منها . وقد ألفوا كتبا شتى فى علم الفلك والتاريخ ورسم الارض والفلسفة والالهيات والطبيعيات والحساب والجبر والمساحة والخطب والزراعة والنباتات والموسيقى والفقه وبين ذلك فنون قد تعللوا بها كالكهانة والعرافة وضرب الرمل وزجر الطير وقيافة الاثر والسحر والطوالع ونحو ذلك وقد كثرت فى جميع ذلك تصانيفهم ومحاوراتهم كما يتضح لمن وقف على فهرست التآليف العربية التى بقيت مع مرور الايام وتقلب الازمان محفوظة لتكون دستورا ومنخسا للمتأخرين .
قيل انه يوجد فى مكتبة باريس الملكية أكثر من مائتى مؤلف فى صناعة النحو وحده

وممن كان فرد زمانه فى فنه أبو بكر الصديق فى النسب وأبن أبى طالب فى القضاء وابن كعب فى القراءة وابن ثابت فى الفرائض وابن عباس فى التفسير ووهب فى القصص وابن سيرين فى التعبير وأبو حنيفة فى الفقه ومقاتل فى التأويل والخليل فى العروض والمتنبي فى الشعر والاشعرى فى الكلام والحريرى فى المقامات والرازى فى الطب وابن حنبل فى السنة وأبو معشر فى النجوم وابن نباته فى الخطب والقاضى الفاضل فى الانشاء والاصمعى فى النوادر وابن سينا فى الفلسفة وابن جابر فى الكيميا وأبو الفدا فى التاريخ والفارابى فى التطبيقات والادريسى فى الجغرافيا والغزالى فى الالهيات وغيرهم فى غيرها . هذا ومع ان الافرنج قد أخذوا تلالا بل جبالا من الكتب العربية مما لم يبق له عين ولا أثر عند العرب نرى ان التصانيف التى أبقتها الناصروف الايام هى وحدها كافية لان تبرهن لمن وقف عليها الامور الآتية وهى :—

أولا جودة العقل العربى وحسن استعداده لتحصيل العلوم ولا سيما ثلاثة أنواع

والآداب واجتهادهم فى نموها وانتشارها ، واذا حققنا النظر فيما وصل الينا من فضلات علومهم ، وآثار جهادهم ، نرى انهم وان كانوا قد أخذوا علوما وفنونا كثيرة من اليونان والعجم والكلدان بواسطة الترجمة والاقتباس لا يمكن ان نسلم بأنهم إنما كانوا متقلدين لا مخترعين كما يزعم بعضهم ، لأننا نرى ان نفس العلوم التى سبقت الاشارة الى انهم ترجموها من لغات أجنبية قد اخترعوا فيها وزادوا عليها أمورا كثيرة جدا ، فان فن الطب مثلا الذى وجد قبل انتباه العرب الى العلوم باجيال كثيرة و ينسب اختراعه الى «ابقراط» اليونانى وتوسيعه الى «جالينوس» كان لم يزل ناقصا حتى كمله «ابن سينا» بعد ان كان «الرازى» قد جمع أبوابه المتفرقة فى كتاب سماه بالحاوى

وصناعة الكيميا فانها كانت قبل العرب فنا قد سرت اليه الاوهام الفاسدة وداخلته الشعبذات الكاسدة ، فأخذته العرب واخترعت فيه أمورا كثيرة حقيقية وأدخلته فى علم الطب مع انه كان قبل أيامهم من أبواب السحر يستخدم لأجل تحويل المعادن الى ذهب بواسطة حجر الفلاسفة الذى كان الاقدمون يظنون انه ذو خاصية لسحر الارواح الخبيثة ، وشفاء الامراض ، واطالة الحياة الى ماشاء الله ، وهكذا القول فى أكثر العلوم الاخر التى أخذتها العرب عن الاجانب

وأما العلوم التى لا يشك فى كونها من اختراعات العرب فهى كثيرة يحتاج الى وقت مستطيل لتعداد مفرداتها وتصانيفها . فاننا اذا أمعنا النظر فى العلوم المتعلقة باللغة العربية التى كانت قبل الاسلام لغة عديمة الضوابط والقوانين ومتفرقة على ألسنة قوم لم يكن لهم التفات الى العلوم والفنون ولا حظ فى صناعة الحروف والتأليف نرى ان العرب قد صرفوا الهمة فى ايجادها ، فوضعوا لهذه اللغة العجمية ضوابط وقوانين لاجل صيانتها من الفساد ورتبوا لها كتب لغة مشهورة قد جمعوها عن ألسنة العرب لاجل حفظها ، وجعلوا لها فنونا كثيرة مستظرفة كالمعانى والبيان والبديع والعروض وهلم جرّا لاجل

المدينة تمتد فى أوقات مختلفة الى ستة آلاف تلميذ من كل رتبة من ابن الشريف الى ابن الصناعى ، وحسن مدارسها يظهر فى كثرة عدد الشعراء والمؤرخين والاطباء والمنجمين الذين خرجوا منها ، فقد كانت تنشأ مدارس صغيرة وكبيرة ومكاتب فى كل بلدة . والبصرة والكوفة كادتا تساويان العاصمة نفسها فى الشهرة نظرا الى عدد المعلمين المشهورين الذين خرجوا منها وكثرة التصانيف المعتبرة التى ألفها علماؤها . وكذلك دمشق وحلب و بلخ وأصفهان وسمرقند كان بها كثير من المدارس والمكاتب المعتبرة وقد خرج منها جمع غفير من فحول العلماء المدققين الذين لا يسعنا الوقت لذكرهم . ولا ينبغى ان نغفل عن ذكر القيروان وفاس ومراكش من أعمال المغرب التى كانت مزينة بمدارس سامية ومكاتب معتبرة لأجل تعليم المغاربة الذين كانوا قديما ولا يزالوا الى الآن فى أعلى طبقة من الحذق والنباهة و بواسطة مدارس المغاربة ومكاتبهم المشهورة قد حفظ للغيرة الافرنجية فى القرون المتأخرة ذخائر ثمينة وكنوز فاخرة من العلوم والفنون

غير ان البلاد التى تلألأت فيها الاداب العربية بأكثر لمعان و إشراق ، و بقيت فيها مدة طويلة بعد أن درست فى البلاد المشرقية هى بلاد أسبانيا ، فان «كردوفا» و«سيفيلى» و«غرناطه» كانت تفاخر احداها الاخرى فى عظمة مدارسها ومكاتبها ، وقد كان فى مدينة كردوفا وحدها نحو مائة وسبعين رجلا من فحول العلماء من أهاليها ، وكان فيها مكتبة عظيمة تحتوى على نحو أربعمائة الف كتاب ، وكان فى حوزة المتوكل الذى تسلم زمام الحكومة فى الجيل الثانى عشر مكتبة معتبرة تحتوى على كتب نفيسة كان منها مائة وعشرون مؤلفا فى الالهيات والتاريخ والفلسفة ولم تزل نسخ منها محفوظة الى الآن فى مكاتب أوربا المعتبرة ، وكان فى مملكة الاندلس وحدها سبعون مكتبة وسبع عشر مدرسة كلية

فمما تقدم بيانه يتضح لنا شدة حرص العرب فى تلك الايام على اكتساب العلوم

والمعاهدة ان الملك ميخائيل يبعث اليه مجموعا من التصانيف المعتبرة النادرة الوجود الموجودة فى المكتبة المذكورة وماصدق ان وصل ذلك اليه حتى أمر أحذق علماء بلاطه بترجمته الى لغته العربية المشرفة ، قيل و بعد تميم ترجمة تلك المكتبة المعتبرة فبغيرة مفرطة على شرف لغته أمر باحراق النسخ الأصلية ، وفى أيام المأمون أنشئت مدارس كثيرة كلية فى بغداد والبصرة وأماكن أخرى وجمعت مكاتب شتى فى مواضع مختلفة ، قيل ان المأمون عرض مبلغا وافرا على ملك الروم و وعده بالصلح الدائم والمصادقة اذا بعث اليه بليو الفيلسوف اليونانى الشهير .

ومن الخلفاء الذين حاموا عن العلم والعلماء وصرفوا الهمة فى اكتساب الآداب واتقانها ألواثق وكان ماهرا فى فنى الشعر والموسيقى وكان له ميل زائد الى التنجيم ، قيل انه لما اشتد مرضه أحضر المنجمين فنظروا فى مولده فقدروا له انه يعيش خمسين سنة مستأنفة من ذلك اليوم الا انه لم يعش بعد قولهم الا عشرة أيام . وأخر خليفة التى آخر نو ر على أبناء بلاده هو المستنصر فانه زين بغداد بمدرسة عظيمة سماها المستنصرية ، قيل ولم يكن فى الممالك الاسلامية نظير لتلك المدرسة فى صورتها وآلاتها واتساعها و زخرفها وكثرة فقهائها وأوقافها وقد رتب فيها جماغفيرا من المدرسين والفقهاء و بنى لهم داخل المدرسة حماما خاصا و رتب للفقهاء طبيبا خاصا يفتقدهم كل يوم وأقام لهم من المشاهرات والخبز والطعام ما يكفيهم و يفضل عنهم .

هذا وان كثيرا من الوزراء والنواب حذوا حذو ملوكهم فى تقوية العلوم وامتدادها فى الأماكن البعيدة عن العاصمة ، فان مصر مثلا بقيت أجيالا كثيرة مزينة بالعلم والعلماء حتى كنت ترى فيها مدارس للعلوم فى كل مدينة و بلدة وقرية ، قيل ان أحمد بن طولون نائب مصر كان يوزع كل شهر على مشايخ بلاده الف دينار وكان يرسل الى بغداد لاجل التوزيع على علمائها وفقرائها نحو ٢٢٠٠٠٠ دينار وكانت فوائد التعليم فى هذه

ولكن اوغسطوس الآداب العربية هو الخليفة عبدالله المأمون بن هرون الرشيد فانه لما أفضت الخلافة اليه تمم ما بدأ به جده المنصور فأقبل على طلب العلم فى مواضعه وكان منذ نعومة أظفاره مولعا بالمطالعة والدرس وقد اتخذ فى حياة والده صحابة له من مشاهير علماء اليونان والعجم والكلدان ، ولما تبوأ تخت السلطنة لم تلهه مهماتها وعظمتها عن الاعتناء بالعلوم والقيام بحقها وحق أربابها ، فكانت الشعراء والفلاسفة والمهندسون تتوارد اليه الى بغداد من كل بلاد وملة ، وقد أمر سفراءه ونوابه فى ارمينية وسوريا ومصر أن يجمعوا ما يمكن وجوده فيها من الكتب الأكثر اعتبارا ويبعثوا بها اليه ، فكانت ذخائر آداب الأقاليم التى تغلب عليها تجمع بكل اعتناء وتوضع أمام عرشه كاعظم جزية وأفخر التحف والهدايا عنده ، فكنت ترى مئات من الجمال داخلة بغداد حاملة كتبا من آداب اليونانيين والعبرانيين والعجم . وقد داخل ملوك الروم وسألهم صلته بما لديهم من كتب الفلسفة فبعثوا اليه منها ما حضرهم فاستجاد لها مهرة التراجمة وكلفهم احكام ترجمتها فترجمت له على غاية ما أمكن ثم حرض الناس على قراءتها ورغبهم فى تعليمها وهكذا كان بلاطه ببغداد مؤلفا من المعلمين والشراح والمترجمين ، فكانت بغداد مدرسة علمية كما كانت عاصمة مملكة . وكان يخلو بالحكماء ويأنس بمناظرتهم ويلتذ بمذاكرتهم علما منه بان أهل العلم هم صفوة الله من خلقه ونخبته من عباده ، وقد صرفوا عنايتهم الى نيل فضائل النفس الناطقة وزهدوا فى ما يرغب فيه أهل الصين والترك ومن نزع منزعهم من التنافس فى دقة الصنائع العملية والتباهى بأخلاق النفس الغضبية والتناظر بالقوى الشهوانية اذ علموا ان البهائم تشاركهم فيها وتفضلهم فى كثير منها ، ولهذا السبب كان أهل العلم مصابيح الدجى وسادة البشر توحش الدنيا لفقدهم . قيل ان المامون اذ كان يعلم بوجود خزائن متسعة من التصانيف العلمية فى مكتبة القسطنطينية فلما عقد الصلح مع ميخائيل الثالث ملك الروم جعل أحد شروط الصلح

آثار أقلامه

نخب من نثره

أداب العرب فى عهد الرشيد

كان هرون الرشيد شهرة عظيمة فى الرغبة والهمة والنشاط فى احياء العلوم والآداب ونشرها فى مملكته المتسعة ، وكان هو نفسه ماهراً فى الشعر والموسيقى ، ومغرما بهذين الفنين المستظرفين ، وقد كتبت فى أيامه تصانيف كثيرة فى علوم المملكة الاسلامية ، وقد جمع فى بلاطه جماغفيراً من أكابر وفحول العلماء ، فكان أقرب الناس منه وأحبهم اليه العلماء ، فكان يحسن مثواهم ، ويجزل عطاءهم ، ويرفع منزلتهم ، فاضحت العرب مديونين كثيراً له فى أمر تقدمهم السريع فى الآداب لانه سن شريعة انه حينما بنى جامع فى مملكته يبنى بجانبه مدرسة الآداب . وكان كلما سافر الى مكان أو قصد الحج يستصحب معه مائة من علماء زمانه ، وكان يعتبر العلم أينما وجد ، والعلماء مهما كان مذهبهم ، فلم يكن يزدرى بمعرفة من يخالفه فى أمر المذهب فان رئيس مدارسه وأول مدير للعلوم فى المدارس العالية فى مملكته كان رجلا نصرانيا نسطوريا دمشقيا اسمه يوحنا بن ماسويه وقد اقتدى بمثاله هذا الذى يدل على جودة عقله وكرم أخلاقه خلفاؤه ، وهكذا لم يمض الا قليل حتى امتدت الآداب التى كانت تعلم فى العاصمة منتشرة الى اقصاء الخلافة

والتمس من لدنه الاعانة فصدرت ارادته رحمه الله بامداده بما يكفل ظهور هذا الكتاب في حيز الوجود فاشتركت الحكومة المصرية بألف نسخة وأمدته بمكتبة عظيمة حوت أجل الكتب وأنفعها للاستعانة بها على تحرير الدائرة ولم تقف هذه الاعانة عند هذا الحد بل اقتدى رجال الحكومة بمولاهم وسراة الامة المصرية بعزيزهم وفاضت أيديهم بالمساعدات المالية وأخذ البستاني في تحريرها بمعاونة نفر من المتادبين وطائفة من خريجي مدرسته الوطنية في بيروت وكان غب سرادقها ان وقفت به حياته دون اتمام الجزء السابع منها فأتمه وأصدر الثامن ولده سليم ولحق به ثم اتحد ولداه الآخران نجيب ونسيب مع ابن عمهما العلامة سليمان افندي معرب الالياذة على السير على نهج منشئها لاصدار باقي أجزائها فأصدروا التاسع ثم جاؤا مصر وأصدروا العاشر والحادي عشر ثم وقف بهم الجد عند هذا الحد واشتغل كل منهم بشؤون حياته . ولعل باقيها لن يصدر أبدا على ان ماظهر منها الى الآن لا يزيد على النصف بشيء يذكر وبهذا فقد دل ماصدر منها على علو همة منشئها وقصور خلفائه

جرائد — نفير سوريا . هي على مايقال أول نشرة عربية ظهرت في سوريا اذ أنشئت سنة ١٨٦٠ م — الجنان . مجلة علمية أدبية سياسية أنشأها سنة ١٨٧٠ وعهد بادارتها الى ولده سليم — الجنة . صحيفة سياسية أنشأها بعد الجنان ببضعة أشهر — الجنينة . جريدة أنشأها بعد الجنة بزمن قليل وولى زمامها العلامة سليمان افندي البستاني . وقد بطلت هذه الصحف منذ عهد بعيد

روبنسن كروزي — قصة ترجمها بعبارة لا ترتفع عن العامية بشيء وهي في موضوعها وغايتها أشبه بقصة السندباد الواردة في كتاب الف ليلة وليلة ولا فرق بينهما الا ان عبارة السندباد أسلم من عبارتها وأرق . وهي مطبوعة منتشرة

وله غير ذلك كتب ورسائل وخطب ومترجمات مدرسية وغيرها أكثرها معروف لدى الطلاب

الا ان يلحقه بأولئك الذين ينعتونهم بقادة الافكار ومحركى النهضات العلمية والذين تظهرهم طبائع الاحوال فى كل جيل ، وقد خمدت الاذهان ، وجمدت الخواطر ، وسبحت العقول فى بحار ما ألفت ، ووقفت حركات النفوس عند حد ما عرفت ، فيحملون من عرفانهم منارا ، ويمهدون للافكار طرائق قددا ، ثم لا يلبثون ان تذهب بهم الايام ولا يبقى لهم مما يذكرون به من الآثار الا ما يكون شاهدا على نفوسهم ، مشيرا الى ذكرهم بالخلود والبقاء ، أو التلاشى والفناء ، على انه مع هذا كان من جبابرة الناهضين

مُؤَلَّفَاتُهُ

محيط المحيط — قاموس عربى جليل أفرغ فيه قاموس الفيروزابادى غير أنه رتبه ترتيبا حسنا على نمط الاساس والمصباح وأضاف اليه طائفة من الالفاظ العامية والكلمات الاعجمية الدائرة على الالسنة ورفعه الى السلطان عبد العزيز فاثابه عليه بالوسام المجيدى الثالث وجائزة من المال . شاع هذا الكتاب شيوعا عظيما حتى أصبح الآن نادر الوجود . وقد بلغنى ان المعلم عبد الله البستانى الشهير فى سوريا بالفضل والادب قد أمضى زمنا وهو ينظر فى هذا الكتاب نظر تهذيب واصلاح ويرد كثيرا من الالفاظ الى أصولها وقد عزم بعد النهاية من تصحيحه وتنقيحه ان يقدمه للطبع لعل الله يوفقه لاتمام هذه الخدمة التى تذكر فتشكر

قطر المحيط — اختصره من سابقه وجعله قاموسا مدرسيا وهو معروف متداول

دائرة المعارف — سفر جليل من أجل الاسفار وأحفلها . فكر فى وضعه بعد انتهائه من قاموسه المحيط ثم كتب نموذجا عنه ورفعه الى ممدن مصر الخديو اسماعيل

وأخذ مبادىء القراءة والكتابة عن الخورى ميخائيل البستانى ، ثم التحق بمدرسة عين ورقة فدرس بها قواعد العربية وشدا شيئاً من السريانية واللاتينية والايطالية والعبرانية والانكليزية وغير ذلك من الفنون والآداب . ثم صحب المرسلين الاميركان وعلم فى مدارسهم ، وأظهر من البراعة والاجتهاد ما جعله موضع اعجابهم ، ومن ثم أبرمت أسباب الصداقة بينه و بين الدكتور فانديك الشهير وظاهر كل منهما صاحبه على مشاريعه العلمية والادبية من تأسيس المدارس وأنشأ الكتب والصحائف وسواها . ثم عين مترجما لقنصلية أميركا فى بيروت ولم يشغله ذلك عن وضع الكتب لتلاميذ المدارس وتعريب ما يرى فيه النفع للمتأدبين . ثم صبت نفسه الى التوسع فى تأليف الكتب ونشر الاداب والمعارف فاكب على التصنيف ونشر الصحف يتلو بعضها بعضا بهمة لا تعرف الملل كما ترى ذلك مفصلا فى باب «مؤلفاته» وما زال يعمل و يكد فى خدمة البلاد بنشر الآداب بين طبقات أهلها الى ان وافاه أجله فتوفى سنة (١٨٨٣) وما انتشر نعيه فى الآفاق حتى أبنه الادباء ورثاه الشعراء

مُمَيِّزَاتُهُ

لوشاء الكاتب ان يصف ما امتاز به البستانى الكبير وصفا يصافح الحقيقة ، و يلبسه من خصائصه الادبية ثوبا نسجته يد الاصابة ، لتأبى عليه القلم ان ينظمه فى سلك المجيدين من الكتاب ولو كانوا أبناء عصره وأتراب زمانه ، وذلك لان من يسرح طرفه فيما ترك من المؤلفات ، و ينعم نظره فيما له من الآثار والمنشئات ، يرى انه لم يكن يعمل على ان يحسب فيما كتب من البلغاء ، أو يعد فيما أنشأ من الكتاب الابيناء ، ولا يسع الكاتب

المعلم بطرس البستاني



ترجمته

هو بطرس بن بولس البستانى من أعيان مسيحيي سوريا ورأس هذه الاسرة البستانية الكريمة ولد سنة (١٢٣٥ هـ ١٨١٩ م) فى قرية الدبية من قرى لبنان

عينا الحب

لم أنس تقسيم عينيه فواحدة * الى الرقيب وأخرى بالوصال تعد
نخزبه حوله واللحظ يسعفنا * بما نشاء وكل بالمرام سعد

فلكية

انظر الى الشمس لما البدر قابلها * وكان قصدهما ان يظهرا الشغفا
ما استحكم الأمر حتى حال بينهما * وجه الرقيب الكثيف الجرم فانكسفا

تجاهل العارف

رأتني ومن تخشى يساجلني الاسى * فقالت شفاه الله من ذا المتيم؟
فقال فلان صاحبي فتنهدت * وقالت ايا روحي تعيش وتسلم

التغافل

أخلو به ليلى ولى ما أشتهى * ويمر بى فى الصبح لا يتكلم
واذا التقينا والرقيب فلفظه * هجر واما لحظه فمسلم

عفو القادر

اذا الله أولانى اقتدارا على امرىء * اساء جعلت العفو شكرا لما أولى
لانى لم أفضله ان جئت مثله * وبالحر ما أحرى الكمال وما أولى

شرف النفوس

ان الفضيلة فى الانام غدت على * شرف النفوس الشم أقوى حجة
فاذا أدعيت بان أصلك يافتى * من سادة الابطال أهـل الهمة
أوضح لنا نور الشهامـة مثلهم * وعلى رفيع المجد أحسن غيرة
ودع المظالم فى البرية واحترم * تلك الشريعـة وانف كل رذيلة
واذا أدت الفخر فاسهد دائبا * لطلابه واهجر لذيذ الهجعة
فتكون ذا شرف فتلك دلائل * دلت على شرف وكل فضيلة

منشية الاسكندرية

بسكندرية للصفا منشـية * غراء واضحـة البها غناء
سطعت شموس الحسن فى ارجائها * وبدوره فلها سـنى وسـناء
ولمائها الصافى اذا لعبت به * شمس الاصيل مع الضيا لألاء
حيث التفت رأيت ازهى روضة * سال النضار بها وقام الماء

فعل الهوى

خلعت عذارى فى الهوى متهتكا * ونزهت وجدى بالملاح عن الكتم
وطاب الىّ اللوم فيـه ولذلى * وقوع جهول بالمحبـة فى ذمى
فيا صبوتى زيدى ويارشد خلنى * وسفه عذولى فى الصبابة ياحلمى

غلالة الجمال

سل عن عناقى بنده وفراشه * هل حدثتنى همتى بحرام
لوكنت بل لا كنت تبصره وقد * نضى الغلائل عنه فى الحمام
وعليه من عرق در وع افرغت * وسطا وصال بصعدة وحسام
لرأيت قامة فضة من لؤلؤ * حملت شباكا فى أتم نظام
ماذاك الا والحيا متراكم * والجو مشتمل ببدر تمام
عجبا لخفة ذاته ولعقده * جبلى حنين فى نحيل قوام
مازال سكرى من سلاف حديثه * ولحاظه لا من عتيق مدام
ابدا يقابل در دمعى كلما * أشكو بلؤلؤ ثغره البسام
كيف التخلص من هوى رشأ غدا * سلطان حسن نافذ الاحكام
رشأ حوى ظرفا وحسن شمائل * أما الجمال فأوفر الأقسام

جنة مصر

عبدين نزهة مصر أضحت جنة * تزهو بابهج حلية وجمال
بالمنهل العذب الشهى بهابدت * بالحسن والاحسان شمس نوال
شخصت لها الابصار لما أصبحت * فى حسنها الزاهى بدون مثال
شرفت بسا كنها المفدى من غدا * بحر النوال ومنية الآمال
لازال محفوظ الجناب ممتعاً * بالعز والاسعاد والاقبال
أجرى من الاحسان فيها كوثرا * عذبا هنيئا طيب السلسال

وكلما خر للشكوى تجود له * أكمامها من نثار النَّور بالبدر
مثل العرائس يجلو حسن بهجتها * مرُّ الصبا فى بديع الوشى والحبر
تكاد تسلب لولا ان بلبلها * راق يعوذها من آفة الحور
فالشهب ساطعة والقضب راكعة * والطير ساجعة تشدو على الشجر
وللنسيم على الاغصان ولولة * كانما هو يتلو العشق فى سور
فصوته وهزار الروض حين شدا * قد وافقا نغمة الشادى على الوتر
فكان بالعود مع ذا كله طربى * طوراً وطوراً بما يحلو من السمر
ومن أحب على لهوى يساعدنى * والدهر عبدى فلا أخشى من الغير
وراحه ولماه كلما اجتمعا * يحار لبى بين السُّكر والسَّكر
وكيف أصحو ولى من شهد ريقته * خمر تألف بين الطيب والخصر
عجبت للثغر يروينى بكوثره * والخد يرمى لظاه القلب بالشرر
ومن جنى خده وردى وفاكهتى * مما يحيي به من يانع الثمر
يقول قم واقترح ماشئت تلق كما * تهوى بلا ملل منى ولا ضجر
فيالها كلمات كلها تحف * بحسن رقتها قد حيرت فكرى
اشهى من البرء بعد السقم عندى بل * بعد العنا والاسى أحلى من الظفر
بها خلعت عذارى بل لبست بها * ثوب الخلاعة لم أركن الى الحذر
وبت أعثر فى ذيل المجون كما * يهوى شبابى وبعت النسك للكبر
فالشمس راحى وبدر التم حاملها * واللثم نقلى ومنديلى من الزهر
وكلما جد من أهوى لسفك دمى * جديت بالكاس فى سفك الدم الهدر
مازال يشربها صرفا وأشربها * ممزوجة باللمى والغنج والحور
فيالها ليلة ما كان أطيبها * عندي وما كان احلى لذة السهر

واشرب وأرو الارض فى صبها * وانف بها الاتراح عن صبها
وخلق البيت سرورا بها * «وعدّ عمن لام فى شربها
فليس يدرى لذة الاكؤس»

وهاتها ولا تطع من نهى * وان تجد نفسا شكت أينها
فاصبب على الكاس أودنها * «وان يكن قد نجسوا عينها
فعاطنيها ويك واستنجس»

مضناك يامولى الملاح اسقه * راحا روض الصعب من خلقه
والله تواب على خلقه * «فقل لمن قد راح من حمقه
من رحمة الله بها ميئسى»

العبد ان تاب فما مثله * قد أخبرت عن ربنا رسله
فياجهولا ساءه جهله * «ان الذى آنسنى فضله
من شانه العفو الى من يسى»

صفو ليلة

ياليلة هى كانت ليلة العمر * بقصر شبرا ونهر النيل والقمر
والجو طلق المحيا والصبا جمعت * لطف الاصيل لناسم رقة السحر
حيث السماء بها الافلاك سائرة * كالفلك دائرة فى لجة النهر
والبدر مكتمل فيها وقد نظمت * من حوله نيرات الانجم الزهر
كغادة من بنات الروم حلتها * من لاز ورد عليها انفس الدرر
والنهر يجرى لجينا من سباه ومن * يد النسيم عليها أبدع الصور
والموج يبدى فنون الرقص فى مرج * يجلو صدا النفس والافكار والبصر
والماء صب باغصان الربا كلف * للثم أقدامها يجرى على قدر

عمر مضى لو بالصفا نلته * مر سريعا ما تأملته
بالنحو والمنطق أشغلته * «يا ويح قلبي ما الذى قلته
فضول اسم لو بنا فقعس»

وشمل درس العلم قد شتتا * وليس يستعوض ما فوتا
فهاتها من كف ذاك الفتى * «الى م ذا النحو وحتى متى
أدرسه ياليت لم أدرس»

كم رحت أسعى لابسا «مقلتى» * فقال لى المولع بالشيرة(١)
مستهزئا بى رد لى زوجتى * «بعدا لبيقارى وفرجيتى
ومشيتى كالخائف المبلس»

والظبي جرجى بين اترابه * كالشمس أو كالبدر مع شهبه
يسخر من مكثى على بابه * «وكمى المهدول مما به
من كتب محفوظها قد نسى»

ويضحك الناس بتأنيبه * على جوى قلبي وتعذيبه
وعارضى الزائد فى شيبه * «وطيلسانى حين أمشى به
شبيه درجانس أوجرجس»

أرى المجوس جهلوا قدرها * لوانصفوها عبدوا نارها
كم كست الندمان أنوارها * «لوعلم المسكين مقدارها
ماراح فى حاناتها مكتسى»

فالكاس أضحى للصفا كافلا * وسدبابا للاسى مقفلا
فلا تراع مجلسا حافلا * «قم ياندىمى واسقنيها فلا
وفقت ان حييت ذا المجلس».

(١) يريد بالمقلة العمامة الكبيرة على التعريف العامى. والشيرة «الحشيشة» وحسن الهيئة

واشرب وشم نجم الهنا طالعا * واسق فتى فى نفعها طامعا
وكلما قلت أمل كن طائعا * « ولا تكن منى بذا قانعا
حتى ترانى ضحكة المجلس »

وخل أهل الفقه تهذى به * ومل الى الشعر وتهذيبه
فى حلية الكاس وتذهيبه * « هذاهو العيش ومن لى به
فى دير مار الياس أو بطرس »

والفقها عنك أذى حمقهم * والروم قض العمر فى عشقهم
وفيهم فارع و فى حقهم * « رهبان دير طيب أخلاقهم
أصفى من الراح لمستأنس »

أما تراها للصفا منهجا * فلا تطع فى شربها من هجا
واشرب وامهر بكرها بالحجا * « مع فتية شبه بدور الدجا
اذا بدوا فى اسود الملبس »

فبع نفيس الكتب واشر الطلا * واهجر شيوخ الفقه هجر القلى
واصحب ظباء ثغرهم قد حلا * « أكثر ألفاظهم اشرب فلا
تسمع فيها أفت أو درّس »

فالعمر عند الفطن النابه * مستودع لابد من نهبه
فصرفه فى الراح أولى به * « مالى وللفقه وأصحابه
يا نفس منهم آن أن تياسى »

قلبى فى سخط الهوى قدقضى * ياليته حق التصابى قضى
فى ذمة اللهو زمان الرضا * « وفى سبيل الله عمر مضى
فى نجس الماء ولم ينجس »

والنرجس الغض لنا رامق * وبالتصابى لحظه ناطق
والدوح منه لونها رائق * «كانما مصفرها عاشق
صب بأثواب الضنى قد كسى»

كانما الازهار لما زكت * من شوكة الورد جميعاً شكت
والبلبل الصائح خوفا سكت * «كانما الخيلان نار ذكت
لكن بغير الطرف لم تقبس»

كأن طرف الدهر عنا قذى * وقد رقينا برقى العائذ
طائر قلبي فرَّ من منقذى * «كان غصن البان قد الذى
أهواه فى ملبسه السندسى»

لو خفت مثلى طرفه الادعجا * أولو رأيت فرقه الابلجا
والشعر لو أبصرت لما سجا * «كان بدر التم تحت الدجى
جبينه الباهر فى الحندس»

فيا نديما لى بمخلوجة * مصباحها ضاء بديجوجة
نفسى لا ترضى بمشجوجة * «فعاطنيها غير ممزوجة
عذراء تجلو صدأ الانفس»

بحق ارشادك فى نهجها * ورشفها كالشمس فى برجها
لا تمن الماء على شجها * «فان يكن لابد من مزجها
فمن رضاب الشادن الالعس»

فلو سقيت المعدم المعسرا * كأساً دهاقا ذهبا أحمرا
لصار فى الحال مليك الورى * «فاشرب وناولنى الى أن ترى
طلق لسانى عاد كالاخرس»

نبذمن شعره

تخميس نفيس
على سينية ابن خطيب داريا

بحق عهد بيننا مانسي * وفرط تعذيبك للانفس
وشربك الياقوت بالاكؤس * «هات اسقني الصهباء يامؤنسي
على بساط الزهر والنرجس»

واهزم بها عني صروف الجوى * وخل من باللوم فيها غوى
واسق كليم القلب فهي الدواء * «فالوقت قدراق ورق الهوى
وجاد بالوصل الزمان المسي»

ان الصبا في حسن تسياره * قد جعد الماء بتياره
وحرك النفس بزماره * «والروض قد وافى بأزهاره
يتيه في زاه من الملبس»

أما ترى تاج الربيع انعقد * وألبس النهر دروع الزرد
وخلق الارض بثوب الجسد * «كانما الاغصان غيد وقد
لبسن أثوابا من الاطلس»

كانما عصفورها شارب * يهزأ بي كأنني تائب
والروض خودوالحيا خاطب * «كانما شحرورها راهب
يردد الانجيل في بُرنُس»

والسلالة الشيطانية، فالقول بيان ، وليس الخبر كالعيان ، ضروب من الانام ، لا يميزون بين الحلال والحرام ، قد كان استدرجهم الامهال ، وتوسع لهم المجال ، حتى طغوا فى البلاد ، وأكثروا فيها الفساد ، فتوطنوا حجور المظالم ، وارتضعوا اخلاف المآثم ، حتى صاروا بمديرية التاكه « كسله » أظلم من جند السفينة ، وأجرأ من اليزيد على حرم المدينه ، ولكن سطوة القوة العسكرية بنفوذ الصحة الخديوية ، قد أوقعت بهم الحين ، فى أقل من طرفة عين ، حتى صاروا كأنهم أعجاز نخل خاوية ، فهل ترى لهم من باقية ، كلا قد خلت منهم البلاد ، واستراحت العباد ، والذين اعتصموا بالنوبة والتزموا بالاوبة ، صار جلاؤهم عن مدرج أوكارهم ، وأخرجوا من ديارهم ، وبدد شملهم ، وفارقوا أماكنهم ، فاصبحوا لا ترى الا مساكنهم ، وتلك عاقبة المفسدين ، والحمد لله رب العالمين

من رسالة الى شريف باشا

الكريم يصون وجه الحر عن الابتذال ، ويقيه بعز كرمه ذل السؤال ، والعبد منتظر اشراق طارق السعد ، لوثوقه بنجاز سالف الوعد ، وقد عيل الاصطبار ، وطال الانتظار ، والمأمول فى سيدى أن لا يخيب قاصده ، وبحر كرمه لا يظمأ وارده ، وقد أشاع القاصى والدانى ، انى بلغت بهمته الامانى ، حتى وفدت على مراسلة التهانى ، من أصدقائى وخلانى ، وحاشا كرمه الجم ، واحسانه الذى عم ، ان يرضى بعودى صفر اليدين ، ورجوعى الى أهلى بخُفّى حُنين ، سيما وقد علم الجميع ، انى التجأت الى ركن مجد منيف ، وتمسكت من حسن التفاته بوعد كريم شريف

السفيانى ، وبعثت بالرياح السوافى ، ورميت بثالثة الاثافى ، ورصدت الكواكب ، وميزت بين المغلوب والغالب ، وزحفت فى جنود صفين ، وقاتلت الى يوم الدين ، لما كنت ظفرت على حشراتها بالفتوح ، ولو عمرت عمر نوح ، فانا كنا فى مصادمة الامطار ، ومزاحمة الاقدار ، لولا أن منّ الله بحضور سعادة جعفر مظهر باشا الحكمدار ، فانه قد شمر عن ساعد الاجتهاد ، وبث الطلائع والرواد ، واستدرك مافات ، فى دفع الآفات ، وبذل جهده فى تنقية هذا البلد ، ووالدوما ولد ، وأكب بهمته عليها ، ونظر بعين العناية اليها ، والمأمول أنها بهمته ان لم تكن كإرم ذات العماد ، فلابد أن تعد فى متمدن البلاد ، وينال أهلها الرفاهية ، ويتمتعون بثمرات الامنية ، ويزاحمون فى التمدن باقى الدول ، ويقاومون بالعمارية أكبر الملل ، فى ظل السياحة الداورية ، وحسن توجهاتها السنية ، أعان الله تعالى الحكمدار على ذلك ، ووفقه لما هنالك

وأما أهلها الآن ، فهم على حال من غبر من الزمان ، زاعمين انهم أرداف أفيال ، وأبناء أقيال ، فترى منهم الملحف للحاجات ، من طريق العادات ، ومنهم من يلمزك فى الصدقات ، فان أعطوا منها رضوا ، والا أعرضوا ، وعليك اعترضوا ، ويمشى الناهى ، وهو لاهى

وكم نرى كلما أمعنت فى رجل * مثل النعامة لا طير ولا جمل

يمر كالثور والاطواد تنشده * انا محيوك فاسلم أيها الطلل

وأدخل من هذا القبيل ، فى العريض والطويل ، الى مالا يزهو فى العين ، ولا ينفق بدرهمين

ان تزره تجده أخلق من شيب الغوانى ومن تعفى الطلول

ومتى أضربت عن هذه الخبائث ، وعززتها بثالث ، رجعت الى العساكر السودانية ،

آثار أقلامه

نخب من نثره

مدينة الخرطوم

اقتعدنا غوارب الاقتاد ، وجبنا الصخور والاوتاد ، مسئدين فى المهامه والقفار ، مستنذين الى أعواد الاكوار ، مصطحبين مايفت فى عضد الاصطبار ، ويقلب قلب القرار على النار ، من شعث الطريق ، وحزن نث الضيق ، الى أن وصلنا بالمقدر المحتوم ، الى بندر الخرطوم ، فكانت المحفوفة بالقذى ، المحروسة بالاذى ، لانها القرية الظالم أهلها ، المستحيل مثلها ، بسبب هوائها الوخيم ، ووبائها المستديم ، فكنت تراها أقذر من بيت الدجاج ، وأهون من تبالة على الحجاج ، لما بها من الحشرات ، المجهولة الاسماء والصفات ، التى ليس منها خلاص ، ولا للجروح قصاص ، لتواردها من الست الجهات ، الى شن الغارات ، ويكاد المقيم بها وقت القيظ ، يتميز من الغيظ ، ويستغيث من السعير ، فى أوقات الزمهرير ، فهى بين رياح متخالفة ، وزعازع متوالفة ، وظلل من الضباب ، كأنه يوم الحساب

بلاد لاسمين من رعاها * ولا حسن بأهيلها اليسار

اذا لبس الدروع ليوم بؤس * فاحسن مالبست لها الفرار

فلو مكثت غير بعيد ، وأجلبت بخيل المعتصم والوليد ، واستعديت بذى القرنين ، واستنجدت من وراء الصدفين ، ونشرت أبا مسلم الخرسانى ، وخرجت فى رايات

الرائقة ، والقصائد الفائقة . ومارأيت فيماقرأت لشعراء عصره من كان يبلغ مكانه، أو يدانيه فى اجادة التشطير، وإحكام التخميس، فقدجمع فيهما الى حسن المطالع، فخامة الصدور، وجمال الاعجاز، مع لطيف التوليد، وبديع الاختراع . فكم النادرة، طريف البادرة، منسجم الخمريات ، رقيق الغزليات ، وصافا لمجالى السرور وحلبات الانس والحبور . ولولا ماأصابه من الزمن ومحنه ، والدهر واحنه ، لبز فحول زمنه ، على ان هذا ليس بمانعه من أن يعد الى أولى طبقاتهم فى الأدب ، يداليتعلق منها بسبب

مُؤَلَّفَاتُهُ

رحلة السلامة ونحلة الكرامة — رسالة وصف فيها حالة السودان ومارآه فيه من الاحداث وهي على الطريقة السجعية طبعت فى وقتها ولا توجد الآن . ولا أظن ان له سواها من التصانيف بعد قصائده ورسائله

ابراهيم مرزوق بك

ترجمته

ولد سنة (١٢٣٣ هـ ١٨١٧ م) ونشأ محبا للادب فأخذ العلوم عن أدباء عصره وشيوخه فبرع فى الكتابة وأجاد الشعر وكان من قوة الحافظة بحيث كان يستظهر من مختار الشعر على ماقيل عشرين ألف بيت سوى المتون العلمية وغيرها من الانباء والآثار . رحل الى السودان وقام بمظاهرة الحكمدار مظهر باشا على تأديب الثوار فى كسله واطفاء فتنتهم واصلاح حال البلاد فى عصر الخديو اسماعيل وله فيه وفى آبائه الغر الكرام مدائح سنية . توفى بالخرطوم سنة (١٢٨٣ هـ ١٨٦٦ م) وقد عنى بجمع شعره فى كتاب الاديب محمد بك سعيد بن المرحوم جعفر باشا مظهر و وسمه « بالدر البهى المنسوق بديوان الاديب ابراهيم بك مرزوق » وطبعه سنة ١٢٩٧

مميزاته

قليل من أدباء هذا العصر من يعرف ابراهيم مرزوق بك ، وأقل منهم الذين يعرفون له قدره و يحلونه منزلته اللائقة به من الفضل والادب . مع أنه كان من خيرة شعراء وقته ومحسنى كتابه على طريقة السجع المعهودة فى أقلامهم فى ذلك العهد . فله الفصول

وصف قصره بدمر

عج بى فديتك فى أباطح دُمَّرٍ * ذات الرياض الزاهرات النُّضر
ذات المياه الجاريات على الصفا * فكانها من ماء نهر الكوثر
ذات الجداول كالاراقم جريها * سبحانه من خالق ومصور
ذات النسيم الطيب العطر الذى * يغنيك عن زبد وسك أذفر
والطير فى أدواحها مترنم * برخيم صوت فاق نغمة مزمر
مغنى به النساك يزهو حالها * ما بين أذكار وبين تفكر
ماشئت أن تلقى بها من ناسك * أو فاتك فى فتكه متطور
أين الرصافة والسدير وشعب بو * وان اذا أنصفتها من دُمَّر

ألم الفراق

ألا ان قلبي يوم بنتم وسرتموا * غدا حائما خلف الظعون يسير
يقاسى مرار الموت من ألم الجوى * فما لى الا أنة وزفير
رحلتم ولو تدروا رحمتم فبينكم * لخطبي يوم للبلاء عسير
وكنت ليوم البين أعددت عدة * وفى الظن ما أعددته لكبير
فخان الذى أعددته لفراقكم * وولت جيوش الصبر وهى غرور

فانى وحق الله دائم لوعة * ونار الجوى بين الجوانح فى وقد
غريق أسير السقم مكلوم الحشا * حريق بنار الهجر والوجد والصد
غريق حريق هل سمعتم بمثل ذا * ففى القلب نار والمياه على الخد
حنينى أنينى زفرتى ومضرتى * دموعى خضوعى قد ابانوا الماعندى
ومن عجب صبرى لكل كريهة * وحملى لاثقال تجل عن العد
ولست أهاب البيض كلا ولا القنا * بيوم تصير الهام للبيض كالغمد
ولا هالنى زحف الصفوف وصوتها * بيوم يشيب الطفل فيه مع المرد
وأرجاؤه أضحت ظلاما وبرقه * سيوف وأصوات المدافع كالرعد
وقد هالنى بل قد أفاض مدامعى * وأضنى فؤادى بل تعدى عن الحد
فراق الذى أهواه كهلا ويافعا * وقلبى خلى من سعاد ومن هند
لخلت محلا لم يكن حل قبلها * وهيهات أن يحلل به الغير أو يجدى
وقد عرفتنى الشوق من قبل والهوى * كذا والبكا يا صاح بالقصر والمد
وقد كلفتنى الليل أرعى نجومه * إذا نامه المرتاع بالبعد والصد
فلو حملت رضوى من الشوق بعض ما * حملت لذاب الصخر من شدة الوجد
الا هل لهذا البين من آخر فقد * تطاول حتى خلت هذا الى الحد
الا هل يجود الدهر بعد فراقنا * فيجمعنا والدهر يجرى الى الضد
وأشكوك ماقد نلت من ألم وما * تحمله ضعفى وعالجه جهدى
لكى تعلمى أم البنين بانه * فراقك نار واقترابك من خلد

ووشحتها ثوبا من العز رافلا * فقامت باعجاب تجر رداها
ونادت أعبد القادر المنقذ الذى * اغثت أناسا من بحار هواها
لانك أعطيت المفاتيح عنوة * فزدنى أياعز الجزائر جاها
ووهران والمرساة كلا بماحوت * غدت حائزات من حماك مناها

من رسالة الى ولده

أحباب قلبي كم بيني وبينكم * من أبحر وصفها قد صين عن حد
تحار فيها القطا والعي يدركها * حتى الجهات بها تخفى عن القصد
ما كنت أدرى بان الدهر يبعدكم * عنى ويتركنى من بعدكم وحدى
قد خاننى الصبر ما أجدى بمنفعة * سوى الدامع قد سالت على خدى
والطيف مثل لى أوصافكم فبدا * بشرى ومذ قمت غير الحزن ماعندى
هل الغزال الذى أهواه يسعفنى * بالوصل يوما كما قد كان فى العهد
هل النفور الذى أهواه يسعدنى * بالقرب من بعد ما أبدى من الصد
ياذا النفور الذى فى القلب مرتعه * أرتع به لاترع فالصب فى بعد
انى وإن كنت منى نافرا فلقد * أرضى بطيف خيال منك لايجدى

من رسالة الى ابنة عمه

أقول لمحبوب تخلف من بعدى * عليلا باوجاع الفراق وبالبعد
أما أنت حقا لو رأيت صبابتى * لهان عليك الامر من شدة الوجد
وقلت أرى المسكين عذبه النوى * وأنحله حقا الى منتهى القصد
وساءك ماقد نلت من شدة الجوى * وقلت فما للشوق أرماك بالجهد

من لم يمت عندنا بالطعن عاش مدى * فنحن أطول خلق الله فى العمر

مدينة تلمسان

الى الصون مدن تلمسان يداها * ولبت فهذا حسن صوت نداها
وقد رفعت عنها الازار فابلج به * وبرد فؤادا من زلال نداها
وذا روض خديها تفتق نوره * فلا ترض من زاهى الرياض عداها
ويا طالما صانت نقاب جمالها * عداة وهم بين الانام عداها
وكم رائم رام الجمال الذى ترى * فارداه منها لحظها ومداها
وحاول لثم الخال من وردخدها * فضنت بما يبغى وشط مداها
وكم خاطب لم يدع كفأ لها ولم * يلثم طرفا من وشى ذيل رداها
وآخر لم يعقد عليها بعصمة * ومامسها مسا أبان رضاها
ولم تسمح العذرا اليه بعطفة * ولم يتمكن من جميل سناها
وشدت نطاق الصد صونا لحسنها * فلم يتمتع من لذيذ لماها
وأبدت له مكرا وصدا وجفوة * وسدت عليه مانوى بنواها
وخابت ظنون المفسدين بسعيهم * ولم تنل الاعدا هناك مناها
قد انفصمت من تلمسان حبالها * وبانت وآلت لايحل عراها
سوى صاحب الاقدام فى الرأى والوغى * وذى الغيرة الحامى حماة حماها
ولما علمت الصدق منها بانها * أنالتنى الكرسى وحزت علاها
ولم أعلمن فى القطر غيرى كافلا * ولا عارفا فى حقها وبهاها
فبادرت حزما وانتصارا بهمتى * وامهرتها حبا شفاء دراها
فمكنت لها بعلا وكانت حليلتى * وعرسى وملكى ناشرا للواها

تمشى الحداة لها من خلفها زجل * أشهى من الناى والسنطير والوتر
ونحن فوق جياد الخيل نركضها * شليلها زينة الاكفال والخصر
نطارد الوحش والغزلان نلحقها * على البعاد وماتنجو من الضمر
نروح للحى ليلا بعد ما نزلوا * منازلا ما بها لطخ من الوضر
ترابها المسك بل أنقى وجاد بها * صوب الغمائم بالآصال والبكر
نلقى الخيام وقد صفت بها فغدت * مثل السماء زهت بالانجم الزهر
قال الاولى قدمضوا قولا يصدقه * نقل وعقل وما للحق من غير
الحسن يظهر فى بيتين رونقه * بيت من الشِعر أو بيت من الشَعَر
أنعامنا ان أتت عند العشى تخل * أصواتها كدوى الرعد بالسحر
سفائن البر والانجى لراكبها * سفائن البحر كم فيها من الخطر
لنا المهارى وما للريم سرعتها * بها و بالخيل نلنا كل مفتخر
فخيلنا دائما للحرب مسرّجة * من استغاث بنا بشره بالظفر
نحن الملوك فلا تعدل بنا أحداً * وأى عيش لمن قد بات فى خفر
لانحمل الضيم ممن جار نتركه * وأرضه وجميع العز فى السفر
فان أساء علينا الجار عشرته * نبين عنه بلا ضر ولا ضرر
تبيت نار القرى تبدو لطارقنا * فيها المداواة من جوع ومن خطر
عدونا ماله ملجا ولا وزر * وعندنا عاديات السبق والظفر
شرابها من حليب ما يخالطه * ماء وليس حليب النوق كالبقر
أموال أعدائنا فى كل آونة * نقضى بقسمتها بالعدل والقدر
مافى البداوة من عيب تذم به * الا المروءة والاحسان بالبِدَر
وصحة الجسم فيها غير خافية * والعيب والداء مقصور على الحضر

وانا بنو الحرب العوان بها لنا * سرور إذا قامت وشانئنا عوى
لذاك عروس الملك كانت خطيبتى * كنجاة موسى بالنبوة فى طوى
وقد علمتنى خير كفء لوصلها * وكم رد عنها خاطب بالهوى هوى
فواصلتها بكرا لدىّ تبرجت * ولى أذعنت والمعتدى بالنوى ثوى
وقد سرت فيهم سيرة عمرية * وأسقيت ظاميها الهداية فارتوى
وإنى لارجو أن أكون أنا الذى * ينير الدياجى بالسنا بعد ما لوى

البادية والحاضرة

ياعاذراً لامرئ قد هام فى الحضر * وعاذلا لمحب البدو والقفر
لا تذممن بيوتا خف محملها * وتمدحن بيوت الطين والحجر
لو كنت تعلم ما فى البدو تعذرنى * لكن جهلت وكم فى الجهل من ضرر
أوكنت أصبحت فى الصحراء مرتقيا * بساط رمل بها الحصباء كالدرر
أوجلت فى روضة قد راق فى منظرها * بكل لون جميل شيق عطر
تستنشقن نسيما طاب مُنْتَشَقاً * يزيد فى الروح لم يمرر على قذر
أوكنت فى صبح ليل هاج هاتنه * علوت فى مرقب أوجلت بالنظر
رأيت فى كل وجه من بسائطها * سربا من الوحش يرعى أطيب الشجر
فيالها وقفة لم تبق من حزن * فى قلب مضنى ولا ضنكا لذى ضجر
نباكر الصيد أحيانا فنبغته * فالصيد منا مدى الاوقات فى زعر
فكم ظلمنا ظليما مع نعامته * وان يكن طائرا فى الجو كالصقر
يوم الرحيل إذا شدت هوادجنا * شقائق عمها مزن من المطر
فيها العذارى وفيها قد جعلن كوى * مرقعات باحداق من الحور

لنا سفن بحر الحديث بها جرت * وخاضت فطاب الورد ممن به ارتوى
وان رمت فقه الاصبحى فعج على * مجالسنا تشهد لداء العنا دوا
وان شئت نحوا فانحنا تلق ماله * غدا يذعن البصرى زهدا بما روى
و إنا سقينا البيض فى كل معرك * دماء العدا والسمر أسعرت الجوى
ألم تر فى «خنق النطاح» نطاحنا * غداة التقينا كم شجاع لها لوى *
وكم هامة ذاك النهار قددتها * بحد حسامى والقنا طعنه شوى
وأشقر تحتى كلمته رماحهم * مرارا ولم يشكو الجوى بل وما التوى
بيوم قضى نحبا أخى فارتقى الى * جنان له فيها نبى الرضى اوى
فما ارتد من وقع السهام عنانه * الى أن أتاه الفوز برغم من عوى
ومن بينهم حملته حين قد قضى * وكم رمية كالنجم من أفقه هوى
ويوم قضى تحتى جواد برمية * وبى أحدقوا الولا أولوا الباس والقوى
وأسيافنا قد جردت من جفونها * ووردت اليها بعد ورد لقد روى
ولما بدا قرنى بيمناه حربة * وكفى بها نار بها الكبش يشتوى
فايقن أنى قابض الروح فانكفا * يولى فوافاه حسامى مذ هوى
شددت عليهم شدة هاشمية * وقدو ردوا ورد المنايا على النوى
نزلت «ببرج العين» نزلة ضيغم * فزادوا بها حزنا وعمهم الجوى
ومازلت أرميهم بكل مهند * وكل جواد همه الكر لا الشوى
وذادأبنا فيه الحياة لدينا * وروح جهاد بعد ماغصنه ذوى
جزى الله عنا كل شهم غدت به * غريس لها فضل أتانا ومالزوى
فكم أضرموا نار الوغى بالظبى معى * وصالوا وجالوا والقلوب لها اشتوى

* خنق النطاح اسم مكان جرت فيه واقعة بين الامير وبين الفرنسويين حالف فيها النصر بطل الجزائر

نبذ من شعره

مقصورة فى الفخر

توسد بمهد الأمن قد مرت النوى * وزال لغوب السير من مشهد الثوى
وعر جيادا جاد بالنفس كرها * وقد أشرفت مما دعاها الى النوى
وكم قد جرت طلقا بنا فى غياهب * وخاضت بحار الآل من شدة الجوى
وكم من مفازات يضل بها القطا * قطعت بها والذئب من هولها عوى
لذا قد غدت مثل القسى ضوامرا * وتلك سهام للعدا وقعها شوى
الى أن بدت نيران أعلامنا لها * وما ضوء نيران الكرام له انزوا
ولاسيما أهل السيادة مثلنا * بنو الشرف المحض المصون عن الهوى
فقالت أيا ابن الراشدى لك الهنا * كفى فاترك التسيار واحمد وجى النوى
ألا ياابن خلاد تطاولت للعلى * وباينت مأواك الكريم وماحوى
فمن أجل ذا قد شد فى ربعنا لها * عقالا وناديناك العز قد ثوى
وحل بكهف لا يرام جنابه * فمن حل فيه مثل من حل فى طوى
فانا أكاليل الهداية والعلى * ومن نشر علياهم ذوى المجد قد طوى
ونحن لنا دين ودنيا تجمعا * ولا فخر إلا مالنا يرفع اللوا
مناقب مختارية قادرية * تسامت وعباسية مجدها احتوى
فان شئت علما تلقنى خير عالم
وفى الروع أخبارى غدت توهن القوى

امرىء القيس فاستحضره مع جماعة وافرة من رؤساء العرب وساداتها فوصلهم وبرهم وسلم اليهم ابنه بهرام جور وأمرهم بكفالته فاسترضعوا له نسوة الى أن كبر وكان من أمره مايطول ذكره . . وإذا كان طبعهم ما ذكر فى زمن الجاهلية فكيف بعد ماهذب طبعهم الوحى والآيات القرآنية ولذا تراهم فى الجاهلية والاسلام أكثر مدحهم بالصدق والوفاء وأشد ذمهم بالغدر والكذب ولهم أسجاع وأشعار تخرج عن حد الاحصاء « فمنها » انه قيل لبعضهم ماقيمة الصدق قال طول العمر فى الدنيا . قيل له فما قيمة الكذب قال موت عاجل . وقيل لبعضهم : ماأفضل المروءة قال : رغبة الرجل فى الوفاء بوعده وعهده . وقال بعضهم من وفا بالعهد ، فاز بالحمد ، ومن عرف بالصدق ، قبل كذبه ، ومن عرف بالكذب لم يقبل صدقه ، وقال بعضهم أربعة من علامات اللؤم استعمال الغدر وافشاء السر واساءة الجوار وتجنب الاخيار

من رسالة له الى وزير الايالة التونسية

ان مابيننا من الودمتين عرى الحقائق ، فلا يحوله عن مركز ثبوته عائق ، وقد ارتبطت فى الله معاقده ، وأسست على المحبة لاجله قواعدة ، ولقد أوليتم فاخلصتم ، وعرفتم حقوق الاخوة فايدتموها وبأعبائها قمتم ، ثم تكرمتم بما يدل على ذلك دلالة الروض على الزهر ، والشاطىء على النهر ، وهو النيشان العالى الشان الذى تفضلت به الحضرة الصادقية أيدها الله على ولدى الاكبر السيد محمد ولكونه من الرتبة الاولى ، صار شكركم عندى من كل شكر أحق وأولى ، نساله تعالى أن يبقى تلك الذات السنية ، سامية الركاب ، عالية القباب ، بمنه تعالى وكرمه .

والكذب والغدر والغش والايذاء وتجنب الظلم والجفاء والجور والطيش وترك العجلة والبغي وتجنب الحدة وجحد الحق وانكاره وترك اثارة الفتن وتجنب ضيق الصدور وترك سوء الظن وتجنب قلة الرحمة وقلة الحياء وتجنب الحرص والحمق وترك حب الرآسة وتجنب كفران النعمة وترك طلب العلو على الناس وترك الطمع وتجنب الجهل وترك المكر والخيانة والمخادعة وغير ذلك فان الاخلاق المحمودة والمذمومة غير محصورة فيما ذكرناه «الى أن قال» وباقى الامم وان كانت تفى بالعهد وتستقبح الغدر والكذب فالامة العربية أكثر وأشد من جميع الامم فى ذلك فانهم فى جاهليتهم كانت لهم نفوس زكية وأخلاق مرضية وأفعال كريمة وهمم عظيمة وعقول راجحة وآراء ناجحة وشرف صميم وأنفة من كل خلق ذميم طبعوا على خصال الفضل والمروءة قبل أن تكون بينهم النبوة . روى عن شبيب ابن أبى شيبة قال : كنا فى مجلس اجتمع فيه كثير من الاشراف فورد علينا ابن المقفع وكان من اشراف الفرس وحكمائها وعلمائها فقال لنا : من أفضل الامم ؟ فنظر بعضنا الى بعض وقلنا لعله يميل الى أصله فقلنا فارس فقال ليسوا هناك ملكوا كثيرا من الارض وحووا عظيما من الملك ولبثوا فى ذلك دهرا فما استنبطوا بعقولهم شيئا . فقلنا الروم . فقال أصحاب صنعة . فقلنا الصين . فقال أصحاب طرفة . فقلنا الهند قال أصحاب فلسفة . فقلنا السودان قال شر خلق الله . فقلنا الخزر قال نعم سائمة . فقلنا فمن ؟ قال العرب . فضحكنا فقال ما أردت موافقتكم ولكن إذا فاتنى حظى من النسب فلا يفوتنى حظى من المعرفة والادب . وذكر المؤرخون أن يزدجرد بن سابور ذى الاكتاف لما ولد له ابنه بهرام جور أخبره منجموه عن مولده وسعادته وجده ومصير الملك اليه بعد شدة ومحنة وانه ينشأ بين أمة نائية ذات همم عالية وحلوم زاكية ونفوس أبيه ففكر يزدجرد فى خصائص الامم ومزاياها فرأى أن العرب أولى الامم بتلك الاخلاق التى وصفها له المنجمون و وقع اختياره عليهم فكتب الى النعمان الاكبر بن

ومامن صفة ذميمة أو خصلة لئيمة مما يحصل به التنافر بين العباد الا جاء الشرع بذمها والنهى عنها ، والتوعد عليها بالنار ، وبيان ذلك فى مثل الصدق والوفاء والاحسان والايثار والاقتصاد فى الامور ، والاشتغال بعيب النفس عن عيوب الناس ، والانصاف من نفسك ، وانفاق المال لصيانة العرض ، والامر بالمعروف والنهى عن المنكر ، واصلاح ذات البين ، واماطة الاذى عن الناس ، والاستشارة والادب والاحترام ، والاجلال لافاضل الناس ، وادخال السرور على الناس ، والارشاد لهم بالتعليم والتربية ، و إفشاء السلام ، واكرام الجار ، واجابة السائل ، والاعطاء قبل السؤال ، واستكثار قليل الخير من الغير ، واحتقاره من نفسك ، و بذل الجاه ، و بذل البشاشة والبشر فى وجوه الناس ، والتواضع ، والتعاون على الخير ، والتأنى ، والتوادد ، وتنزيل الناس منازلهم ، والصبر والتغافل عن زلل الناس ، وتحمل الاذى ، وترك الاذى ، وترك الكبر ، وتجنب العجب ، وترك معاداة الرجال ، والجدال ، والتكلف ، وتجنب مواضع التهم ، وتجنب الظلم ، الى غير ذلك كالثبات فى الامور وجلب المصالح للعباد ودفع المفاسد عنهم والحلم والحياء وحفظ الامانة والعهد وحماية العرض والصمت عما لا يعنى والتعقل فى المقال والتأمل فيه وحسن الظن وطيب المعاشرة وطلب المعيشة و رحمة الضعفاء ، والصغار والرضى بالدون من المجالس والرقة وخدمة الضعيف والاصحاب والفقراء والرفق فى المعيشة والرأفة والزهد فى الدنيا والسخاء والسماحة والصفح عن الذنب والصداقة وصلة الرحم وطهارة الباطن والعفة والعدل والعفو وعلو الهمة والقيام بحق الحق تعالى والخلق وقبول الحق وقول الحق وقضاء الحوائج للناس وكظم الغيظ والمداراة والمخاطبة بلينة الكلام والمعاشرة بالمعروف ومعرفة الحق لاهله ولمن عرفه لك والمكافأة وهضم النفس وترك الحقد والحسد وحب المال وتجنب العداوة والبغضاء وترك التذلل للاغنياء وترك الشح والبخل وتجنب الغل

أجـلى تاخر لم يكن * بهواى ذلى والخضـوع
ماسرت قط الى القتا * ل وكان من أملى الرجوع
شـيم الاولى أنا منهم * والاصل تتبعه الفروع

محاسن الاخلاق ومحامد الآداب

في الشريعة الاسلامية

إن شريعة محمد عليه الصلاة السلام مشتملة على محاسن الاخلاق ومحامد الآداب وكل ما يكون به الوفاق والائتـلاف والاتفاق ، والخلوص بين العباد ، وتصلح به المعيشة الدنيوية ، وتعمر به البلاد سواء فى ذلك أهلها أو غـيرهم . فدين الاسـلام يحتوى على كل شيء مستحسن لم ينكر منه عدو ذو عقل سـليم شيئا ، بل كل جاحد له وكافر به إذا سمع مايدعو اليه صوبه واستحسنه دون طلب برهان عليه لوضوحه ، فهو دين جامع لـكل ما تفرق فى الأديان والشرائع السالفة كما قال المسيح عليه السلام ماجئت لا بطل التوراة ولـكن جئت لا كمـله ، فـكذلك محمد عليـه السلام ماجاء ليبطل التوراة والانجيل بل جاء ليـكملهما ، فالتوراة جاء بالقصاص ، النفس بالنفس ، والانجيل جاء بالعفو ، إذا لطمك أخوك على خدك الايسر ضع له خـدك الايمن . والقرآن جاء بالقصاص فى قوله : « كتب عليـكم القصاص فى القتـلى » الآية ، وبالعفو فى قوله : « فمن عفا وأصلح فاجره على الله » . الى غير ذلك مما يطول تتبعه ، والى هذا أشار صلى الله عليه وسـلم بقوله : انما بعثت لاتمم مكارم الاخلاق ، تعريفا بان الانبياء قبله بعثوا بمكارم الاخلاق وبقيت عليهم بقية فبعث بما كان معهم وبتمامها قاله الحكيم الترمذى ، فما من خلق حسن ولا صفة حسنة سواء يدرك العقل حسنها أولا مما يحصل به طيب الحياة الدنيا الا جاء الشرع بمدحها والامر بها والوعد عليها بالجنة ،

خطبة اليأس والتسليم

لما ضاقت الدنيا فى عين الامير من صنيع سلطان المغرب الاقصى وممالأته الفرنسيس عليه جمع اليه أهل شوراه وقام فيهم خطيبا وقال :

ياقوم ان الاحوال كما ترون ، والاخبار على ما تسمعون ، فما الرأى وما الحيلة ؟ فقالوا: الرأى لسيدنا فالذى يراه نحن معه فيه . فقال : لا أرى الا التسليم لقضاء الله تعالى والرضى به ، ولقد أجهدت نفسى فى الذب عن الدين والبلاد ، وبذلت وسعى فى طلب راحة الحاضر منها والباد ، وذلك من حين اهتز غصن شبابى ، وافتر عن شباة الهندى نابى ، وأقمت على ذلك ما ينيف على سبع عشرة سنة أقتحم المهالك ، واملا بالجيوش الجرارة الفجاج والمسالك ، استحقر العدو على كثرته ، واستسهل استصعابه ، وأتوغل غير خائف أوديته وشعابه ، وأرتب له فى طريقه الرصائد ، وأنصب له فيها المكائد والمصائد ، تارة انقض عليه انقضاض الجارح ، وأخرى أنصب اليه انصباب الطير الى المسارح ، وكثيرا ما كنت أبيته فافنيه ، وأصبحه فابرد غليلى منه وأشقيه ، ولا زلت فى أيامى كلها أرى المنية ولا الدنية ، وأشمر عن أقوى ساعد وبنان ، وأقضى حق الجهاد بالهندى والسنان ، الى أن فقدت المعاضد والمساعد ، وفنى الطارف من أموالى والتالد ، ودبت الىّ من بنى دينى الافاعى ، واشتملت على منهم المساعى ، والآن بلغ السيل الزبى ، والحزام الطبيين ، فسبحان من لا يكيده كائد ، ولا يبيد ملكه وكل شىء بائد

ان يسلب القوم العدا * ملكى وتسلمنى الجموع(*)
فالقلب بين ضلوعه * لم تسلم القلب الضلوع

---

* الشعر للمعتمد بن عباد ولعل الامير قاله متمثلا

فاختاروا واحدة منها وهى : إما أن تعطونى ما أحتاجه من أدوات الحرب بالشراء ثم أنظم عسكراً يكون نصف عسكركم الذى تحاربوننى به وحينئذ نتحارب . واما ان تبقوا فى مواضعكم التى تغلبتم عليها وأبقى أنا فى بلادى التى تحت حكمى، ثم لا يقرب أحد نا من الآخر مدة اثنتى عشرة سنة فيبلغ عمر ملككى عشرين سنة وحينئذ أقاتلكم فان غلبتكم فلا عار عليكم اذ يقال غلبكم رجل له قوة عشرين سنة ، وان غلبتم أنتم فتكونوا قد غلبتم رجلا له قوة فيحصل لكم الفخر عند الملوك ، وأما اليوم فانتصارى عليكم يعد فضيحة لكم عند الدول ، وانتصاركم على لا يعد فخراً حيث انكم غلبتم رجلا عمر ملكه ثمان سنين ولا قوة عنده يقاتلكم بها . ومن الامور التى اقترحها عليكم انكم تبعثون من قبلكم من يَعُد عسكرى ثم اخرجوا من عندكم فى مقابلة كل واحد رجلين من عسكركم وأعطيكم العهد انى لا أزيد عسكرياً واحداً على ما تعدون وحينئذ الغالب يملك الوطن . ومنها ان يخرج المارشال للبراز ويخرج له واحد من خلفائى فان غلب صاحبكم فلا أنازعكم فى طريقكم من الجزائر الى قسنطينة ، ومن أراد من المسلمون أهل تلك النواحى البقاء تحت حكمكم فلا نتعرض له ، وان أراد الخروج منها ويلحق ببلادى فانتم لا تتعرضون له . ومنها ان ابن الملك يبارزنى فان غلبته فانكم ترجعون بعساكركم الى بلادكم وتتركون سائر المدن التى فى يدكم الآن بما فيها من الذخائر والمهمات ، وان غلبنى فانكم تستريحون منى ويبقى لكم الوطن من غير منازع . فان اخترتم واحدة من هذه الامور فلا بد أن يحضروا قناصل الدول ليشهدوا عليكم بقبولكم ذلك ، وأما نحن فلا نخالف كلمتنا ، وان استضعفتمونا ولم تبالوا بما قلناه اعتمادا على قوتكم فنحن قوتنا بالله القادر على كل شىء هو ولينا وناصرنا

سجل علماء العالم، وقد ترجمت الى اللغة الفرنساوية وهى قليلة جدا

وله غيرذلك كتب ورسائل واجوبة ومسائل فى التوحيد والتصوف وغيرها من العلوم والآداب

آثار أقلامه

نخب من نثره

رسالته الى الجنرال بيجو

الى الجنرال بيجو وسائرقواد العسكر الفرنساوى فى الجزائر ، السلام على من اتبع الهوى واجتنب الردى

أما بعد فقد بلغنى انكم جئتم من فرنسا الى الجزائر لقتالنا بما ينيف على الثمانين ألف جندى زيادة على عساكركم السابقة فيها . فاعلموا اننى بعونه تعالى وقوته لا أخشى كثرتكم، ولا أعتبر قوتكم، لعلمى انكم لا تضروننى بشىء الا ان يضرنى الله به، ولا يلحقنى منكم الا ما قدره الله علىّ وقضاه ، واننى منذ أقامنى الله فى هذا الامر وجعلنى ضداً لكم ما قاتلتكم بعسكر يكون عدده ثلث العساكر التى تكافحوننى بها ، ومدة ملكى كما لا يخفى ثمان سنين ، ومدة ملككم تتعدى مئات من السنين ، وعساكركم كثيرة ، وآلاتكم الحربية قوية ، ومع هذا البون العظيم الذى بينى و بينكم فانى أعرض عليكم أموراً

فبطل الجزائر وان كان من ارباب السيف، فقد كان اخوا القلم، لا يغمد احدهما حتى تجرد صاحبه، فيبرى بالاول الرؤس والهام، و يبرىء بالثانى النفوس من سقام الاوهام. ومثله فى ادباء الامراء كمثل سيف الدولة بن حمدان، غير انه كان اوفر ذماما، واوفى عهدا وميثاقا من ممدوح المتنبى. و يستشف من خلال خطبه وكتاباته، ومن بين قصائده ومقاطع ابياته، الطبع وفخامة التعبير، غيرانها كادت تخلو من رونق التجويد و بهاء التنميق، وأنّى لمن اذهب زهرة حياته فى مقارعة الفرسان، ومثافنة الاقران، وخوض المعامع والحروب، وحمل الرزايا والكروب، دفاعا عن الاعراض، وذيادا عن الاوطان، ان ينظر فى شعره اونثره نظر تحسين او تجميل؟ ومن ذا يقول للامير: جوّد كتابك ؟ ومع هذا فليس دون الطبقة الاولى من ادباء عصره

مُؤَلَّفَاتُهُ

وشاح الكاتب وزينة العسكر المحمدى الغالب — هو نظام سنه لجيشه جمعه بعض كتاب جنده فى كتاب ودعاه بهذا الاسم. وهو يدل على ما كان للامير من بعد النظر وثاقب الرأى فى امور الحرب و نظام الاجناد

المقراض الحاد — رسالة رد بها على الطاعنين فى دين الاسلام ممن عموا عن فضائله وتشبثوا بما ليس منه فى شىء من بدع المارقين واهل النفاق

الصافنات الجياد — كتاب وضعه فى محاسن الخيل وصفاتها

ذكرى العاقل وتنبيه الغافل — رسالة ضمنها كثيرا من حقائق العلوم ومجالى العقول فيها بعث بها الى جمعية العلماء فى باريس حينما ارسلت اليه بأنها قيدت اسمه عندها فى

والادباء والشعراء والكتاب ، ويختلس أوقات الفراغ للتاليف والانشاء والاجابة على الاسئلة الواردة عليه من انحاء العالم ، وبيته كعبة المحتاج وحصن الخائف وهو يعطى المعارف ويمنح العوارف الى ان دعاه ربه فلباه فى ١٩ رجب سنة (١٣٠٠ هـ ١٨٨٨م) فخفق نعيه فى الآفاق وأسف عليه الملوك والامراء ورثاه الكتاب والشعراء ، وأبنه العلماء والادباء بحيث لو جمع ذلك لوقع فى كتاب ضخم ، وقد فصل ولده الامير محمد تاريخ حياته فى كتاب دعاه « تحفة الزائر فى مآثر الامير عبد القادر واخبار الجزائر » وهو كتاب كريم يجدر بكل شرقى تلاوته وبكل غربى ترديد النظر فيه

مميزاته

اذا فاخرنا الاوربيون بنوابغهم وما يجنونه من ثمرات عقولهم ، فنحن نكاثرهم بنفوس أبطالنا التى تعنوا لعظمتها العقول ، وتقف عند ما اودعته من جليل الاسرار وقفة الحائر المبهوت ، ولا شك فى ان ابن محيي الدين كان من ذوى النفوس العظيمه التى يدل بها الشرق على الغرب ، ناهيك بمن يقول فيه المارشال سوليت الفرنسوى سنة ١٨٤٠ : لا يوجد الآن احد فى العالم يستحق ان يلقب بالاكبر الا ثلاث رجال كلهم مسلمون ، وهم الامير عبد القادر ، ومحمد على باشا ، والشيخ شامل * رواه بالمر فى تاريخه .

(*) هو الشيخ محمد شامل أوشمويل الداغستاني زعيم طائفة من القوقاس ومصلى الروس حربا عوانا مابين سنة ١٨٣٤ وسنة ١٨٥٩ قهر فيها جيوشهم في عدة مواقع وساجلهم الظفر في بعضها ومازال مختشي الجانب من حكومة القيصر قائما بادارة حكومته فى دراغو الي أن اغرت الدولة الروسية بعض قبائل القوقاس بالمال فشقوا عصا الطاعة عليه فكان ذلك سببا لظفر الجيش الروسى به واخضاعه له فأسر وأخذ الى بطرس برج ليراه القيصر نقولا فلما رآه أكبر منزلته وأكرمه غاية الاكرام وخصص له قصرا في مدينة كاجا وراتبا قدره ١٠ آلاف روبل وفي سنة ١٨٦٨ زايل كاجا قاصدا كياف ومنها ذهب الي مكة المكرمة وتوفى بالمدينة المنورة سنة ١٨٧١

الحكومة ورجالها ولا سيما الامبراطور نابليون تاقت نفسه الى سكنى بلاد الدولة العثمانية فوفد على الاستانة وحظى بلقاء السلطان عبد المجيد خان ونال منه كل رعاية واكرام ثم ذهب الى بروسه للاقامة بها فلم يطب له فيها المقام فأم دمشق واتخذها له عريسة وطابت له فيها السكنى . ولما حدثت فيها فتنة سنة ١٨٦٠ بين الاكراد والدروز وبعض المسلمين وبين المسيحيين كان الامير عليه الرحمة عصمة للمظلومين وكان فناؤه ملجأ للمنكوبين فاكتظت دوره على رحبها بالمحتمين بها وفيهم قناصل الدول ورؤساء الاديان على اختلاف نحلهم ومذاهبهم فكان ينفق عليهم عن سعة ويرد العوادى عنهم ، وظل يعمل دائبا على اطفاء جذوتها حتى هدأت ثوائر النفوس وأعيدت الى اغمادها المدى والسيوف وجاء رجال الدولة للتحقيق والاقتصاص من الظالمين فوجدان من كان فى حماه نحو الخمسة عشر الف منهم أربعة آلاف فى دوره والباقون فى قلعة الحكومة ملحوظين برعايته ، وبهذا العمل الجليل استحق الثناء الجميل من كافة بنى الانسان وجاءته كتب الشكر ووسامات الفخار وآيات الاعتبار من جميع الدول والحكومات

وفى سنة ١٢٨٢ ﻫ سافر الى الحجاز لاداء فريضة الحج . روى ولده الامير محمد انه فى اثناء اقامة والده بالاقطار الحجازية توفى ملك اليونان فانعقد مجلس النواب فى أثينا للنظر فيمن يولونه عليهم ملكا فكان اسم الامير فى ضمن المنتخبين لذلك ونادى كثير منهم باسمه ، وكذلك فعل الاسبانيول حينما وقعت الفتنة بينهم فشكر الامير للامتين حسن اعتقادهما فيه واعتبارهما له

وفى سنة (١٢٨٦ ﻫ ١٨٦٩ م) دعاه الخديو اسماعيل فيمن دعا من أعيان العالم وملوكه وأمرائه لشهود الاحتفال بفتح قناة السويس واجلس فى المحفة الخاصة بامبراطور النمسا وأمبراطورة فرنسا وولى عهد المانيا وايطاليا وكان فيهم موضع الاجلال والاعظام . وكان منذ استوطن دمشق الفيحاء يكاتب ملوك الدنيا وأمراءها والعلماء

من محدثى الجامع الاموى كما سمع المترجم له علوما شتى فى التوحيد والتصوف على الشيخ خالد النقشبندى السهروردى . و بعد ايابه من هذه السياحة عكف على الدرس والمطالعة . فقرأ كتب الفلسفة والجغرافية والتاريخ والفلك وغيرها من العلوم والآداب ، فبرع فيها براعة فائقة ظهرت آثارها فى مجالى أقلامه . ومازال عاكفا على دروسه وكتبه ، ملحوظا من أهل بلاده بعين الاجلال والاعظام ، معروفا عندهم فضلا عن علمه وفضله ، وغزارة ادبه ، بالفروسية ، والرماية ، وشدة الباس، وقوة المراس ، والمهارة فى ركوب الخيل ، واللعب على ظهورها ، واقتناص الوحوش فى اخياسها، الى ان شن الفرنسويون الغارة على الجزائر سنة (١٢٤٦ ﻫ ١٨٤٣ م) مريدين اكتساحها واخضاعها لملكهم ، فهب الجزائريون فى وجوههم للدفاع عن بلادهم ، والذود عن حياضهم ، وأجمعوا أمرهم على مبايعة الامير عبد القادر بن محيي الدين فقادهم وخاض بهم غمرات القتال وصمد لقراع الفرنسيس سبع عشرة سنة كانت الحرب فيها بينهما سجالا ، ولم تضع أوزارها الا بمعاضدة الدولة المراكشية للفرنسويين على اخضاع الامير وثل عرشه، اذ جرد سلطان المغرب الاقصى عبد الرحمن ابن هشام جيشا لجبا مؤلفا من خمسين ألف ونيف من مقاتلة المراكشيين بقيادة ولى عهده محمد ولم يكن قد بقى مع الامير عبد القادر من الجنود أكثر من خمسة آلاف فصادم بهذه الفئة القليلة تلك الجيوش الجرارة وصبر لها صبر الكرام الى ان علم ان المقاومة لا تجدى نفعا فاذعن للفرنسيس بالتسليم وتم التعاهد على ذلك فى ديسمبر سنة ١٨٤٧

وسافر الى فرنسا فى ثمانين من رجاله وحاشيته واستقبل يوم دخوله باريس بما لم يعهد من الحفاوة والتكريم على عهد الامبراطور نابليون الثالث . وكان مدة اقامته بها محل اكبار الفرنسويين من جميع الطبقات ورتبت له الحكومة الفرنسوية مبلغا من المال لينفق منه سنويا ، و بعد ان تقوت عرى الصداقة بينه و بين

الامير عبد القادر الجزائرى



ترجمته

هو ناصر الدين الامير عبد القادر بن محيي الدين ينمى نسبه الشريف الى الامام الحسن سبط الرسول صلوات الله عليه

ولد فى يوم الجمعة ٢٣ رجب سنة (١٢٢٢ هـ ١٨٠٧ م) بقرية القيطنة من أعمال وهران بالقطر الجزائرى فى بيت مجد مؤثل وعلم وفضل فنشا على حب المعارف وأخذ العلوم العربية والدينية عن مشيخة وهران ثم خرج به والده الى الاقطار الحجازية مجتازا فى طريقه بمصر فى عهد ساكن الجنان محمد على باشا فاكرم نزلهما ، ومنها ذهبا الى دمشق ومكثا بها مدة سمعا فيها صحيح البخارى على الشيخ عبد الرحمن الكزبرى

هل منصفي مما به يقضي الهوى * أو مسعفي خدن على نيل المنى
يا بدر لا تسمع مقال العاذل * وارع الولا ناهيك وجدي قاتلي
فقت الملا حسنا ففق بالنائل * جد بالطلا من فيك يا حلو الجنى

غيره

يا فاتر الجفون ما بدا لك * حتى جفوت عاشقا جمالك
ويا قضيب البان ما أمالك * عن مغرم مؤمل وصالك
عذب بما ترضاه يا غزالي * الا الجفا شماتة العذال
أنعم بوصل منك يوما بالي * أتم طول العمر ربي بالك
علام تجفوني ومالي ذنب * وما لقلبي عن هواك قلب
بحق من أولاك ما تحب * دعني أقبل مرة أذيالك
لم يبق لي على الصدود طوق * وعال صبري عنك هذا الشوق
وليس لي إلى سواك توق * وهل لعيني أن ترى أمثالك
أحرمت طرفي في الليالي غمضا * وقلت أرضى عله أن يرضى
ياهل ترى صدك عني فرضا * فمن بقتلي يا رشا أفتى لك
ناشدتك الله أنلني سولي * وكن رفيقا بي أيا مامولي
يكفي الذي تراه من نحولي * يعيذ رب العرش منه حالك

الاغانى

يا بدر مالك ثان فى حسنك الفتان * فارحم فتى ولهان مبلبل البال
عذب بما ترضاه إلا الجفا أخشاه * قد طال ما أصلاه وأنت لى سالى
يا يوسف الحسن حوشيت من سجن * هددت بالحزن أركان آمالى
من ذا الذى أغراك بصد من يهواك * الطرف منه باك وجسمه بالى
حتى م ذا الهجران والصد والحرمان * حسن بلا احسان كالرى بالآل
محبك الواجد منك الرضا فاقد * ياليتنى واجد اتهام عذالى
أضنانى السهد وعزنى الوجد * ماالقصد ماالقصد سواك ياغالى
يا فاتن العشاق باللحظ والاحداق * تبارك الخلاق لحسنك الكالى
أفديك بالمال والروح والآل * رضاك أشهى لى من طول آجالى

غيره

إلى هنا يا بدر لى أنت المنى * كل جنى منك الرضا الا أنا
يا فاتنى بالدل لما يخطر * وشاجنى إذ جزت شذرا تنظر
قد شاقنى منك المحيا الازهر * واستاقنى وجدى الى حد المنا
بى كلما ألقاك عنى معرضا * وجد نما لكن جسمى أمرضا
يا ذ اللمى حتام لا تبدى الرضا * صل مغرما ألبسته هذا الضنى
سبحان من أتاك ذا الحسن الفريد * كم قد فتن صبابه أمسى عميد
أنت الحسن والشوق فى قلبى يزيد * ان الشجن للعظم منى أوهنا
كلفت فى ذا العشق تبريح الجوى * حتى تنى لكن هيهات الوفا

لغة أهل مالطه

تبا لها لغة بغير قراءة * وكتابة عين بلا انسان
تتبلبل الالبابَ فى تركيبها * ويكل عنها حد كل لسان
أذنابها ورؤوسها عربية * فسدت وأوسطها من الطليانى

غادة مالطية

بدت فى الثياب السود والوجه زاهر * وماست بقد يخجل الغصن الغضا
لها منطق عذب على قبح لحنه * وفى حسن من سواه عن لحنه اغضا

أوباش انجلترا

رمتنى النوى فى كمبريج ملازما * لبيتى نهارا أن ترانى أوباش
فتعبث بى حتى اذا الليل جننى * خرجت على أمن كأنى خفاش

القلب والحزن

ورب حزن يصون القلب عن سفه * كما يصون اناءً واهيا صدأه
وما انقضى من لذاذات الهوى عجلا * سيان غايته عندى ومبتدأه

المرأة والحجاب

لا يحسب الغر البراقع للنسا * منعاً لهن عن التمادى فى الهوى
ان السفينة انما تجرى اذا * وضع الشراع لها على حكم الهوى

أبنى مايجدى التصبر قولهم * حكم المنيـة فى البرية جار
كلا ولا بى قر بعدك من حمى * ماهـذه الدنيا بدار قرار
كم قد حملتك فوق راحى اذ غدو * ت ورحت ثمت حرت خير محار
ولكم سهرت الليل من جزع فما * أغنى بكاى عليك أو اسهارى
ولكم جأرت لبرء دائك ضارعا * ولغير نفع كان طول جؤارى
ولقد حضنتك فى الحنادس خوف أن * يطرأ عليك من الحوادث طارى
وجمال وجهك لى يخيل اننى * فى روضة أنف ضحاء نهار
ان لم يصورك المصور لى فقد * صورت بالمأثور من اشعارى
أو ان يكن واراك لحد ضيق * فالارض عندى اليوم أضيق دار
أو ان تكن عنى حجبت فانما * بقيت حلاك خوالد الافكار
لاأنسينك أو أحين فما أتى * حين علىّ خلا من استذكار
ولارثينك ما بقيت وان أمت * فليتلون رثاك بعدى القارى

بؤس الأديب

ليت شعرى ماذا يفيد البيان * مع خواء البطون والتبيان
وفنون البديع من غير أكل * تستشيط اللهى به واللسان
هاك أكف استعارة برغيف * وبخس تخس تفتازان
أيها المعربون هبوا فما من * ضرب زيد عمرا يرص الخوان
أين أين الكباب والرز والبر * غل تصفو من فيضهن الجفان
أنا فى وحشة من الناس وحدى * لاترانى فلانة وفلان
عيشة لو رأيتها فى منام * ماشجتنى من بعدها الالحان

ياليت ما فى الجيد من عنظ بدا * وقصا لأعيننا وشيئا منكرا
والحسن ان القبح أحسن ملمحا * أن ليس يبكى العين ما منه يرى
فلاى داع كان شغل عقولنا * وقلوبنا بهوى الوثائر أكثرا
ولم اختصصن بكل علق مضنة * وبكل حلى فاخر دون الورى
منا خرجن وعقلنا يخرجن إذ * يدخلن أو يخرجن سفه من مرى
ولاى شىء لم يكن قود على * من لحظها قلب المتيم قد فرى
ولاى شىء حل رشف الريق من * ثغر الرشوف وكان ذلك مسكرا
وعلام تهتز الشناط على شج * يمسى ويصبح بالغرام محسرا
أين المعالى والمكارم أين من * نخر الانام بعزة وتجبرا
يقتاده اسم الخود إن ذكرت له * طوعا وكرها وهو يهزم عسكرا
أملت على حوادث الامم التى * غبرت فقلت مقال من قد حررا
يارب قد فتن النساء عقولنا * فامسخ محاسنهن قبحا يزدرى
أو فاجعلن غشاوة تغشى على * أبصارنا أولا فأعم المبصرا

دمعة على طفل

الدمع بعدك ماذكرتك جار * والذكر ماواراك ترب وار
ياراحلا عن مهجة غادرتها * تصلى من الحسرات كل أوار
خطأ وهمت فأين بعدك مهجتى * مافى حشاى سوى لهيب النار
رمقا أقل الجسم منى فادحا * فكأنه وقر من الاوقار
مابعد فقدك رائعى أورائقى * شىء من الظلمات والانوار

ماضل يوما عن استقراء معلفه * أكان فى روضة غناء أم جرد
قد رابنى حذقه حتى ظننت به * مسخية مثل بعض الخلق عن أحد
وما شكاقط من وخز ولا ضعفت * رجلاه عن جوب وعث طال أو جدد
شلت يدا من به ولى وغادرنى * أمشى وأنشب فى أوحال ذا البلد
أعالم أننى من بعده جزع * وأن فرقته نار على كبدى ؟
وان صوت المنادى اليوم يزعق أن * ألبس إكافك فى جنح الدجى وعد ؟
لا يغررنك رغد أنت تعلمه * مادام شهرا على طرف ولا عتد
يفديك كل حمار ند من بطر * أو ضج من لغب أو خار من جهد
أو حار من شبق قلاب جحفلة * كراف بول قديم جف كالقدد
مصنبع الرأس ممشوق القوائم لم * يحرن اذا سمته خسفا ولم يحد
أليته انه بالطرق أعرف من * مولاه ان لم يعقه القيد ذو العقد
ياليت لى خصلة من ذيله أثرا * أرنو اليها كما يرنى الى الخرد

الجمال وأهله

خلق الجمال لعين صب جنة * ولقلبه نارا تزيد تسعرا
ياليت يغنى المرء يوما واحدا * عنهن من شىء يباع ويشترى
ليت الجمال لهن مثل الملح فى * قدر الطعام مهوعا ان كثرا
بل ليتهن خلقن أقبح مايرى * كى لانهيم تحيرا وتخيرا
ليت العيون النزل ضيقة وما * فى الثغر من در نظيم سفرا
ياليت لم يصلت جبين فوقه * شعر كليل كل غر غررا

من كل فتاك اذا اعترضت له * يوما شُعوب بل شَعوب يدمر
أنتم عباد الله حقا فاعبدوا * للدين فهو بكم يعز ويجبر
واحموا حقيقتكم بحفظ ذماركم * فرض عليكم ليس عنه تأخر
غاروا على الاسلام حتى ترفعوا * أعلامه فلكم به ان تفخروا
غاروا على حُرَم مخدرة لكم * قد طالما أَحصِنَّ عمن يعهر
أيقودهن اليوم علج فاجر * وسيوفكم بدمائهم لا تقطر؟
الصبر محمود ولكن حين تنتهك المحارم لا أرى أن تصبروا
لا خير فى عيش يقارف ذلة * حاشا كم أن تفشلوا أو تدبروا

رثاء حمار

راح الحمار وخلى القيد فى الوتد * وما أرى أثره فى الناس من أحد
فهل أنا راكب من بعده وتدا * أم مجزئى قيده لو كان من مسد؟
أم كيف أدخل دارا كان لى سكنا * فيها وانزل عندى منزل الولد؟
سرهدته بيدى كالطفل من شفق * كالطفل من شفق سرهدته بيدى
وجئته بشعير لا يخالطه * ماس ولا عسجد خوفا من الدرد
وكان يوقظنى منه النهاق اذا استثقلت نوما بصوت مطرب غرد
كم حاد بى عن مضيق حين أبصر من * حولى الجمال تبل الارض بالزبد
وسار بى فى طريق بل جانبها * أهل الجمال بماء الورد وهو ندى
وكم جرى فارها اذ لاح عن بعد * زفاف خَود اليها بالغ الامد
واذ تبين نعشا للجنازة لم * يمرر به مع أليم الوخز فى الكتد

دع عنك تعبيس الأُسود وكن أخا * لأَبي الحصين مراوغا يهفوفا
من أضحك السلطان صوت ردامه * فهو الذي في الناس عد عريفا

الحرب العثمانية الروسية

سنة ١٨٥٥

الحق يعلو والصلاح يعمر * والزور يمحق والفساد يدمر
والبغي مصرعه ذميم لم يزل * آتيه عرضة كل سوء يثبر
والوغد تبطره من النعم التي * يغنى بها الحر الكريم ويشكر
طغت الطغاة الروس لما غرهم * في الارض كُثر سوادهم وتجبروا
كادوا ويرجع كيدهم في نحرهم * فطلاهم دون القواضب نحر
المعتدون ولا نهى تنهاهم * الظالمون القاسطون الفجر
نقضوا العهود وكان ذلك دأبهم * لؤما وللعدوان بغيا أضمروا
يامسلمون تثبتوا ان جاءكم * نبأ من الروس العدا وتبصروا
لا يغررنكم كثير جموعهم * فالحق ليس يضيره المستكثر
يامؤمنون هو الجهاد فبادروا * متطوعين اليه حتى تؤجروا
هذا جهاد الله يحمي عرضكم * فاسخوا عليه بكل علق يذخر
لن تنالوا البر حتى تنفقوا * مما تحبون الدليل الاظهر
وتمسكوا بالعروة الوثقى من الصبر الجميل على القتال وذمروا
واغزوهم برا وبحرا واحشدوا * ركبا وفرسانا ونسرهم انسروا
لولم يكن منكم سوى نفر لما * غلبوا فكيف بكم وأنتم أكثر

غيرى من الوصاف فى ذا صنفوا * لكنهم لم يحسنوا التصنيفا
إذ كان ما قالوه مبتذلا ولم * يتقص منهم واصف موصوفا
لكن كتابى أو أنا بخلاف ذا * نكفى الحفىّ الحد والتعريفا
لاعيب فينا غير أنك لا ترى * صنوا لنا فى فننا وحريفا
فهو اليتيم المستحيل اخاؤه * وهو الفريد فكن عليه عطوفا
عهدى الى ولدىّ أن يتحديا * أسلوبه وبدفتيه يطيفا
إنى برىء منهما أن يعدلا * عنه ويتخذا عليه حليفا
لو كان يعشق جامد لجماله * لغدا الورى طرًّا به مشغوفا
وحياة رأسك ان رأسى عارف * أنى به لن أستفيد رغيفا
كلا ولا أقطاً ولا حشفا ولا * خزا على وتدى ولا كرسوفا
لكن بقرنى حكة هاجت على * انى أعالج مرة تأليفا *
من كان يؤجر كى يؤلف خطبة * فهو الخليق بان يعد عسيفا
ماراج من قولى نخذه وما تجد * من زائف فاتركه لى ملفوفا
لابد أن تجد الصيارف مرة * بين الدراهم درهما مزيوفا
ولرب دينار يجر إليك من * تهوى بلحيته وليس مشوفا
لا يعلقن بزجاج عقلك ما ترى * فيه من الصدإ القديم كثيفا
ماذا على مُهد الى إخوانه * شيئا ألذ من المدام طريفا
سهر الليالى محكما تفصيله * وهم رقود يحكمون جخيفا
أرأيت ذا كرم يرد هدية * ويسوم مهديها له تعنيفا
أوليس أن الدهر أصبح مازحا * يهذى ويأتى المضحكات جنوفا
فاشتق من خرف الجنى خرفا ومن * حصف تهى الاظفار منه حصيفا

يبين ولو بُلغته وهو معكوس
يشف خفى الغيب عما يقوله
فيبصره مَن طرفه بعد مطموس
وكم فاتح منهم وما بارح الحمى
كتائبه أقلامه والقراطيس
وكم بينهم من ليث حرب إذا سطا
جرىء له فيها احتناك وتضريس
حمام اذا هيجو حياة إذا اتقوا
أسود اذا صالوا جبابرة هيس
إذا سمحوا لانوا و إن حمسوا قسوا
و يربون فضلا إن بغيرهم قيسوا
أولو همة دانت لهم همم الورى
وفخرهم فى ذاك كالدهر قدموس
لقد أكرموا هذا اللسان وأهله
فمازال يحظى عندهم وهو مدروس
عفوت عن الايام سالف ذنبها
فقد شفعت فيها وفى الناس باريس

يسوء ولو بُلغته وهو معكوس
يشف خفى الغيب عما يقوله
فيبصره مَن طرفه بعد مطموس
وكم طامع فى الملك منهم سفاهة
كتائبه أقلامه والقراطيس
وكم من طفيلي لكل وليمة
جرىء له فيها احتناك وتضريس
حمام اذا زيروا حياة اذا اجتدوا
اسود اذا لاسوا جبابرة هيس
اذا سألوا لانوا و إن سئلوا قسوا
و يربون شحا إن بغيرهم قيسوا
أولوجشع من دونه جشع الورى
وصيتهم فى ذال كالدهر قدموس
لقد جهلوا هذا اللسان وأهله
فما زال يخفى عندهم وهو مدروس
وجدت على الايام عتبا بعيشها
فقد أخبثته والبربة باريس

الفارياق

هذا كتابي للظريف ظريفا * طلق اللسان وللسخيف سخيفا
أودعته كلما وألفاظاً حلت * وحشوته نقطا زهت وحروفا
وبداهة وفكاهة ونزاهة * وخلاعة وقناعة وعزوفا
كالجسم فيه كل عضو تعشق ال * مستور منه وتحمد المكشوفا
فصلته لكن على عقلى فما * مقياس عقلك كان لى معروفا

وللزائر يها الخير أجمع مبجوس
هو العيش فاغنم طيبه فى ربوعها
فانك فيها ماأقمت لمرغوس
اذا رث ثوب العمر منك فان من
قشيب حظاها لين العيش ملبوس
وفيها من الغر الكرام أعزة
جحاجح ضرابون يوم الوغى شوس
لقد فطروا طبعا على الود والوفا
جميعاً فما يعروهما عوض تلبيس
لئن سُبقوا سبق الوجود فانه
ليسبق جسماظله وهو مدعوس
لهم فى سماء العلم شمس براعة
وفى الادب الطامى العباب قواميس
فكم فيهم من عالم متقن له
لتطليس آثار المعارف تطريس
إذا أغطشت آفاق أمر فانما
يجليه لفظ موجز منه مهموس
وكم فيهم من فاضل ذى استقامة
تقيم قوام الدهر إذ هو منكوس
وتمسكه أن لايجور كأنما
تعدل فى كلتا يديه قساطيس
ورب خطيب لفظه فوق منبر

وللزائر يها الشر أجمع مبجوس
هوالعيش فاغنم طيبه فى سوائها
فانك فيها ما أقمت لمنحوس
إذا كان ثوب العز عنك معلما
فمن نقص فى عيشها هومطلوس
وفيها من القوم اللئام ثعالب
ولكنهم ان يؤدبوا أسد شوس
لقد فطروا طبعا على الغدر والجفا
جميعاً فلا يغررك فى ذاك تلبيس
لئن سُبقوا سبق الوجود فانه
ليسبق جسما ظله وهو مدعوس
لهم فى بحور الشك خوض وطالما
تغشتهم منه ضلالا قواميس
فكم فيهم من مدع صلف له
لتطريس آثار المعارف تطليس
إذاما انجلت آفاق أمر فانه
ليخفيه لفظ موجز منه مهموس
وكم فيهم من فاضل من فضوله اء
تدال قوام الدهر أحدب منكوس
يحاول لؤما أن يميل به فلا
تعدل فى كلتا يديه قساطيس
ورب عيي لفظه فوق منبر

نبذ من شعره

وصف باريس

حرفيا

أذي جنة في الارض أم هي باريس
ملائكة سكانها أم فرنسيس
وهل حور عين في منازهها ترى
والا فكل حين تخطر بلقيس
وهل ذي نجوم ترجم الهم في الدجى
عن البال ان يخطر به أم نباريس
وهل زهرة الدنيا ترى في هوادج
تمر كبرق خاطف أم طواويس
نعم انها خلد النعيم وشاهدي
رياض وحوض دافق وفراديس
وأعمدة تحبوا السحائب دونها
كأن لها فوق السماكين تأسيس
هنيئا لمن منها تبوأ منزلا
وطوبى لمن فيها له تاح تعريس
هي المنهل المورود من كل ظامىء

هرفيا

اذي عبقر في الارض أم هي باريس
زبانية سكانها أم فرنسيس
وهل ذي نساء في مواحلها ترى
والا فكل حين تخطر جاموس
وهل ذا شرار يجلب الهم في الدجى
الى البال ان تبصر به أم نباريس
وهل زفرة الدنيا ترى في هوادج
تمر كعير ظالع أم مطافيس
نعم انها مأوى الجحيم وشاهدي
شقيون في ساحاتها ومناحيس
وأعمدة تلقى الشياطين عندها
كان لها فوق الخبائث تأسيس
شقاء لمن منها تبوأ منزلا
وتعسا لمن فيها له تاح تعريس
هي المنهل المسموم حتف لظامئ

الله على بختى ، وان كنت أعهده بمر دائمـاً من تحتى ، فان اشتملت على حيتان صغيرة ، أديت اليك قيمتها موفورة ، وان حوت السكبيرة ، كان لى أن أنال منها مجانا حصة وفيرة ، فرضى بذلك ، وقال حسبى الله الوالى المالك ، فلما أخرجها إذا بها استوعبت من كبار السمك مالم يكن عهد منذ درج وسلك ، فجاد علىّ منه بحصة ، وقد أجرضته من الشرط غصة ، فاوقدت جنبه نارا ، و بعثت الى السوق من اشترى لى خبزا وعقاراً ، وملحاً وأبزارا ، ومازلت اشوى وألتقم التفافا ، وأشرب استفافا ، حتى منيت بالهيضة والزحير ، واستحال على التقدم والتاخير ، فى المآب والمصير

﴿حكاية﴾ وجدت فى صدرى ضنكا من مجالسة الرجال ، ومطارحتهم الحديث والامثال ، وقد جبل الانسان على حب التبدل والتحول والتنقل ، فيسام النعيم إذا طال ، و يرى فى المثابرة الثبور والوبال ، و فى الادمان الدمن والوبال ، فتحريت مجالسة الصبيان والخوض معهم فى صار وكان ، فلم أكد أخرج من غرفتى حتى رأيت زمرة منهم يلعبون بالقثال والاوتاد ، و يضجون ضجيج الناس فى يوم الجراد ، فتوهمت أن فى صمما أولما ، إذ لم أسمعهم على قربهم من الغرفة ، ولو أنى سمعتهم لعظم على لغطهم على هذه الصفة ، فدعوت أحدهم ، فحشد الى حفزا ، وكلمنى ركزا ، فسكن روعى عند سماع نغمته الرخيمة ، وأيقنت أن حاسة سمعى بقيت فى سليمة ، فحمدت الله تعالى على لطفه بى ، و زاد فى عشرة الاولاد أربى ،

﴿ حكاية ﴾ قصدت الرشيد ، لما فيها من الحظ العتيد ، والحدائق الناضرة ، والمسارح السارة ، فلما دخلتها الاح لعيني غلام كالقمر ، يخجل الحُور بالحَور فتفاءلت بنضرته ، وعجبت من عدم شهرته ، فانشدت بمسمع منه

لبعض الناس فعل دون ماسم * و بعضهم له اسم دون فعل

وأردت أن أفتتح معه الكلام ، فاستدللت منه على الحمام ، فقال لى بلهجة فصيحة ، وعبارة صحيحة ، أأنت جنب منذ خروجك من البيت أو فى الحال ؟ فقلت

ان كان يمكنك اصطناعى عاجلا * فافعل ولا تسأل عن الاسباب

فلربما أخرت معروفا وما * قدمت غير مساءة الاصحاب

فدلنى عليه فاذا أبوه قيم فيه ، فنوه عنده بى ، وأثنى على أدبى ، فلما خرجت من ذلك النعيم ، كخروج آدم من الجنة وهو مليم ، بش بى الرجل ، وأدبنى تلك الليلة الى طعامه ، فلبيت دعوته وأجزلت له الشكر على انعامه ، وسرت اليه وفى أمعائى وقوب ، ولاضراسى رقوب ، فلما حظيت بأنسه ، وحصلت فى مجلسه ، وضع الخوان ، وهو يميد من الطعام بألوان ، فاكلنا وشربنا ، ولعبنا وطربنا ،

﴿ حكاية ﴾ مازلت مذ عرفت حلو الاستراط ، ومر السراط ، أتشوق الى رؤية دمياط ، لما بلغنى عنها من كثرة سمكها وأطيارها ، ورخص أسعارها ، وكان بى نهم الى أكل السمك شديد ، وقرم الى العصفور ما عليه من مزيد ، وقد قال فى الاول ، من أجاد القول جدا وهزل

ما ان ندمت على شراء الحوت فى * وقت وان أفرغت فيه الكيسا

ان كنت أنفق فيه فلسا واحدا * ألقاه فيه قد استحال فلوسا

فلم أكد أبلغ ساحلها ، حتى رأيت صياداقد ألقى شبكته فى البحر ، وهو مبتئس ولها وفى طلعته سمة الضجر ، فتقدمت اليه ، وسلمت عليه ، فقلت أجذب الشبكة باسم

الرجال ، وكانوا ما بين حُزُقّة وطويل وطوال ، خزقت صفهم ، وخرقت مصطفهم ، واذا في وسطهم خطيب ، كنت أعرفه منذ عهد قريب ، فأول ماوقع عليه الطرف ، وآنست منه الظرف ، قلت له السلام عليك ياخطيب ياامام ، فاجابني بديها وعليك السلام ،

﴿حكاية﴾ بينما كنت أطوف في مدينة القاهرة ، وأنظر ما فيها من المحاسن الباهرة ، وأحدق في وجوه الشوافن ، في الرواشن ، اذ لمحت في روشن غادة فاقت النساء بالظرف والجمال ، والصباحة والدلال ، فقلت منشدا ، وأنا على غير هدى

بالله رقي لمغرم دنف * قد أسلمته الى البلى عينه

تصدقي بالوصال علك أن * تشفي حشاه فقد دنا حينه

ثم غشي علي من شدة اللوعة ، ثم أفقت طمعا ولم أبرح أسير الهوى وطوعه ، وناديتها بلسان مبين : ألا اني اليك من التائقين العاشقين الخاضعين . فقالت واني لك لمن السافقين الصافقين الصافعين

﴿حكاية﴾ كنت أمشي في أسواق الاسكندرية ، وعرضي لالسنة الناظرين الي كالدرية ، اذ كنت لابسا نعلا بالية وثوبا صفيقا ، وقد انحل حزامي فكان يكنس طريقا فطريقا ، فصادفت عجوزا تلحظني فقلت علام القوم يضحكون ، وفيم ينهمكون ، فقالت وقد قهقهت وعن أنيابها المتهتمة جلقت ، من مكنستك هذه الحرير ، وطورك الذي لم ير له نظير ، فقلت

من أحب المعروف فليكرم الضيف بايناسه وابلاغ سوله

ليس يبغي قرى ولا بذل مال * منتهى مايؤم في تأهيله

فقالت أما ان شئت أن نقول لك أهلا وسهلا ، فانت لدينا مؤهل ومسهل والا فلا ثم هرولت عني وعن عيني اختفت فاتبعتها اللعنة التي بها التحفت

وجوهكم الصفيقة ما كان يترقرق فى وجهه من ماء الحياء فكان أشد خفرا من مخدرة . وانه كان عزيزا فى أهله مكرما عند الامراء محببا الى الخاصة والعامة . نزيه النفس، كريم الخلق ، فصيح اللهجة ، أنيس المحضر ، أمثله يحبس ست سنين ويذل وينكل ويموت والله يعلم بأى شىء مات ؟ ما بال الكنائس الفرنساوية ، والنمساوية ، والانكليزية ، والمسكوبية ، والرومية الارثوذكسية ، والانصارية ، والرومية الملكية ، والقبطية ، واليعقوبية ، والنسطورية ، والدرزية ، والمتوالية ، واليهودية ، لا تفعل هذه الفظاعة والشناعة التى تفعلها الكنيسة المارونية ؟ أم هى وحدها على الحق والناس أجمعون على الباطل ؟ ألستم تزعمون ان ملك فرنسا هو مجير الدين وناصره . والناس من أهل مملكته الكاثوليكيين ما زالوا يطبعون كتبا ينددون فيها بعيوب رؤساء كنيستهم ، وقبائحهم ، وسفاهتهم ، وفحشهم ، وشراهتهم ، والحادهم ، بل ان كثيرا منهم قد ألفوا تواريخ خاصة بما كان عليه الباباوات من الفسق والفجور وسوء التصرف وبكفرهم بخلود النفس والوحى وبالهية المسيح

محاكاة الكلستان

❊ حكاية ❊ رأيت قوما يتسابقون حشدا ، ويتزاحمون حفدا ، فمن بين ضاغط جاره ، ومهطع كأنه يشن الغارة ، فقلت تالله ما اجتمعت هذه الجماعة الا لامر عظيم ، ولا قصدت الا مقصد خير عميم ، ثم قلت لنفسى بعد استصواب حدسى

انهض الى المكرمات مستبقا ❊ ولا يصدنك عائق عنها
وان تجد عصبة سعت جهة ❊ فاسع اليها ثم استفد منها

فجاريتهم وأنا أظن انى أكون أول الفائزين ، ومقدام البارزين ، فلما بلغت حلقة

جادل في الدين وناظر وقال انكم على ضلال فليس لكم ان تميتوه بسبب هـذا . وانما كان يجب عليكم ان تنقضوا أدلته وتدحضوا حجته بالكلام أو الكتابة اذا أنزلتموه منزلة عالم تخشون تبعته . والا فكان الاولى لكم ان تنفوه من البلاد كما كان هو يطلب ذلك . بل أصررتم على عتوكم في تنكيله وزعمتم ان فراره من داركم مرة لنجاة نفسه كان زيادة في جنايته وجريرته فزدتم تجبرا عليـه وظلما . وكاني بكم معاشر السفهاء تقولون ان اهلاك نفس واحدة لسلامة نفوس كثيرة محمدة يندب اليها . ولكن لو كان لكم بصيرة ورشد لعلمتم ان الاضطهاد والاجبار على شيء لا يزيد المضطهد وشيعته الا كلفا بما اضطهد عليـه . ولا سيما اذا علم من نفسه انه على الحق وان خصمه القاهر له على ضلال ، أو انه متحلٍّ بالعلم والفضائل وقرينه عُطْل عنها . فقد فاتكم على هذا العلم الديني والسياسي وعرضتم عرضكم للقذف والتسويد . وذكركم للمقت والتفنيـد . ما دامت السماء سماء والارض أرضا . وان أخي رحمـه الله وان يكن قد مات فذكره لن يموت وكلما ذكره ذاكر من أهل الرشد والبصيرة ذكر معه أيضا سوء فعلكم ، وافحاشكم ، وغلوكم ، وجهلكم ، وشناعتكم ، وقد لعمري أخرج عنكم بموته من شيعتكم هـذه المتوحمة على سفك الدم أكثر مما لو بقي حيا وحسبك بالخواجا ميخائيل مشاقه الاكرم وبغيره من ذوي الفضـل والبراعة مثالا . ألم تأخذكم يا غلاظ الاعناق رأفة في شبابه وجماله . ألم تتأثر قلوبكم التارزة لصفرة وجهه حين حجبتموه عن النور والهواء وحين ذوت غضاضة جسمه وبضاضته ، وحين لم يبق من ترارته غـير الجلد والعظم وبخلتم عليـه أيضا ان تطلقوه بهما . ألم تشفقوا عليه اذ رأيتم أنامله قـد ضنيت لعوز ما كان يتمتع به حُمْرُ دير كم ، ولقد طالما والله أخذت القلم فخطت ما يعجب به الملوك . ولقد طالما والله صعد المنبر فخطب فيكم ارتجالا والعرق يتصبب من جبينه ذاك الصليت . ولشد ما أبكى سامعيه تذكيرا وتزهيـدا ، وطالما ألف وعرب لكم كتبا ركيكة وعلم حمقى رهبانكم واخرجهم من ظلمات الجهل . ألم تخز

شكوى ونواح

قد تملت الفارياق من ناديكم ، وانملص من بين أياديكم ، وعنجر فى وجوهكم جميعا ، وأصبح لا يخاف لكم وعيداً ، و بقى الآن ان أذكركم ما أشططتم به من الظلم والطغيان ، والجور والعدوان ، على أخى المرحوم أسعد . اذ أودعتموه السجن فى داركم الوزيرية بقنوبين نحوست سنين . و بعد ان أذقتموه جميع ضروب الذل والهوان والبؤس والضنك فى صومعة صغيرة لزمها فلم يكن يخرج منها الى موضع يبصر فيه النور أو يستنشق الهواء اللذين يمن بهما الخالق على الابرار والفجار من عباده . قضى نحبه وما كان سجنكم له الا لمخالفته لكم فى أشياء لا تقتضى عذابا ولا عتابا . وما كان لكم عليه من سلطان دينى ولا مدنى . أما الدينى فان المسيح ورسله لم يأمروا بسجن من كان يخالف كلامهم وانما كانوا يعتزلونهم فقط . ولو كان دين النصارى نشأ على هذه القساوة والوحشية التى اتصفتم بها الآن أنتم رعاة التائهين وهداة الضالين لما آمن به أحد . اذ لا أحد من الناس يصبو الا اذا كان يرى الدين الذى خرج اليه خيرا من الذى خرج منه . وكل انسان فى الدنيا يعلم ان السجن والتجويع والاذلال والتوعد والتأويق والتشنيع ليس من الخير فى شىء . وناهيك ان المسيح ورسله أقروا ذوى السيادة على سيادتهم وإمرتهم . ولم يكن دأبهم الا الحض على مكارم الاخلاق والامر بالبر والدعة والسلم والاناة والحلم . فانها هى المراد من كل دين عرف بين الناس . وأما المدنى فلأن أخى أسعد لم يأت منكراً ولا ارتكب خيانة فى حق جاره أو أميره أو فى حق الدولة . ولو فعل ذلك لوجب محاكمته لدى حاكم شرعى . فاساءة البطرك اليه انما هى اساءة الى ذات مولانا السلطان لانا جميعا عبيد له مستأمنون فى أمانه وحكمه . وكلنا فى الحقوق سواء . اذ البطرك ليس له حق فى ان يخطف من بيتى درهما واحدا لوشاء ، فأنى له ان يخطف الارواح . وهب ان أخى

كونها أفضل فلأنها خلقت من الرجل وعقبه ، وهو خلق من تراب ، لكنها اذا ماتت — معاذ الله من ذلك — تستحيل الى تراب كالرجل ، لا الى أصلها الذي أخذت منه أي لا تصير رجلا ولا ضلعاً . وأما وجه كونها أكرم فلأنها أرق فؤاداً ، وأرحم قلباً ، وألين طبعاً ، فاذا رأت أحداً محتاجاً الى شيء من عندها لم تضن به عليه ، وناهيك ما جاء عن مادح السيدة زبيدة اذ قال :

أزبيدة ابنة جعفر * طوبى لزائرك المثاب
تعطين من رجليك ما * تعطي الاكف من الرغاب

فلما أنكر الوصفاء عليه ذلك وهموا بضربه انتهرتهم وأحسنت اليه لعلمها انه لم يخطئ الوصف . وقال فحل آخر : ان المرأة تعمر في الغالب أكثر من الرجل ، وسبب ذلك أنها لما كانت مفطورة على اللين والطفولة والنعومة ، كان لها ان تتلقى ما يستقبلها من الحوادث بالصبر والتاني ، فتكون به ميلاء أي تارة تميل الى هذا الشق وتارة الى ذلك ، فمثلها كمثل الغصن الرطيب يميل مع الريح فلا ينقصف . فأما الرجل فانه لما كان مفطوراً على القسوحة واليبوسة ، فمتى دهمه أمر تصلب له واقتسح فلا يلبث أن يعطب به ، فمثله كمثل الشجرة اليابسة اذا قويت عليها الريح . ومن خواصها أيضاً ان الخمرة لا تبلغ منها قدر ما تبلغ من الرجل ، واختلفوا في تعليل ذلك ، فذهب قوم الى ان في دم المرأة قوة جاذبية تغلب على الخمر فتجذبه سفلا فلا يصعد الى دماغها . وزعم بعض ان في المرأة نوعاً من الخمر يسمى رضاباً وهو فيها قوي جداً ، بحيث اذا خالطه الشراب أي شراب كان ذهب بقوته ، والقطرة من هذا النوع تباع أحياناً ببدرة ، وأحياناً برأس انسان أو بعنقه

وهكذا يمشي على انعكاس البيت بهذا القصد هو وتلامذته وبعد انقضاء ساعة ونصف على تاويل هـذا البيت يقومون وهم سامدو الرءوس عجبا أو فخرا ويظنون أن شيوخ الجامع الازهر والاموى والزيتونة هم دون هذا النحرير

مفاضلة

بين الرجل والمرأة

قال بعض الفحول من العلماء: ان المرأة أشرف من الرجل وأفخم، وأنبل وأحلم، وأفضل وأكرم. أما وجه كونها أشرف فلأن شاهدى تانيثها واقفان فى محل مرفوع بحيث يمكن لها ان تراهما أو تريهما اياها ان شاءت من دون تطاطئ رأس وانحناء، وفى ذلك من العز والشرف مالا يخفى، ألا ترى ان بعض الادباء قال: ان من عز «لا» ان يقولها الانسان وهو رافع رأسه، ومن ذل «نعم» ان يقولها وهو خافضه. اما شاهدا الرجل فهما منكوسان فى محل منخفض بحيث لا يقدران يراهما الا اذا تطأطأ وانحنى. وأما وجه كونها أفخم فلأن ساقيها اللتين هما عمودان لهيكل الجسم، وبطنها الذى هو منبت لتكون النسمة، وعجزها الذى هو مورد للاعجاز، تكون أفخم من ساقى الرجل وبطنه وعجزه. واما وجه كونها أنبل فلأنها تنبل بما يلقى اليها مدة تسعة أشهر. وأما وجه كونها أحلم فلأن سمة الحلم ترى فى شاهدى تانيثها. وأما وجـه

أن لا يسوءكم. قالوا: لا تخش من الاساءة فان هذه البلاد بلاد الحرية. قلت: مامعنى «الغرلة» حين طلب شاؤل من داود أن يمهر ابنته مائة «غلفة» من أهل فلسطين فمضى داود وقتل منهم مائتين وجاء بغلفهم الى شاؤل؟ فقالوا: لا ندرى. فقلت بل لاتدرون أيضاً كيف أن الرجل يمهر المرأة فان عادتكم بخلاف ذلك قالوا: بين لنا هذا. قلت: ههنا نساء وأخشى أن أفسر لكم معنى اللفظة فتنقبض النساء. قالوا: ان كان ذلك كلام الله فلا حرج. ففسرت لهـم حينئذ معناها. فما كان من احدى النساء الا أن أخـذت الكتاب ورمت به الارض وقالت: معاذ الله أن يكون هذا الكلام كلام الله

الحرب لما أنها تنطح الجدار . والنجوم معروفة . وقد كانت العرب تهتدى بها فى أسفارهم قبل أن عرفت خاصية إبرة المغنطيس . ولما كانوا مشتغلين بالعلوم الفلكية والطبية لم يكن فى أوربا من يشم لها رائحة ، ثم لما فتحوا اسبانيا أو جزيرة الاندلس أخذ عنهم العلم بعض من الافرنج ومنهم سرى فى سائر بلدان أوربا ، وكان انقراض الملك من قرطبة سنة ١٠٣١ بعد أن دامت العرب فيها أصحاب أمر ونهى وسيادة نحو ٢٧٥ سنة . أما الالف واللام التى فى النجوم فهى أداة التعريف ، وهى فى الطليانية والاسبانية « ال » للمذكر « ولا » للمؤنث ، واللغة اللاتينية ليس فيها أداة تعريف ، فأما اليونانية ففيها عدة أدوات ، و يوجد فى لغتنا ألفاظ كثيرة مبدوءة بهذا الحرف منها ماهو عربى وذلك نحو الكنا « الحناء » والكحل والقائد والجبره « الجبر » والقرآن والقلى والقرثيم أو الكرزيم ، ومنها ماهو من لغة أخرى . فأما اللغة الاسبانيولية ففيها من هذا النوع ألفاظ لا تعد . فاما عدم النطق باللام فى النجوم فلسكون النون من الحروف الشمسية . ثم ان أول من قرر طريقة سير النجوم حول الشمس وسير القمر حول الارض ونسبة بعضها الى بعض ، وعلة المد والجزر ، والنور والجاذبية ، والاعتمادية ، الفيلسوف نيوتن ولد فى سنة ١٦٤٢ ومات سنة ١٧٢٧ وكان ذا جد ومثابرة على العلم لا تنظر . أما قوله جد آلف للحضيض فالحضيض هنا معناه الارض من تسمية الكل بالجزء ، وورودة فى التوراة كثير . وفحوى البيت أنه أى الممدوح ذو عناية بالارض أى بحرثها واحيائها وانشاء المدن فيها وتسوية الاحكام بين أهلها لان الارض كثيرا ماتذكر ويراد بها سكانها وذلك أيضا مستفيض فى التوراة (*)

(*) روى الشيخ فارس في بعض كتبه فقال : ان عامة الانكليز يقرأون التوراة والانجيل بلغتهم ولكن قل منهم من يفهمها ، وقد جرى مرة ذكر ذلك بحضرة جماعة ادعوا بأنهم لا يفوتهم شئ من فهم الكتاب الاول وان سعادة بلادهم وغبطة أحوالها انما تسببت عن ذلك ، فقلت لهم : أما السعادة والغبطة فلست أباحثكم فيهما ولا أسلم لكم بأنكم أسعد من غيركم . وأما الفهم فما أخالكم تفهمون ماتقرأون فى التوراة . قالوا : سلنا عن شىء منها ? فقلت : على شرط

ومن العيب كل العيب أن يظل العالم متربصا بزلة غيره ، ومتربصا لحلول الشر بهم ، ولا لذة له من ذلك ولا نفع سوى مجرد وقوع الضر بمن يكرهه . فاذا أردت أن تختبر جليسك لتعرف من أى صنف هو من هذه الاصناف الثلاثة فاذ كر له نعمة انسان وفضله وعلمه فان رأيته قد فرح بذكرها ، وتمنى بقاءها عليه ، فهو من الصنف الاول ، وإن رأيته قد سكت أو نسب ذلك الى بطر الزمان ، وعوارض السعد ، فهو من الصنف الثانى . وان رأيته قد امتعض فهو من الثالث ، وهو الذى لا يحب خير أحد ، وهو الذى علمه فيه كالقرط فى أذن السنور ، أو كالنعومة فى بطن الثعبان ، وهو الذى يجب الاحتراز منه كما يحترز من الجاهل بل أكثر ، لان كلام الجاهل لا يؤثر فى أحد وإنما التأثير لكلام العالم ، إلا أن الحق عصمة كل معتصم به ، وفعل الخير جُنة كل من تحصن به ، فاذا واظبت على حب الحق وفعل الخير فلا تخش شر أحد من الناس ، وما عليك إذا تجنى الناس عليك وأنت برىء عند الله ، فعليه وحده عول ، وبه اعتصم ، واليه التجىء

كيف تدرس

الادبيات العربية فى كليات انجلترا

تصور مثلا أن قارئاً يقرأ على الشيخ قول أبى تمام

همة تنطح النجوم وجد ٭ آلف للحضيض فهو حضيض

فيقول الشيخ بلغته : النطاح مختص بالحيوانات التى لها قرون كالثور والتيس والوعل ونحوهما ، وقد ذكر فى التوراة مرات كثيرة ، ويمكن أيضا أن ينسب الى ماليس له قرن . فقد روى ليناوس الذى قسم جنس الحيوان الى سبعة أقسام : أن الحيوانات الجماء تتناطح بحياها . وقد أطلقت العرب اسم الكبش على آلة من آلات

علمه على شره وذلك إذا تذكر ما مر به من قصص الصالحين ، وسيرة أهل السمت والخير فيؤثر الاقتداء بهم ، ومرة يقوى شره على علمه إذ يطمس الله على قلبه فينسى ما قرأه وسمعه ويتبع هواه ، فمثله كمثل الشمس فى شهر الغيم تبدو مرة وتختفى أخرى ، وهذه الحالة هى التى تحير الناس فى وصفه فترى بعضهم يمدحونه كل المدح ، وبعضهم يذمونه كل الذم ، وكل فى نفس الامر صادق ، إلا أن العادة أن خلة واحدة مستهجنة ، تمحو خلالا كثيرة مستحسنة ، فكأى من محسن مجبول على الاحسان زلت به قدمه مرة فصارت حسناته كلها فى أعين المتعنتين عليه سيئات .

ومنهم من يتعلم وهو على الاخلاق الذميمة فلا يزداد به الا طيشاً وتترعا الى الشر ، واضطرابا فى الرأى ، وحدة فى الطبع ، وشراسة فى المعاملة ، وتطاولا على حقوق الناس ، وتهافتا على الطعن فيهم ، فمثله كمثل شمعة موقدة معرضة لعواصف الرياح فلا تزال الرياح تعبث بها يمنة ويسرة ، حتى يتمنى الناظر اليها إطفاءها بالمرة .

ثم إن كل علم نافع وكل نافع ممدوح ، الا أنه ينبغى النظر فى حقيقة معنى النافع فان من يقصد العلم لينفع به نفسه دون غيره لم يبق ذاك النفع الخاص مستوجبا للمدح العام ، وكيفية اقتصار الانسان على نفع نفسه هو أن يزدرى بغيره حتى يصير مرجع المسائل اليه ، وأن يستحل أموال الناس بما تسول اليه وساوس نفسه من أنهم لم يحرزوها على وجه الحق ، وأن يتهددهم باظهار عيوبهم فى الاماكن التى ينتابها حتى ينيلوه كلما يقترحه عليهم ، وان يغرى زيدا بعمرو ، ويغرى عمراً على زيد ، ويتربص بهما الرزايا والبلايا فيرزأ من كل منهما ، وأقبح من ذلك أن يتعرض لغيره إذا عرف أنه ينال رزقا فيسعى فى قطع رزقه وإن لم يعد عليه ذلك بعائدة ، فنفع نفسه هنا غير حقيقى وإنما هو باعتبار ضر غيره ، وهو مثل ابليس لا محاله ، لان ابليس لا نفع له من وقوع البشر فى المهالك الموبقات الا الشماتة بهم ، أو مثل الجعل الذى يرتاح لحمل الاقذار ويأنف من رائحة الطيب

أخلاق العلماء

من الناس من يتعلم العلم وهو مجبول على صفات حميدة فيزداد هدى و رشدا و ورعا ودماثة أخلاق، وحسن تصرف، واستقامة طبع ، ونزاهة نفس ، وصفاء عقيدة ، واخلاص مودة ، وسلامة نية ، وعفة قلب ولسان ، وانبساط يد . فمثله كمثل الجوهر الشفاف إذا قابله شعاع الشمس . أو كمثل إناء من زجاج نظيف صاف إذا وضع فيه الماء لم يغير من طعمه شيئاً ، فتراه دائماً مقبلا على نفع الناس . ساعيا فى إصلاح شؤونهم ، وتسنية أحوالهم ، باذلا أقصى جهده فى تسكين خواطرهم ، ولم شعثهم ، وتأليف متفرقهم ، وتسلية حزينهم ، و إرشاد غاويهم ، وتأييد ضعيفهم . وليس من همه التردد على أبواب الامراء ، والخضوع لحجابهم ، وملاينة خدمتهم ، ولا استعطاف ذوى الثروة والعز ، حتى ينال منهم وظيفة أو رزقا . ولا التشدق بالا بيات والنوادر حتى يعجب السامعين، و يحملهم على اكرامه وتعظيمه . ولا التعرض لما لا يعنيه حتى يقال فيه أنه ذو همة وسعى ، وانما همه كله فى مراعاة ما يقتضيه العلم ، وهو فعل الخير لوجه الله تعالى . فهذا هو العالم الذى يحمد حيا وميتا ، و يبقى اسمه مذكورا بالخير فى كل مكان و زمان، وهو الذى تتبرك الناس بنقل أقواله ، كما يرتاحون لحمد أفعاله، وكلما ذكرت سجية حسنة، وخلة مستحسنة، ذكروه بها، ونسبوا اليه كثيرا من أمثالها، فان من طبع الناس ان ينسبوا الى من عرف بالمحامد والفضائل فى عصره ، كل حمد وفضل عُرفا لغيره

ومنهم من يتعلمه وهو مجبول على بعض صفات ذميمة فيتهذب به بعض التهذب و يتغير به بعض التغير، فشأنه أن يبقى فيه علمه وشره كالقرنين المتكافئين ، فمرة يقوى

«دى دى دى» أرادياىدى فسارت الابل على صوته . فقال له الزمه ، وخلع عليه ، فهذا أصل الحداء . وفيه دليل على أن البهائم تطرب للتلحين . واسماء الانغام عند المغاربة مخالفة لاسمائها عندنا . وهم يدعون بانهم أخذوا هذا الفن عن أهل الاندلس . وأهل تونس أكثر ترسلا منهم ، فهم واسطة بين المغاربة والشارقة . أما المواليات فمن خصوص أهل مصر والشام وكذلك الناى «والقانون» وكما ان غناء أهل مصر اطرب واعلى من غناء جميع العرب كذلك كان غناء الطليانيين أعلى من غناء سائر الافرنج وذلك لكثرة ما فى لغتهم من الحركات فهى مثل لغتنا صالحة للغناء والعروض ولكون أصواتهم أيضاً صادرة عن صدورهم . اما لغة الانكليز فلكثرة السواكن فيها لا تطاوع على الغناء الذى فيه مد وترجيع الا بتحويل الالفاظ عن وجهها . وانما هى لغة أمر وزجر ، ولغة الفرنسيس وغناؤهم بين بين . وجميع الافرنج يقولون ان غناء العرب من خياشيمهم . وعلى فرض تسليم ذلك فما يكون منافيا للتطريب فان اللغة الفرنساوية لا يتكلم بها الا مع الغنة . وهى مع ذلك اشجى لغات الافرنج ، فربما طرب لها من سمعها أول مرة من عمره ، والظاهر ان العرب لا تأنف من الغنة فى الغناء وحسبك ان أصل تغنى تغنن نحو تمطى وتصدى وقد رأيت من الافرنج من كان يطرب للانغام المصرية ولكن غب طول مكث فيها وكان يقول أولا انها محزنة ولا يخفى ان للعادة تأثيرا فى جميع الاحوال وخصوصا فى المنطق والالحان وناهيك ان الاطفال عندنا وعند الافرنج ترقد على الغناء فتعتاد عليه وتألفه وقد قيل العادة طبيعة خامسة .

سدها واستعمالها تقارب صنعة نقل الاصابع عندنا ، وهذه الانصاف والارباع في النغم مثل الاشمام والروم في الحركات ، وفي الجملة فان للافرنج في هذا الفن حركات خارجة عن ذوقنا وأخرى لا يمكن محاكاتهم بها . ومن الغريب انه مع كثرة ما عندهم من الآلات لهذا الفن فقد فاتهم « العود » على محاسنه « والناى » من القصب ، فان نايهم هو كالزمر ليس له صوت رخيم ، على ان أكثر المؤرخين قرروا ان أصل الموسيقى مأخوذ عن صوت الريح في القصب . وكان اختراع الناى أو الزمر في سنة ٥٠٦ قبل الميلاد ونسب الى هيجنيس . وعندى ان أشجى آلة من آلات الافرنج هي المسماة « بالكنشرتينو » وهي نحو المنفخ تفتح وتطبق لها صوت يحاكي صوت أنثى ويقال انها من مخترعات وتسطون الانكليزى .

ومن المعلوم انه كلما رقت طباع الناس ولطفت اخلاقهم كانوا الى المحاضرة في مضمار الطرب اسبق ، وخواطرهم اليه اسبق ، فان المولع بغز المعاني واسرار الكلام لا يسمع الالحان الا ويتصور معها من الحسن ما يهيم به وجدا قبل ان يشعر الغبي بمجرد معرفة كونها غناء ولا سيما اذا كان الانشاد معربا والوقت معجبا . وقد جاء في شرح لامية العجم للعلامة الصفدى : من لم يحركه العود وأوتاره ، والربيع وازهاره ، فهو فاسد المزاج بعيد العلاج . ومن الغلط البين أن يقول الانسان انى لا أطرب لهذه الالحان لجهلي باللغة . فان الطرب انما يكون عن الصوت اصالة لا عن الالفاظ ، ومتى اجتمع الامران كان الحظ اوفر . والذى يظهر لى ان الانغام التى كان يتغنى بها في زمان الخلفاء كانت اشبه بغناء المغاربة الآن منها بغناء المشارقة ، والفرق بينهما ان غناء المشارقة فيه مد وتطويل ، وغناء المغاربة فيه درج ونبر ، واللازمة التى يستعملها هؤلاء هى « دى دى » كقول أهل مصر والشام « ياليل » وكقول الترك « أمان » وفي القاموس ما كان للناس حداء وضرب اعرابى غلامه وعض أصابعه فمشي وهو يقول

منه في مصر وتونس أكثر مما يغني من غيره الآن فضل غيره أيضاً لا ينكر، ثم أفكر في ان «نايناً» الذي هو مجرد قصبة خالية في الظاهر عن بديع الصنعة الظاهرة في آلاتهم يخرج منه من النغم ما لا يخرج من آلاتهم الكثيرة المتنوعة ولا سيما هذه الآلة المسماة «بيانو» التي يبلغ ثمنها خمسين ليرة فاكثر، ثم أعود فاقول لا غرو ان يكون قد فاتهم في هذا الفن محاسن ودقائق كما فاتهم أيضاً في غيره، وذلك ككثرة بحور العروض عندنا، وكبعض محسنات الكلام، وكالسجع في الكلام المنثور، اذ ليس عندهم سوى المنظوم، وهو في الانشاء كالصوت المطلق في الغناء وكلاهما فاتهم، وكعجزهم أيضاً عن النطق بالاحرف الحلقية مع استطاعتهم على ان يطيروا في الجو، وقد سألت مرة احد أرباب هذا الفن منهم فقلت ان مقامات النغم موجودة عندكم وعندنا على السواء وكذا انصافها فبقي الخلاف في استعمالها فإن نالو استعملنا مثلا نصفاً من الانصاف مع مقام وأنتم تستعملونه مع مقام آخر بحيث يظهر لنا انه خروج فمن أين تعلم الحقيقة؟ فما كان منه الا ان قال ان هذا الفن قد وضع عندنا على أصول هندسية لا يمكن مخالفتها فلا يصح ان يستعمل فرع الا مع أصل . على اني كثيراً ما سمعت منهم خروجاً فاحشاً على شغفي بفنهم . وقد شاقني يوماً بعض المادحين الى سماع قينة بلغ من صيتها انها غنت في مجلس أمبراطور الروسية فلما سمعتها طربت لرخامة صوتها الانثوي وطول نفسها في الغناء الا اني أنكرت منها نبرات فاحشة وخروجاً مكروهاً بحسب ما وصل اليه ادراكي . ولو تيقن ان الحان الروم التي يتغنون بها اليوم هي عين الحان الفلاسفة اليونانيين لكان ذلك دليلا آخر على قصور الحان الافرنج، فان الحان الروم مقاربة لالحان العرب . الخامس ان أصحاب الآلات من الافرنج لا يحسنون اخراج انصاف النغم وارباعها ما لم تكن مرسومة لهم في الآلة الا العازف «بالرباب» أو «الكمنجة» أما «الناي» عندهم ففيه خروق شتى غير السبعة الاصول لكل اثنين منها سدادة تنطبق على واحد منها، فاذا سدبها منخر، جاش منخر غير ان الصنعة في احكام

الاصوات المتغايرة، وعندى ان هذه الطريقة على الالات أحسن منها على الاصوات .
الثالث ان غناء الافرنج هو مثل قراءتهم فى انه يخلو عن حماسة وتهييج فضلا عن التصبية والتشويق والترقيص، وغناء الحماسة والتهييج هو الذى به ذكر القتال، وأخذ الثار، والذب عن العرض، وحماية الحقيقة . فاذا سمعه الجبان ولا سيما من الآلات العسكرية هانت عليه روحه . أما غناء العرب فكله تشويق وتصبية وأجدر به ان يكون جامعا لمعنى الطرب وهو خفة تصيب الانسان من فرح أو حزن . فاذا سمع أحدنا صوتا أو آلة شغف قلبه الغرام فبدت صبابته وحنت نفسه كما يحن الالف الى إلفه حتى يصير عنده آخر الفرح ترحا . ولا غرو ان يصعد منه الزفرات، ويحدر العبرات، فان السرور اذا تفاقم أمره، وطما بحره، وتكامل بدره، دب فيه محاق الشجن، واختلط به الحزن، حتى يستغرق صاحبه فى بحر من الوجد، ويشتعل بنار من الهيام، وعلى ذلك جاء قولهم طرب به وشجاه من الاضداد . الرابع ان الافرنج لا قرار لاصواتهم الا على الرصد، نعم ان جميع الانغام لها مقامات فى آلاتهم بل توجد أيضا انصافها وارباعها، الا مقامين منها الا انهم لا يقرون الا على المقام الاول وقد سمعت منهم الرهاوى والبوسليك والاصفهان، أما غير ذلك فلم أسمعه قط بل قد سمعت منهم بعض أغانى نقلوها عن أغانينا وأوقعوها على آلتهم فكانت كلها رصدا، مع ان العساكر السلطانية هنا يخرجون على آلتهم جميع الاصوات اخراجا متمحضا متخلصا لا يشوبه شىء، واذا أخرجوا من الالحان التركية شيئا كان أيضا متمحضا عن غيره ، فكيف هذا وقد والله طالما وقفت السمع على ان أسمع منهم أنغامنا فخبت حتى اعترتنى الحيرة؟ فانى من جهة كنت أرى آلاتهم بديعة الصنعة على كثرتها وأفكر فى ان العلوم انتهت اليهم والفنون قصرت عليهم وان عندهم فى هذا الفن بخصوصه بدائع كثيرة قد فاتتنا على ماسبق ، ومن جهة أخرى رأيت ان براعتهم كلها انما هى من مقام الرصد، نعم ان هذا المقام هو أول المقامات وانه يغنى

شخصا مجهشاً للبكاء فانك تعلم اجها شه بالبديهة وان لم تعرف سببه . والرابع مايتغنى به في المضحكات والمحاورات وهذا يقل فيه الترجيع ويكثر فيه النبر وتطريبه انما هو من حيث انهم يوقعون عليه ألفاظا غريبة ويصلونه بحركات مضحكة ومحاكيات مختلفة فيضحكون فيه ويقهقهون ويبكون ويتثاءبون ويعطسون ويحاكون به قيق الدجاجة وزقزقة العصفور وغير ذلك . وفي كل من هذه الانواع يستعملون المساجلة وهي مطربة جدا وأكثرها في النوع الاخير . وكما ان لهم غناء مضحكا كذلك لهم رقص مضحك ينسي الثكلى حزنها . أما العرب فانهم يقولون ان الرصد يشجي والسيكاه يفرح والصبا والبيات يحزنان وهلم جرا والفرق بين الفريقين من عدة وجوه . أحدها ان الافرنج ليس لهم صوت مطلق للانشاد من دون تقييد بتلك النقوش، فاذا اقترحت على أحدهم مثلا ان يغني بيتين كما يفعل عندنا في القصائد والمواليات من دون نظر الى تلك العلامات لما جاء بشيء، وهو غريب بالنسبة الى براعتهم في هذا الفن، لان الانشاد على هذا النوع طبيعي . وقد كان عندهم من قبل تلك النقوش، فياليت شعري كيف كان غناؤهم قبل ان نبغ غيدو راتز والطلياني الذي رسم العلامات وهو حديث العهد ؟ الثاني انه اذا اجتمع منهم عشرة مغنين مثلا وأرادوا اخراج موشح أخذ بعضهم في بعض أركانه من مقام، وبعض في بعض آخر من مقام آخر، وهكذا فاذا كانت الاغنية مثلا من الرصد، غنى واحد جزءا من هذا المقام بصوت جهير، وآخر جزءا من النوى بصوت بين، وآخر جزءا من الجواب بصوت عال، فيسمعه السامع من عدة مقامات، ويقال له عندهم «هرموني» ومعناه التالف أي ان الاصوات تتالف على الغناء من مقامات شتى . وفي هذه الطريقة فوائد ومخاسر . أما الفوائد فلان السامع يسمع في وقت واحد نغمات مختلفة، باصوات مؤتلفة، فهو كمن يسمع قصيدة واحدة من جميع بحور العروض على روي واحد . وأما المخاسر فلان السمع لا يتمكن كل التمكن من ادراك جميع مخارج

على ذاكرة وعظيم معاناة كما فى السابق، وكاد يتساوى فيه الذكى والغبى، فمن عرف منهم مخارج النغم ورأى تلك العلامات أمكن له أن يخرج عليها أى صوت كان، واذا اجتمع منهم عشرون رجلا وكانت امامهم تلك النقوش رأيت منهم متابعة واحدة. ويرد على هذا التاويل انه لو كانت الموسيقى فضلة من المنطق لكانت واحدة الاستعمال كما ان المنطق واحد الضوابط والقواعد، على ان الناس متباينون فى هذه الفضلة مثل تباينهم فى لغاتهم وعباراتهم فان ألحان العرب لا تطرب غيرهم بل هؤلاء أيضاً يختلفون فان أهل مصر لا يطربون لالحان أهل الشام وغيرهم وألحان الافرنج لا تطرب أحدا منهم وعلى تأويل المنطق بالمعنى اللغوى وهو المراد هنا فقد جاء فى شرح رسالة ابن زيدون لابن نباتة: النغم فضل بقى من المنطق لم يقدر اللسان على اخراجه فاستخرجته الطبيعة بالالحان على الترجيع لا على التقطيع فلما ظهر عشقته النفس وحن اليه القلب. والمراد بقوله على الترجيع لا على التقطيع هو أن يكون الصوت ممتدا ينحى به ويمال لا متقطعاً كأصوات الهجاء. فاذا كان فن الموسيقى والحالة هذه فضلة عن المنطق لزم ان نقول ان لكل جيل محاسن فى غنائهم مقصورة عليهم فقط كما ان لكل لغة محاسن فى عبارتها لا توجد فى غيرها. والواقع بخلاف ذلك. فان لغتى الهند والصين مثلا تشتملان على كثير من المحسنات مما لا يوجد فى غيرهما مع ان انغامهم خالية عن ذلك أصلا. أما ألحان الافرنج فلا يطرب لها منا الا من الفها وهى على أربعة أنواع. الاول وهو أحسنها ما يتغنى به فى الملاهى مثل الموشحات عند نامع مد الصوت، وترجيعه وخفضه، ورفعه، وترقيقه، وتفخيمه، وترجيفه، وفيه تدخل نبرات تدل على الحماسة والتحريض والتذمير. والثانى وهو قريب منه ما يرتل به فى الكنائس ولا يكاد يكون به ترجيف. والثالث ما يتغنى به فى البث والمحزنات. وفى هذا النوع يستعملون غناء رقيقاً رخيماً أشبه بالنجوى فمن يسمعه يلحن ما المراد به وان كان جاهلا باللغة، كما اذا رأيت

الموسيقى

قبل الدخول فى هذا الباب الحرج ينبغى ان استأذن أهل هـذا الفن فى التطفل على الكلام فيه وان كنت لا أعد منهم غير أنى عرفت منه ما يمكننى من معرفة المستقيم منه من غير المستقيم . فاعلم ان لفظة الموسيقى يونانية منسوبة الى موسى احدى الالهات التسع التى تنسب اليها الفنون الظريفة كالعروض والشعر والغناء والرسم والتصوير ، ومرادفها فى العربية « ألتلحين » من اللحن وعرفه صاحب القاموس بانه من الاصوات المصوغة الموضوعة . وحقيقة معناه امالة الصوت على وجه الترجيع والتطريب وجميع مشتقات هذه المادة تدل على الميل ، ومنه اللحن فى الكلام وحاصله ميل عن جهة الصواب ، وقد جاء هذا المعنى أيضاً من لفَتَ وعَصَد وأصلهما اللىّ ومن لخ وأصله الميل فى الحفر ومن لغز وأصله الميل بالشئ عن جهته وكذلك اللحن الذى هو كالتعريض والكناية ، قال الشاعر

ولقد لحنت لكم لكيما تفهموا ✻ واللحن يعرفه ذووا الالباب

فكأن المراد به الميل عن جهة التصريح والايضاح ، ثم قيل منه لحنت القول ، أى فهمته ، ويرادفها أيضاً « الايقاع » وكان المراد به ايقاع الصوت على النغم ثم حذف المفعول قال بعض العلماء . ان فن الموسيقى فضلة من المنطق أخرجها العقل بالصوت لما لم يمكن اخراجها بالقياس . فعلى تاويل المنطق بالمعنى الاصطلاحى يكون المراد منه ان أركان هذا الفن ذهنية بناء على ان المتقدمين كانوا يتعاطونه بالسماع ، و يتلقونه بالذوق ، فيرسم السامع ما يسمعه من الاصوات فى مخيلته وذاكرته ، دون مشاهدة علامات و رسوم تدل عليه ، وهكذا ياخذه التلميذ عن معلمه و يتلقاه بالترسم عن ظهر القلب والاتباع مع الملكة التى ترسخ فى مخيلته تلك الترجيعات ، ولهذا كان المعول عليه فى تحصيل هذا الفن ملكة الذوق ، اما الافرنج فقد جعلوا الان ترجيع الصوت وايقاعه داخلا تحت حس المشاهدة فدلوا عليه بنقوش و رسوم معلومة كما دلت الحروف على المعانى فلم يكن تحصيله متوقفا

كل من تمثل بالابيات كان ناظما ، فما العلم الا ما استقر فى البال ، لا ما قرقر فى المقال ، وهذا الذى يفيد الطالبين ، و يؤدب المتادبين ، وقلما اجتمع لامرء فصاحة اللسان و براعة اليراع ، والناس فى تفضيلهما ليسوا على اجماع ، وعندى أن الثانى بالعلماء أليق ، والاول بالخطباء وذوى المراتب أليق ، فان هؤلاء محتاجون إلى اعجاب السامع ، بالقول الرائع ، و إن لم يتحروا فى قولهم التحقيق ، مما لا بد منه للعالم ذى التنويق ، و فى كلتا الملكتين مزية ، وفضيلة وقضية

فامامن خلا عنهما ، ولم يحرز سهما منهما ، فعادة الناس أن يرموه بالمعايب ، و يشنوا عليه المثالب ، ومايكادون يرونه جديرا بشىء من الاحسان ، لانهم حصروا الفضل فى فصاحة اللسان و براعة الجنان ، وهو عندى فى الجملة غير الصواب ، والقائل به إنما يقول مجازفة بدون حساب ، فان كثيرا ممن ليس لهم أحد هذين الشأنين ، يحسنون مباشرة الامور والتقلب فى الرياسة من دون شين ، فكم من أمىٍّ ساس العباد ، وعمر البلاد ، وليس له فى صناعتى الكلام والتأليف يدان ، حتى كأن لا أنامل له ولا لسان ، وانما هو نور يقذفه الله فى قلبه فيرى به سليم الامور وسقيمها ، ومنتجها وعقيمها ، والحرى منها بالاجراء ، والنافع منها عند الاستقراء ، فيشمر له عن ساعد الهمة ، و يوفقه الله الى اصلاح أمر الامة ، وانما يكون هذا فى أفراد الناس نادرا ، ولذلك قل ماترى له منهم ذاكرا ، وأحسن الملكات وأجل الغريزات ما نفع النات (١) ، ودفع عنهم الترهات ، وألفهم على المودة والاخاء ، وأزال من بينهم العداءة والبغضاء والله يهدى من يشاء الى صراط مستقيم

---

(١) النات الناس أنشد الشاعر

يا قبح الله بنى السعلات ❊ عمرو بن يربوع شرار النات ❊ ليسوا اعفاء ولا أكيات

أراد أنهم من شرار الناس وأنهم غير أكياس

الارتجال ، فيسهل فيها إيقاع الالفاظ مواضعها ، والتاليف بين المعانى فلا يختار منها الا بدائعها ، و إذا التبس شىء من الكلام ، فالكتب تكشف عنه اللثام ، فكيف تكون الخلوة باعثة على التقصير ، والزحام أدعى الى البيان فى التعبير ، وان كثيرا ممن يتفصحون و يتحذلقون ، والناس بهم محدقون واليهم محدّقون ، ليتعمدون حفظ بعض القصص والحكايات لمجرد سردها على السامعين ، بينة على مالهم من البيان والتبيين ، والاطلاع على سير الاولين ، والاضطلاع من علوم المتقدمين ، فترى أحدهم ينتهز الفرصة لبث ماحفظه و وعاه ، و يزاحم غيره فى الكلام لاظهار دعواه ، فاذا كان فى المجلس ثلاثة منهم أو أربعة ، سمعت لهم ضجيجا ومعمعة ، حتى كأنك فى جيش لجب و بحر مضطرب

ومنهم من يحضر المجالس وهو صامت ، و يسمع ما يقال فيها وهو ناصت ، و إذا عن له أن يورد نادرة على سبيل المحاضرة ، تذكر أنها غير خافية على أحد من الحضور ، أو أنها ليست من القول المأثور ، فيضرب عن إيرادها ، و يقيس عليها غيرها من أندادها ، وهكذا ينفض المجلس وهو لم ينطق ببنت شفة ، ولا أظهر على السكون أسفه ، فيظن جليسه أنه ذو عى ، وغيره من المكثرين كان اللوذعى ، فان الناس يظنون غالباً أن الفخار فى الاكثار ، والقصور فى الاقتصار ، فاذا حضر المجلس مرة أخرى ، لم يرفع له أحد قدرا ، واتخذوه كلا ، وقالوا إن سكوته إنما كان جهلا ، وأن حضوره لما يقلى ، فان من شهد محفلا ولم يتكلم فيه ، كان كأنه يتطلب عدم معايبه وحصر مساويه ، ولكن متى خلا الصامت بنفسه ، وأجرى جواد قلمه على طرسه ، أراك من فنون الكلام عجباً ، و اذاقك من حلاوة البيان ضرَبا ، وأنشاك من انشائه ، وسلب لبك بأساليبه وانحائه ، فتود لو كنت له تلميذا وخديما ، أوسميراً و كليما ، وقلت لا جرم أن من البيان لسحراً ، و إن من الصمت لسرا ، فليس كل من أورد النوادر كان عالما ، ولا

مراتب الفضلاء

من الناس من يتصدر فى المجالس ويحادث كل مجالس ، وينافس كل مؤانس ، فيطرب المسامع ، بما يورده من الفقر النواجع ، ويسلى النفوس بما يسرده من الحكايات ، والنوادر والابيات ، ويواصل الاخبار ويروى الاشعار ، ويصل قضية باخرى ، ويقول تلك حرية وهذه أحرى ، ويلتفت ويستطرد ، ويتمثل ويستشهد ، ويلمح الى وقائع وفنون ، ويفيض فى حديث ذى شجون ، حتى تقول أن صدره مستودع جميع الاخبار ، وفكره محور لكل الاسرار ، وإنه مورد المسائل ومصدرها ، وخبر الفضائل ومخبرها ، وأنه فضاض المشكلات ، ومستفاض البينات ، وبديع البيان ، وحسان الفصاحة والتبيان ، وأن له مصنفات كثيرة ابتدعها ، ومؤلفات وفيرة اخترعها ، حيث قالوا إن اللسان ترجمان الجنان ، والاخذ فى فنون الكلام منبأة عن العرفان ، فيعظم فى عينيك قدره ، ويثبت لديك فضله ونخره ، وتهابه مهابة التلميذ لاستاذه ، وتوقره توقير المضيم لمعاذه ، فاذا أخطأ فى شىء ، قلت ان الخطأ من فهمك لا منه ، وأنك محتاج الى الاخذ عنه . فاذا أخذ القلم وكتب أبان عن قصور فى علمه ، وفتور فى فهمه ، فقربت عنه تلك القريحة السيالة ، وخانته تلك الفكرة الوصالة ، فلم يجد لارتباط الكلام بابا ، فكانه لم يقرأ فى العلم كتابا ، ولا درى من فنون القول ايجازاً ولا اطنابا ، وكأن لسانه الذى كان يتكلم به انما كان مستعارا ، وتلك الفصاحة كانت اضطراراً لا اختيارا ، مع أن من العادة أن الانفراد للتأليف والانشاء ، يظهر فضل المرء فى علمه أكثر من المجالس ويكون ادعى للايشاء ، فان فى الخلوة يصفو الذهن من كدر القيل والقال ، وينشرح الصدر من عنت

فان اعترض أحدهنا بان العرب أيضاً قد ألفوا أسلوباً في الشعر والانشاء لا يستحسنه غيرهم وهو في نفس الامر معيب فانهم اذا امدحوا بليغاً قالوا انه يفتض أبكار المعاني، واذا مدحوا أميراً ابتدأوا بذكر محاسن امرأة أو غلام وبالتشوق اليه او اليها ومثل ذلك خروج عن الذوق اذ ليس من مناسبة بين الامير والمرأة . قلنا في الجواب أن قول بعض العرب يفتض أبكار المعاني ليس بطريقة عامة يستحسنها منا كل أديب ، فربما عده بعض أدبائنا حسنا ، وعده البعض الآخر خشنا ، وهذا هو الفرق بيننا وبين الافرنج فان الاخلاء والاسفاف والتكرير والمعاظلة عند الفرنسيس والانكليز طريقة عامة يستحسنها كل واحد منهم فان لغتهم مبنية على هذا الاصل . أما اصطلاح العرب على الابتداء بالنسيب قبل المدح وان يكن طريقة عامة الا أن له وجها ، وذلك أن أقوى الاسباب الباعثة على الشعر إنما هو فراق الاحباب « لا يعلم الشوق إلا من يكابده ولا الصبابة الا من يعانيها » ولما كان هذا الامر كثير الوقوع عند العرب لان دأبهم الرحيل والتنقل من مكان الى مكان شحذوا بذكره أذهانهم في مطالع قصائدهم ثم خلطوه بوصف محاسن المحبوب والتغزل به فمن هذا الوجه ساغ وحسن . ولو فرضنا أن العرب كانت تسكن المدن ولا تفارقها لما كان لذكر الطلول والاظعان معنى ، نعم إذا بالغ الشاعر في وصف المرأة التي فارقته كأن يقول إنه يتمنى أن يكون بعيرا تحتها أو أنه يشفق على البعير من ثقل أردافها أو أنها تسقى الشرب جميعاً كؤوس ريقها عاد ذلك سمجا . لا جرم أن ذوق الانسان ليتغير بحسب ما يطرأ عليه من العوارض ويدور مع أحواله ، فالاحداث والشبان مثلا يرتاحون الى المبالغة والغلو والفحش ، والكهول والشيوخ يأنفون من ذلك ، فلا يستحسنون من الكلام الا ما كان خاليا من الشوائب . وعلى هذا نقول أنه لا يمكن وضع حد معلوم للذوق إذ هو مبني على العادة والالفة وهما مختلفان ، وانما يمكن التقرب منه كما يمكن التقرب من معرفة حسن العادات من قبيحها بسلامة الطبع وصفاء السجية

مع انه من السماجة بمكان . ومهما يكن من السماجة فى كلام امرئ القيس فان الذوق سجية راسخة فى العرب الاولين . انظر الى الشنفرى الذى عاشر الذئب العملس والارقط الذهلول والعرفاء الجيأل ، فانك لا تجد فى كلامه شيئا خارجا عن الذوق ، وكذا المعلقات وغيرها ، مع ان العرب كانوا خالين عن العلم وانما هى محض ملكة فيهم . وانظر الى كتاب الافرنج الذين بلغوا فى هذا العصر من المعارف والتمدن ما بلغوا فلا تكاد تجد أحداً منهم ذاذوق . هذا « التيمس » الذى هو عند الانكليز بمنزلة « نوابغ الزمخشرى » و « مقامات الحريرى » تراه بينما هو يخوض فى أمور سياسية دقيقة ، ومقاصد دولية أنيقة ، اذا به يطبل بذكر القطن والانوال والمعامل ، ويزمر بذكر الفحم والمجارف والمواقد والمناقل . وانظر الى كتاب الاخبار من الفرنسيس تجدهم يسفون ، ويدنقون ، ويسهبون ، ويخلون ، فيأخذون فى معنى مبتذل ويكسونه الالفاظ الضخمة الطويلة الحوشية ، فتسمع منهم جعجعة ولا ترى طحنا ، فكل خمسة أسطر من كلامهم يغنى عنها فى العربية سطر واحد ، وما ذلك الا لان الانكليز ألفوا الكلام على القطن والفحم والمعامل ، والفرنسيس ألفوا الاسفاف والاخلاء ، فلا نقول ان ذلك صادر من جهلهم بل من عدم ذوقهم . ولو قال أحد بالعربية مثلا : انى فى هذا الصباح الذى لاحت تباشيره ، وعم سروره ، وفاح عبيره ، وأشرقت شمسه وشمل أنسه ، وغرد طائر هنائه ، وخفقت بنود صفائه ، وحق له ان يذكر فى كل سفر يسطر ، وكل مجلد يحرر ، شربت مسهلا ، ولزمت بيتى معتزلا . أفيكون ذلك كلاما ، وهل يغضى النظر عنه أحد ممن سلم ذوقه وصفا طبعه ؟ فينبغى ان تكون الالفاظ ، مطابقة للمعانى ، فما كان من المعانى مبتذلا خسيسا فلا يليق به ان يكسى الالفاظ الطنانة فانها تزيده هجنة . وهؤلاء الافرنج مع تبحرهم فى الفنون واتقانهم الصنائع لم يفطنوا الى هذه المناسبة ، فاعجب لقوم يقيسون الارض والسماء وليس لكلامهم من قياس

الذوق

الذوق فى الكلام ، كالذوق فى الطعام ، فى ان كلا منهما منشأه الالفة والعادة ، فمن قلة الذوق المعنوى انه لم يوضع فى لغة من اللغات لفظة خاصة به و بضده ، وانما يذكر أهل المعانى والبيان شيئاً من أثمارهما فيقولون مثلا هذه استعارة حسنة ، وهذا تشبيه بديع ، أوهذه استعارة مستهجنة ، وهذا تشبيه بعيد ، ولا يقولون ان ذلك من الذوق وعدمه ، مع انه هو مدار ذلك وليس لغيره مدخل فيه ، لان الشاعر الذى يرتكب مايخل بالذوق ربما كان أعلم أهل زمانه باللغة و بكلام العرب ، فاتيانه والحالة هذه بما يروق النقاد ناشئ عن العلم والذوق ، واتيانه بغير ذلك من عدم الذوق لا من الجهل . فمن عدم الذوق فى شعر شعراء العصر ان أحدهم يبتدئ قصيدته مثلا بالتشبيب فى امرأة ثم يذكر أوقات الوصال ثم الهجر ثم عدوان الزمان ، وتقلب الايام والاحوال ، وحرمان اللبيب ، وفوز الجاهل ، ثم ينتقل الى الغزل بمذكر فيصف محاسنه و يفضله على الشمس والقمر والنجوم ، ثم ينتقل الى وصف الخمرة ومجالس الانس والطرب ، واختلاس اللذات ، واغتنام فرص المسرات ، ثم ينتقل الى ذكر مفارقة الاحباب ، وتجرع غصص النوى ، وذكر الطلول والربوع والبرق والسحاب والصبا ، والتعلل بنفحاتها والترقب لاوقات الوصال ، وكل ذلك بكلام بليغ ، وتعبير فصيح ، من دون ضرورة ولا اخلال فى شىء من قواعد اللغة العربية ، فالشاعر الذى مارس هذا الاسلوب لا يرى فيه عيبا بل ربما عاب مايخالفه من أساليب غيره ، وهكذا ترك أهل المعانى والبيان ممن يتعاطون الشعر يهيمون فى كل واد ، وانما نشبوا فى نقد بعض ألفاظ وأمسكوا بتلابيب قائلها ، وذلك كانتقادهم لفظة « مستشزرات » فى قول امرئ القيس « غدائرها مستشزرات الى العلا » ولم يعيبوا عليه قوله « اذا مابكى من خلفها »

الطمع ، فلا يأنفون من سؤال ، ولا يصدفون عن مُحال ، ولا يعرفون من مِحال ، وما لهم بالعواقب من مبالاة ، ولا فى المناقب من مغالاة ، سواءٌ جاروا عن الأَمّ ، أو حاروا فى الذم ، أو لبسوا الفضائح ، أو قمسوا فى القبائح ، حتى اذا هنأهم الادام ، ومرأهم المدام ، سخروا ممن نولهم بطرا ، ونفروا عمن خولهم اشرا ، ونسبوا بَذْلَهُ الى الاضطرار ، وحسبوا فضله من الاغترار ، وهو كفران مبين ، وخسران مهين

ومنهم من يقر على الكسل ، و يفر من العمل ، و يقول ان الله جل سلطانه ، وهلّ احسانه ، خالق الاسباب ، ورازق النُعَّاب ، فهو يرزقنى بغير حساب ، و يرمقنى من ضير الذهاب والاياب ، اذا لزمت معانى فهو يغنينى ، وان أقمت أتانى لا يُعَنِّينى ، فحدى أن أبتهل اليه داعيا ، وجدى أن أتكل عليه راجيا ، فلا أجرى ولا أسعى ، ولا أسرى ولا أشقى . وان كان قد تميز عن أمثاله برسم من العلم ، وتحيز عن أشكاله بوسم من الفهم ، رادفى سرفه ، وزاد فى صلفه ، فصادرهم بمؤونته ، وناظرهم على معونته ، اعتمادا على فضائله ، واستنادا الى شمائله ، وانه أكرم منهم وأفضل ، وأعلم وأمثل ، وأحلم وأكمل ، وهذه محنة أخرى ، ومهنة خسرى ، بل فتنة كبرى ، لا جرم ان الله هو الخلاق العليم ، والرزاق الكريم ، وانه قدر كل سبب فاحسن تقديره ، و يسر كل طلب فاتقن تيسيره ، وانه يلهم خلقه صنيع النعم ، و يعم رفقه على جميع الامم ، وان منهم الحاكم والمحكوم ، والخادم والمخدوم ، والقاصد والمقصود ، والحامد والمحمود ، والجادى والمستجدى ، والهادى والمستهدى ، الا ان الاليق بمن صفت سجيته ، ووفت مروءته ، وزكا أصله ، وذكا نبله ، أن لا يكون وكلا عاجزا ، وفشلا عاشزا ، متناوما عن المعالى ، متشائما بالليالى ، متوددا الى المائح والمانح ، مترددا فى البارح والسانح ، أسير الوساوس ، حسير الهواجس ، أليف الظنون ، حليف الشجون ، قرين الاوهام ، خدين الاحلام ، فان ذلك من عوائق النجاح ، ومغالق الفلاح ، وان ذا الاحسان من هذا وعى ، ان ليس للانسان الا ما سعى

ولا الاستهتار مئنة للنباهة ، ومن تبصر فى العواقب ، وتدبر فى النوائب ، أيقن أن الرزق قُدر على مقدار لا يتعداه ، والرفق حُصر فى مضمار لن يتخطاه ، فلا وفور التردد يُكوّره ، ولا ندور التعهد يحوّره ، ولا ملازمة الارق تعجله ، ولا مداومة الشفق تؤجله ، ولا شىء من الاشياء يفقده ، ولا حى من الاحياء يوجده ، جَيْرَ أن الرزق محدود ، كما أن الحق موجود ، والخلق معدود ، الا أنه من الراتب المتبين أداؤه ، والواجب المتعين قضاؤه ، على من اتصف بالسداد ، واعتكف على الرشاد ، وكلف بالحلال ، وأنف من الحرام ، وعزف عن الجدال ، وورزف الى السلام ، وصان وجهه عن الابتذال ، وزان كنهه بالاعمال ، أن يكدّ قاصدا ، ويجد راشدا ، كى لا يكون كَلاًّ على غيره ، أو علا لميره ، فيقلى لقاؤه ، ويتلى هجاؤه ، وتشنأ لهجته ، وتبذأ بهجته ، وتبدو محاسنه مساوى ، وتغدو ميامنه مغاوى ، وحينئذ فما جاء من أثر عاد عليه وبالا ، وما شاء من وطر فاد لديه تبالا

ومنهم من اذا طلب بغية ، أو خطب منية ، أمهرها عِرضا مباحا ، وأصدرها عَرَضاً متاحا ، وأعدلها صدغا لا تعمل فيه المعاول ، وأجدلها نزغا لا ترسل عليه المقاول ، بين إقبال وإدبار ، وإبطال واصرار ، فكرّ وهرّ ، وعرّ وغرّ ، وبربر وثرثر ، وجرجر وقرقر ، هُمزة لُمزة ، نُبزة نُغزه ، لُزمة نُشبه ، حُطَمة نُقبه ، مُلِحّ ملحف ، بجبح مجحف ، لا يصيك به كلام ، ولا يحيك فيه ملام ، ولا تقمعه المقامع ، ولا تردعه الروادع ، وما من جابه يحمله على الهيبة ، ولا من ناجه ينقله الى الخيبة ، فلا يزال يغدو ويروح ، ويندو ويبوح ، ويشدو وينوح ، حتى يعتصر مأربه ، ويهتصر مطلبه ، فهذا فى عصرنا يعرف بالحوّل الماهر ، ويوصف بالمزْيَل الظافر ، بل الاول والآخر ، اذ العمدة فى حوز ما قام بالنفس ، والعهدة فى فوز ما حام على الحدس ، كيفما كان من وسائل الانجاع ، وهان من وصائل الانتفاع ، ذلك دأب أولى الجشع ، وطَب ذوى

يولد فيها العبد غير حر * وهكذا يموت رغما فادر

قال فلما أخذت الرقعة وتأملت فيها، وتحققت معانيها، علمت ان قوله هو الأسد، وان قول غيره هذيان وفند. فقلت له بورك فى زمن جاد بمثلك، وهدى المستفيدين الى رشدك وفضلك، وقبحا لاهل الثراء، اذ لم يحلوك ارفع الذرى. ثم انصرفت من عنده داعيا، ولما قاله واعيا

بديع الإعجاز

انى كثيرا ما فكرت فى فن البديع الذى هو من بعض الادلة على فضل اللغة العربية على سائر اللغات، فأحببت هذه المرة أن أنشىء مقالة برمتها من نوع الترصيع، ومثاله فى الكتاب العزيز «ان الينا ايابهم، ثم ان علينا حسابهم» فها أنا أدعو جميع من على وجه الارض من الافرنج لمعارضة هذه المقالة وهى :—

من الناس من تخلج فكره من فنون الاقتراح خوالج، وتلعج صدره من شجون الاجتراح لواعج، وتزعجه المآرب الى أقصى المرامى، وترعجه المطالب الى أعصى الموامى، وتستفزه وتستهويه، وتستبزه وتستغويه، لكن يفتح لها صبره، ويشرح صدره، ويجتنب منها بوارح الغصص، ويرتقب لها سوانح الفرص، ويتحين انتجاعها، ويخبر مشروعها، ويسبر موضوعها، فلا يبغيها الاحذرا، ولا يأتيها الاظفرا، ويرى الانتظار أحسن معين على تحصيل الأمل، والاصطبار أيمن قرين لتسهيل العمل، ورب عجل أهب الاجل، ولا يخلو ابتسار عن انهيار، ولا تحلو أوطار مع أخطار، ولا يعلو منار فى مغار، واذا دانت نيه، أو هانت ثنيه، أو حانت أمنيه، لمن غادر التبصر، وبادر التهور، فطال طلبا، ونال أربا، فانما يكون من قل النوادر، ولا يهون لكل مخاطر، فاللبيب الحازم من تانى فيما تمنى، والاديب العالم من لا يتعنى الا لما به يتقنى، اذ ليس الاستكثار مظنة للرفاهة،

لقارع بابهم، فجئت الفارياق وهو مكب على النسخ، وفي طلعته مبادىء المسخ. فقد رأيت عينيه غائرتين، ويديه ذاويتين، وعظم خديه ناتئاً، وجلده كالظل زائلاً، حتى رثيت لحالته، وكدت أمسك عن الكلام اشفاقاً من بطالته، لكنه لما رآني قام الي، ثم أقبل علي، وقال: هل من خدمة اقتضت سعي، أو نجوى أوجبت دعي؟ فقلت: قد أقدمني كذا وكذا، فاكفني ذل السؤال كفيت الأذى. فأخذ رقعة من تحت أسمال، وكتب فيها في الحال

أتيتني مستفتيا في أمر * يعلمه كل امرئ ذي حجر
الخير ان قابلته بالشر * في العمر كان قطرة من بحر
ألا ترى الأجرب كيف تسرى * عدواه في جميع أهل المصر؟
وليس من ذي صحة ويسر * عدوى لمن داناه طول العمر
والطفل ان يثغركم من ضر * يلقى ويلقى عنده في قبر
وعند إشعار ونبت ظفر * ليس له من لذة وسر
وكل عضو لقبول الكسر * أقرب منه لقبول الجبر
وما فساده سريعا يزرى * كالعين لن تصلحه في دهر
ونعى طفل لأبيه يفرى * فؤاده وكل عظم يبرى
وليس في مولده من بشر * ند لحزن موته الأضر
وما تكون لذة عن فكر * اذا تحققت ولا عن ذكر
وانما ذا هوس قد يجرى * في خاطر المغفل المغتر
فهل تصور الشقاء يبرى * ذا مرض أمرض منذ شهر؟
وهل لمن يبرد وقت القر * دفء بتذكار أوان الحر؟
فليس دنيانا لأهل الخير * سوى بلاء دائم وخسر

قد كبر عمامته وكورها ، ووسع جبته وزورها . فقلت افتنى أيها الفاضل الأحذق ، أى القولين عندك أحق وأصدق ؟ فقال : أما اذ جئتنى مستفتيا ، ورمت ان تكون برأيى مستهديا ، وبطريقى مقتديا ، فإنى أقول لك بعد التروى فى هذا المذهب المتحرى : انا معاشر الفقهاء من أهل الكلام ، القائمين بإحكام الاحكام ، وتبيين المتشابه بين الانام ، وان من دأبنا اظهارا للحق ان نسهب فى التعليل ، ونكثر من قال وقيل ، اذ لابد من انتشاء عرف الصواب من الاسهاب ، ومن الاهتداء الى بعض المذاهب ، بفرض المستحيل وجعل المعدوم كالموجود الواجب ، فعندى انه لابد من عد الفاظ القولين ، واحصاء حروف الجدولين ، فما كان منهما أكثر حروفا ، فهو أرجح وأحسن تأليفا ، والله أعلم . ففصلت من عند الفقيه ، كما فصلت من عند صاحبه السفيه ، وقلت انما اللوم على مستفتيه . ثم قصدت شاعراً كنت أعهده يتاهوق ويتشدق ، ويتفصح ويتمدح ، ويتبجح ويترنخ . وقلت له هاك ما تحرز عليه أجرا ، يكسبك بين الناس فخرا ، فأبن لى أى الأمرين أبدع ، وبالحق فاصدع . قال : أما أنا فما لى من خلاق فى الدنيا ولا نصيب ، غير المدح والنسيب ، ففى الاول غبطتى ، وفى الثانى لذتى ، فاصبر على ريثما أطالع ديوانى كله ، وأتصفحه جمله ، فان وجدت المدح فيه أكثر من الغزل ، كان الخير فى الدنيا أقل . فألحقته بصاحبه الفقيه والمعلم ، وقلت كم متكلم مكلم . ثم سرت الى كاتب الامير ، وكان مشهودا له بالتحرى والتحرير ، فأثنيت عليه قبل السؤال مطرئاً ، وقلت لم يكن غيرك فى ذا مجزئا ، فقال ان سعادتى فى الكون هى ان أرضى عن أميرى ويرضى عنى ، وشقاوتى هى ان أغضب منه ويغضب منى ، وقد نسيت كل ما جرى على من الغضب والرضى ، لكثرة المشادّة والمقتضى ، فان صبرت على فى المستأنف شهرا ، لأقيد فى دفترى ما القادم منه حلوا ومرا ، ونفعا وضرا ، أفدتك الجواب فاقبل عذرا ، فصيرته رابع الثلاثة ، وقلت لأستشيرن ذا حداثة ، فان أهل المراتب والمناصب قد ذهبت صدارتهم بألبابهم ، فلم يبق فيهم خير

لا يمكنهم حلها بلسانهم وأفكارهم، ولا بأسنانهم وأظفارهم، غير ان عبارة المصنف كانت من العلم والحكمة بحيث تخلب عقل الناقد الخبير، وتربك فى تحرى أحد القولين كل نحرير فلما أطلت النظر فيهما وعاد الى كليلا، وأعملت حد النقد ورجع مفلولا، عزمت على ان استجلى هذا الاشكال، من بعض ذوى الدراية والجدال، فقلت فى نفسى: كما ان يدى نالت أدنى الاسفار، كذلك يكون مراوحى عليه أدنى الجار، وكان يسكن بالقرب منى مطران يطرى ءقدمه على حليته، ويعظمون فضله وأدبه على طول لحيته، فقصدته ضحوة النهار، بادى الاستبشار، فرأيته ذا بكلة تروق، وبزة تشوق، فعرضت عليه الجدولين، وقلت افتنى فى هذه القضية، ولك الاجر من رب البرية، فنظر فيهما ثم حرك رأسه، وجعل يرمش ثم يشكو نعاسه، وقال لى ماترجمته: اذ لم يكن ممن تسمو الى السجع همته، ما لحنت مغزاهما، ولادريت فحواهما، ولو كانا بعبارة ركيكة، كان ذلك على أسهل من الجلوس على هذه الاريكة، فقلت: قد أخره فى العلم والثقف، تقدمه فى الصف، ونقص من عقله وفهمه، ما زاد فى لحيته وكمه، فلا أستعلمن بعده أكثر الناس حمقاً وهوجا، وما ذلك الا معلم الصبيان الهجا، وكان فى البلد من اتصف بهذه الصفة، وهو مع ذلك ذو كبر وعجرفة، فقصدت محله، والقيت عليه المسئلة، فاذا به قام يصفق بيديه، ويرأرئ بعينيه، ويقول لقد سقطت على الخبير، واهتديت برأى بصير، ان شئت ان تعرف أى القولين أرجح، وأصدق وأصح، فزن الجدولين دون جلد الكتاب فى ميزان، فالراجح منهما فهو الراجح ما اختلف فى ذا اثنان، فقمت من عنده غضبان نادما، ولعنت الارق الذى كان السبب فى ان أكون لمعلمى الصبيان مكالما بعد ان قرأت فى غير كتاب، وسمعت من ذوى الالباب، انهم استخف خلق الله عقلا، وأكثرهم جهلا، وأبعدهم عن الفهم، وأسفههم الى الوهم، فسرت فى ذلك اليوم، الى فقيه من جملة القوم،

فتح فمي تثاؤب طولا ولا عرضا . وكان يخيل لي ان أهل الارض كلهم رقود وأنا وحدي من بينهم أرق، وان جميع جيراني في سكون وأنا دونهم قلق. فقمت الى الشراب فحسوت منه حسوة، فلم تكن الا غفوة، كأنما كانت هفوة، فأفقت في أسوأ حال، وشر بلبال، والهموم قد انثالت علي من كل جانب، والافكار متطايرة على كل متارب ومجانب، فكان يخطر ببالي كل ممكن ومحال، ويعاودني ما كنت فكرت فيه من الاحوال، مرة منذ أحوال، فلما علمت ان النوم قد ندّ عني وان تناومت، وانه لا بد من ترقب الفجر إن أذعنت أو قاومت، مددت يدي الى كتاب أطالع فيه ، وقلت ان لم يمتّني فينبهني ببعض معانيه. فتناولت أقرب ما وصلت اليه يدي، وأنا غير مؤثر أحد الكتب على غيره في خلدي، واذا به كتاب موازنة الحالتين، وموازنة الآلتين، للشيخ الامام العالم العامل، الفاضل الكامل، أبي رشد نهية بن حزم، المشهور بالبلاغة في النثر والنظم، وهو كتاب لم يسبقه اليه أحد من المؤلفين، ولم يجاره فيه كاتب من المجلين، فقد وازن فيه بين حالتي بؤس المرء ونعيمه، وروحه وهمومه، ومنافعه ومضاره، وأحزانه ومساره، منذ كونه طفلا ، الى ان يصير كهلا، ثم شيخا قحلا ، وقد جعل ذلك في جدولين متقابلين ، وأسلو بين متفاضلين، الا انه لما كان الشيخ قدس الله سره، ورفع في أعلى عليين مقامه وقدره، على ما يظهر لي ذا عيشة راضية، وسعادة وافية، وهمة ماضية، رجح طرف اللذات على غيرها واستقل شر الحياة بالنسبة الى خيرها، حتى انه زعم ان اللذة تكون عن الفعل والتصور معاً بخلاف الالم فان الفكر لا يقع منه موقعاً، وانه كان اذا امتثل خود أيداعبها وتداعبه، هزته نشوة طرب مال بها سريره ومركبه، وكاكله ومنكبه، بيد اني ارتبت في كلامه في هذا المحل ، وقلت سبحان الله لا بد لكل مؤلف من هفوة وان جل ، وذلك اني لما تصورت الشخص المتهوم، والناعس والمتثائب وأنا متناوم، لم يغنني التصور عن الفعل نقيرا ، ولا وجدت فيه لذة لا قليلا ولا كثيرا، على اني أذهب الى ما ذهب اليه بعض المجانين، من ان لذة النوم لا تكون قبله ولا معه ولا بعده للنائمين، وهي عقدة للطبائعيين ،

الدولة تر زأمنهم وتضحك اليهم فى وقت واحد، فيطفقون هم أيضاً بعدها يضحكون ويغنون متهكمين على سادأتهم، ثم مابال المصريين الذين قيل فيهم انهم أشدر زانة من البار يسيين صار وا الان الى ماتراه فيهم من التوانى والاحجام بعد ان تغلبوا على الدنيا تحت ملكهم سيزستريس على مافى التواريخ؟ ولاى سبب لاتجد الآن فى أثيننا مثل ارسطو وانا كر ينوس وغيرهما؟ وكيف طرأعلى رومية بدل فلاسفتها نحو شيشرو وكاطو ولاوى، ان صار أهلها يخافون من أن يفصحوا عما فى خواطرهم، وصارت سعادتهم انما هى التحديق فى زفاف الصور، وفى رخص سعر الزيت؟ و بعكس هذه الحال من الترقى الى التدلى حال الانكليز فان شيشرو والمشار اليه كان يتهكم عليهم وكثيرا ما كان يسأل أخاه كو بنيستوس عن وجود فلاسفة بينهم، اذ كان يظن ذلك محالا، فلم يكن يخطر بباله انه ينبغ من هذه البلاد مهندسون يفوت كلامهم فهمه؟ مع ان هواها لم يحل عن حالته، وجولندرة الان أدكن مما كان سابقا؟ نعم ان للهواء تأثيرا إلا ان تأثير الحكومة أشد، وأكثر من ذلك تأثير الحكومة والديانة معا، وكل شىء يتغير مع تمادى الزمان، فلعل أهل أمير يكا يأتون حينا من الاحيان الى أوربا ليعلموا الافرنج العلوم والصنائع .

مقامة فى سعادة المرء وشقائه

حدس الهارس بن هشام قال: أرقت فى ليلة خافية الكوكب، بادية الهيدب، طويلة الذنب، ملأى من الكرب، الى الكَرَب، فجعلتُ أنام على ظهرى مرة، وعلى جنبى أخرى، وأتصور شخصاً ناعساً أمامى يتثاءب وآخر يخر نخرا، وآخر يتهوم سكرا، فان التصور فيما قالوا يبعث على فعل ماترغب النفس فيه، وينشط الى ماتصبو اليه وتشتهيه، ومع ذلك فما اكتحلت غمضا، ولا

الجزائر أن يشيع ما أشاعه من اكراه اليهود على السجود مع ان ذلك مغاير للمحامد التى تحرص عليها الدولة ، فاذا كان مثل هـذا الامر يحدث فى أيام دولة الامبراطور فما ظنك بغيرها

الهواء

قال بعض العلماء : لا يخفى ان للشمس والهواء تأثيرا فى كل المخلوقات من الانسان الى الفقع ، قال : و زعم العلامة فونتانل ان سكان البلاد الزائدة الحر والبرد لا يكونون أهلا للعلوم ، فان العلوم الى هذا الآن لم تتعد مصر وموريتانيا من البلاد الحارة ، و بلاد السويد من الاقاليم الباردة واهل بقاها فى جبل الاطلس «فى أفريقية» و فى بحر البلطيق ليس عن مجرد عرض واتفاق ، ولا ندرى ان كانت هذه الجهات ليست حدود الها أو انه يصح لنا أن نترجى انه ينبغ مؤلفون ماهرون من أهل ليلاند أو من بلاد السودان . وقال المؤلف شردان فيما وصف به بلاد الفرس : ان حرارة القطر توهن كلا من البدن والعقل وتخمد نار المخيلة التى لا بد منها فى اختراع المعانى ، فأهل هذه البلاد لا يمكن لهم المداومة على الدرس والاجتهاد فى المطالعة مما هو لازم لتأليف الكتب العظيمة أو لانشاء الصناعات الجليلة . قال : فكأن هـذا القائل لم يفكر فى ان الشيخ سعدى ولقمان كانا من الفرس ، أوان ارشميديس كان من صقلية حيث الحر يزيد على حر بلاد الفرس بثلاثة ارباع ، وقد نسى أيضاً ان فيثاغورس هو الذى علم البراهمة علم المساحة وقال بودان : ان تأثير الهواء أصل لكل من الدولة والديانة وكذا قال ديدوروس الصقلى من قبله . ولكن لنا ان نسال هؤلاء الذين يظنون ان تأثير الهواء هو أصل كل شىء ، ما بال القيصر يوليانوس كان يقول انما يعجبنى من أهل باريس رزانة اخلاقهم وشدة طباعهم ? والحال انهم مع عدم تغير هوائهم بشىء صاروا كالاطفال اللاعبين فى كون

هذه اللفظة عندهم الى أقصى مدى الشهرة وجريها على الالسنة والاقلام ، لم يزل عليها ظلام الالتباس والابهام ، فان كل صاحب صنعة يظن ان وجود صنعته بخصوصها هو المراد من التمدن ، فاذا كان أحد المصورين مثلا يذهب الى بلاد ولا يجد فيها من أهل حرفته، يحكم بأن تلك البلاد غير متمدنة، وكذا المغنى والرقاص ونحوهما. وضد التمدن عندهم هو الحالة الهمجية ، وهى الخالية عن الترتيب والنظام، فالحالة الاولى عندهم هى التى اتصف بها أهل أوربا جميعا، والحالة الثانية هى التى يحودون بها على غيرهم، الا انى أتعجب كيف يكون اجبار الناس مثلا على نوع معلوم من اللباس أو الاكل من التمدن ؟ وكيف يكون منه أيضاً قهرهم على أن يفعلوا مالا تطاوعهم نيتهم عليه، فسيمر بك من غرائب هذه الجوائب ما كلف به المسلمون واليهود فى الجزائر وما أجبر عليه أهل وارسو من اللباس، فالامر الاول ينكره كل من الفرنسيس والانكليز ويحكمون بانه خارج عن التمدن، والامر الثانى ينكره الانكليز ويجعلونه من قبيل الشطط المخالف للتمدن . وفى الجملة فانا نرى فى وجه هذا القرن الذى تزين بكثير من العلوم والاختراعات ما يشف عن الحالة الخلقية أعنى الهمجية فى تلك البلاد المتمدنة ولاسيما ما يحدث فيها من القتل والاغتيال والسلب والاختطاف والفتن والتغاوى . وأعجب من ذلك خلو هذه البلاد بحمده تعالى عن مثل هذه المعايب والمنكرات مع كونها محلاة عن مورد التمدن فى زعمهم، فاما أن يقال ان التمدن صار سببا لهذه الشرور والتعدى ، أو أن هذه الشرور مغايرة للتمدن ، فمن القول الاول الذى يطلقونه علينا أعنى عدم التمدن، ينتج انا خالون عن الشرور، ومن القول الثانى، ينتج انا متصفون بالتمدن، ومع ان علينا رقباء يتربصون بنا سوءا حتى يشيعوه عنا، ومع كون هذه المدينة المحروسة قد جمعت فأوعت من جميع أجيال الارض فليس يشيع عنا شىء يوجب اللوم ، على انه حدث من سوء التدبير أو التفريط فى الامور ، ولا أدرى كيف صح لكاتب جرنال الاخبار مع كونه جرنالا للدولة فى

فلا تجد عنده كتابا . ولو ان مشتريا شاء أن يشتري شيئا من تاجر مسلم لوجد سعره أرخص من بضاعة النصراني بربع الثمن ، ولكن وجود هذه الشراهة انما هو في الغالب عند النصارى الغرباء ، فأما القبط فانهم أشبه بالمسلمين ؛ وقل من تعاطى المتجر منهم

أما دولة مصر اذذاك فانها كانت في الذروة العليا من الأبهة والعز والفخر والكرم والجد ، فكان للمتسمين بخدمتها مراتب عظيم من المال والكسى والشحن مما لم يعهد في دولة غيرها ، وكان واليها يولي المراتب العليـة وسمات الشرف السنية لكل من المسلمين والنصارى ماعدا اليهود ، خلافا لدولة تونس فان شرفها عم الجميع ، ومع عظم ما كان يكسبه التجار وأصحاب الحرف ومايناله أهل الوظائف من الرزق العميم فكانت الاسعار بمصر رخيصة جدا ، فلهذا كنت ترى الناس قضريهم وعميهم مقبلين على الشغل واللهو معا ، فالبساتين غاصة بأهل الخلاعة والقصوف ، ومحال القهوة مجمع للاحباب ، والاعراس مسموع فيها الغناء وآلات الطرب من كل طرف ، والرجال يخطرون بالخز والديباج ، والنساء ينوءون بما عليهن من الحلى ، والخيل والبغال والحمير مسرجة ومكسوة بالحرير المزركش . . .

التمدن

لا يخفى ان لفظة التمدن مأخوذة من المدينة ، والمدينة مشتقة من مدن بمعنى أقام على القول الاصح ، وان كان صاحب القاموس قد اضطرب فيها فجعلها مرة من دان ومرة من مدن ، وكيف كان فان مرادف التمدن في اللغات الافرنجية من معنى المدينة وهو عندهم في الاظهر عبارة عن استجماع كل ما يلزم لاهل المدينة من اللوازم البدنية والعقلية فقولهم مثلا هذا رجل متمدن ينزل منزلة قولنا متأدب كيس خبير وما أشبه ذلك ، ومع بلوغ

وهى حسن الخلق، ورقة الطبع، أمر مركوز فى جميع أهل مصر، فان لعامتهم أيضاً مخالفة ومجاملة، وكلهم فصيح اللهجة، بيّن الكلام، سريع الجواب، حلو المفاكهة والمطارحة، وأكثرهم يميل الى هذا النوع الذى يسمونه « الانتاط » وكأنه المجارزة، وهى مفاكهة تشبه السباب، وهو أشبه بالاحاجى ؛ فان من لم يكن قد تدرب فيه لا يمكنه أن يفهم منه شيئاً وان يكن شاعرا . وكلهم يحب السماع واللهو والخلاعة، وغناؤهم أشجى ما يكون، فلا يمكن لمن ألهه أن يطرب بغيره، وكذلك آلاتهم فانها تكاد تنطق عن العازف بها، وأعظمها عندهم هو العود وقلّ اعتناؤهم بالناى، ولهم فى ضرب العود طرق وفنون تكاد تكون من المغيبات، غير أنى أذم من غنائهم شيئاً واحداً، وهو تكرير لفظة واحدة من بيت أوموّال مرارا متعددة حتى يفقد السامع لذة معنى الكلام، ولكن أكثر ما يكون ذلك من المتطفلين على الفن، وبعكس ذلك طريقة أهل تونس فان غناءهم أشبه بالترتيل، وهم يزعمون انها كانت طريقة العرب فى الاندلس

ومما ينبغى أن يذكر هنا : ان النصارى المولودين فى بلاد الاسلام الناهجين منهج المسلمين فى العادات والاخلاق، هم أبدا دونهم فى الفصاحة والادب والجمال والكياسة والظرافة والنظافة، الا أنهم أنشط منهم على السفر والتجارة والصنائع، وأكثر اقداما وجدا على تعاطى الاعمال الشاقة، وذلك ان المسلمين أهل قناعة وزهد، وفى النصارى شره عظيم الى اتخاذ الديار الرحيبة، وقنية الخيل النجيبة، والجواهر النفيسة، والمتاع الفاخر، لا حدلها، فاذا دخلت دار نصرانى من المتمولين بمصر رأيت عنده عدة خوادم وخادمين ونحو عشرين قصبة للتبغ من أغلى ما يكون، وقدر نصفها من الاراكيل الثمينه، وثلاث غرفات مفروشات بأحسن ما يكون من القماش، وآنية فضة للطعام والشراب والرائحة، واسرة عالية وطيئة، وثيابا فاخرة وغير ذلك، ومع هذا

مادة حياته فهلك فلا بد من نجفه (١) . فمن ثم اصطلحوا على طريقة لتوقيف جريان العقل في ميدان الدماغ حيناً من الاحيان ليتوفر لهم في غيره، وذلك بشرب شيء من الحشيش أو بمضغه أو بالنظر اليه أو بذكر اسمه ، فحين يتعاطونه تغيب عنهم الهموم ويحضر السرور ، وتولى الاحزان ، ويرقص المكان ، فمن يرهم على هذه الحالة ود لو يكتتب في زمرتهم ، ويدخل في دائرتهم وان يكن قاضي القضاة

***

قد كنت أظن أني اذا تركت الفارياق وأخذت في وصف مصر أستريح فاذا هي هو أو إياها ، فينبغي لي الآن ان أمكث في ظل هذا الفصل الوجيز قليلا لانفض عني غبار التعب ثم أقوم ان شاء الله تعالى

***

قد قمت حامداً لله شاكراً . فأين القلم والدواة حتى أصف هذه المدينة السعيدة الجديرة بالمدح من كل من رآها ، لانها بلد الخير ، ومعدن الفضل والكرم ، أهلها ذوو لطف وأدب ، واحسان الى الغريب ، وفي كلامهم من الرقة ما يغني الحزين عن التطريب ، اذا حيوك فقد أحيوك ، واذا سلموا عليك فقد سلموك ، وان زاروك زادوك شوقا الى رؤيتهم ، وان زرتهم فسحوا لك صدورهم فضلا عن مجالسهم ، أما علماؤها فان مدحهم قد انتشر في الآفاق ، وفات فخرهم من سواهم وفاق ، بهم من لين الجانب ورقة الطبع ، وخفض الجناح وبشاشة الوجه، ما لا يمكن المبالغة في اطرائه . ولكل نوع من الناس عندهم اكرام يليق به، سواء كان من النصارى أو من غيرهم، وربما خاطبوهم بقولهم «ياسيدى» ولا يستنكفون من زيارتهم ومخالطتهم ومعاشرتهم خلافا لعادة المسلمين في الديار الشامية ، وبذلك لهم الفضل على غيرهم . وكأن هذه المزية

(١) منعه

خيفة أن يعثروا بشىء فى أسواق المدينة فيسقطوا فى هوة أو جب فتنكسر أرجلهم ، أو تندق أعناقهم ، ومن وجد ليلا يطوف من غير ذوى البرانيط وليس بيده فانوس ، غُلّت رجله الى يده ، ويده الى عنقه ، وعنقه الى حبل ، والحبل الى وتد ، والوتد الى حائط ، والحائط الى ناكر ونكير وتصليه سعير

ومن ذلك أن لبنى حنّا فيها أسلوبا فى الكتابة لا يعرفه أحد الاهم ، ولهم حروف كحروفنا هذه الا انها لا تقرأ الا اذا أدخلها الانسان فى عينه ، كذلك رأيتهم يفعلون . ومنها انه اذا مات منهم أحد فلا يزال أهل الميت يندبونه وينوحون عليه حتى يؤوب اليهم وطبه ملآن من الطرّيخ (١)

ومن خصائصها أيضا أن البغاث بها يستنسر ، والذباب مستصقر ، والناقة تستبعر والجحش يستمهر ، والهر يستنمر ، بشرط ان تكون هذه الحيوانات مجلوبة اليها من بلاد بعيدة .

ومن ذلك أن كثيرا من أهلها يرون ان كثرة الافكار فى الرأس ، يكثر عنها الهموم والاكدار أو بالعكس ، وان العقل الطويل يتناول البعيد من الامور ، كما ان الرجل الطويل يتناول البعيد من الثمر وغيره ، وان تلك الكثرة سبب فى الاقلال ، وهذا الطول موجب لقصر الآجال ، وأوردوا على ذلك براهين سديدة . قالوا : ان العقل فى الرأس كالنور فى الفتيلة ، فما دام النور مُوقدا فلابد وان تفقد الفتيلة ، ولا يمكن إبقاؤها الا باطفاء النور . أو كالماء فى الوادى ، فاذا دام الماء جاريا فلابد وان ينضب أو ينصب فى البحر فمتى حقن بقى . أو كالفلوس فى الكيس ، فما دام المفلس أى صاحب الفلوس يمد يده الى كيسه وينفق منه فنى ما عنده ، الا ان تربط يده عن الكيس أو يربط الكيس عن يده . أو كالتيس النازى ، فانه اذا دام نزوه نزفت

(١) الطريخ هو سمك صفار مملح ولعله المعروف عندهم « بالملوحة ».

عارية عن ذلك رأسا . . . . ومنها ان العالم عالم ، والاديب أديب ، والفقيه فقيه ، والشاعر شاعر ، والفاسق فاسق ، والفاجر فاجر ، . . . ومن ذلك ان البنات اللائى يُستخدَمن فى الميرى لحمل الآجر والجبس والتراب والطين والحجر والخشب وغير ذلك ، يحملنه على رؤسهن وهن فرحات ، جامحات ، سابحات ، صادحات ، مادحات ، مارحات ، غير آحات ، ولا ترحات ، ولا دالحات ، ولا رازحات ، ولا كالحات ، ولانائحات . ومن كان نصيبها من الآجر نظمت عليه موالا آجريا ، أو من الجبس غنت له أغنية جبسية ، كأنما هن سائرات فى زفاف عروس . . .

ومن ذلك أن البرنيطة فيها تنمى وتعظم ، وتغلظ وتضخم ، وتتسع وتطول ، وتعرض وتعمق ، فاذا رأيتها على رأس لابسها حسبتها شونة « قال الفارياق » وكثيراً ما كنت أتعجب من ذلك وأقول : كيف صح فى الامكان وبدا للعيان ان مثل هذه الرؤس الدميمة ، الضئيلة الذميمة ، الخسيسة اللئيمة ، المهينة المليمة ، المستنكرة المشئومة ، المستقذرة المهوّعة ، المستقبحة المستفظعة ، المستسمجة المستشنعة ، المسترذلة المستبشعة ، تقل هذه البرانيط المكرّمة ، وكيف أنماها هواء مصر وكبرها الى هذا المقدار ، وقد طالما كانت فى بلادها لا تساوى قارورة الفراش ، ولا توازن ناقورة الفرّاش ، وكيف كانت هناك كالترب ، فأصبحت هنا كالتبر . ياهواء مصر ، يانارها ، ياماءها ، ياترابها ، صيّرى طربوشى هذا برنيطة ، وان يكن أحسن منها عند الله والناس وأفضل ، وأجل وأمثل ، وللعين أبهى وأكمل ، وعلى الرأس أطبق ، وبالجسم أليق ، وغير ذلك قرون تتملق لتتلمق ، ويزرق عليها لترزق . « قال » فلم يغن عنى النداء شيأ ، وبقى رأسى مطربشاً ، وطرف دهرى مطرفشاً . . . .

ومن ذلك ان لضابط البلد شفقة زائدة على أهلها تقرب من حد الظلم . وذلك أنه يأمر جميع السالكين فى طرقها ليلا ان يتخذوا لهم فوانيس وان كانت الليلة مقمرة ،

آثار أقلامه

نخب من نثره

وصف مصر

قد وصف مصر كثير من المؤرخين المتقدمين ، ومدحها جم غفير من الشعراء الغابرين ، وها أنا اليوم واصفها ومادحها بما لم يسبقني اليه أحد من العالمين ، فأقول : انها مصرٌ في الامصار ، أو مدينة من المدن ، أو مدرة من المدر ، أو كورة من الكور ، أو قصبة من القصب ، أو بحرة من البُحر ، أو ماهة من الماهات ، أو قرية من القرى ، أو قارية من القوارى ، أو عاصمة من العواصم ، أو صقع من الاصقاع ، أو دار من الديار ، أو بلدة من البلاد ، أو بلد من الابلاد ، أو قطر من الاقطار ، أو شيء من الاشياء . غير ان أهلها يقولون انها مصر الامصار ، ومدينة المدن ، وعاصمة العواصم ، وشيء الاشياء الى آخره . وما أدري فرق ذلك ، وكيف كان فانها مدينة غاصة باللذات السائغة ، متدفقة بالشهوات السابغة ، توافق الحرورين من الرجال خلافا لما قاله عبد اللطيف البغدادي . . . . فترى فيها النساء سمانا كالا ُقط بالسمن على الجوع ، والرجال كالحشف بالشيرج على الشبع . ومن خواصها ان أسواقها لا تشبه رجالها البتة ، فان لاهلها لطافة وظرافة ، وأدبا وكياسة ، وشمائل مرضية ، وأخلاقا زكية ، وأسواقها

ذلك السلطان عبد العزيز، وباي تونس، على انها كانت تصدر أسبوعيا. بلغت من الثقة وبعد الشهرة وعظيم الاعتبار بحيث كانت عمدة أرباب الصحف الاوربية فى الكلام على سياسة الشرق وأحوال العالم الاسلامى. وحتى كانت تتجنى على الباب العالى ولا تحفل بارادته أحيانا. وهى الجريدة الوحيدة التى جاهرت بالدفاع عن الخديو اسماعيل فى دار الخلافة حينما خلع سنة ١٨٧٩ ورثته يوم وفاته ولم تخش سطوة الحكومة العثمانية. ويقال ان السفارة الانجليزية بالاستانة دفعت الى منشئها ألف جنيه انجليزى نظير اذاعة المنشور الذى اصدره الباب العالى باعلان عصيان عرابى باشا سنة ١٨٨٢ وان ذلك كان سببا الفشل عرابى وسقوطه. أفرغ فارس بها مافى كنانته من جهد فى تحريرها بعبارة سهلة لم تكن معهودة فى أقلام كتاب الصحف فى تلك الايام. وجعل للآداب العربية بين أنهارها مكانا فسيحا، وميدانا وسيعا، طالما فتح عليه أبواب المناقشات من أدباء ذلك العصر. ومازالت تصدر الى ان عطلت سنة ١٨٨٤ وقد قام ولده سليم بانتخاب موضوعاتها فى كتاب دعاه «كنز الرغائب» واقع فى سبعة أجزاء وهو مشهور متداول

وله سوى ذلك مؤلفات كثيرة مدرسية وغيرها منها ماهو مطبوع ومنها مالم يطبع. أما ما رأيته مطبوعا منها فهو: غنية الطالب. الباكورة الشهية فى نحو اللغة الانكليزية. السند الراوى فى الصرف الفرنساوى. اللفيف فى كل معنى طريف. النفائس. وأما غير المطبوع فهو: المرآة فى عكس التوراة. كان أوصى أن لا يطبع الا بعد وفاته ويقال انه كان واقعا فى أجزاء كثيرة. ديوان شعره. باقى أجزاء سر الليال. كتاب فى تراجم الرجال

واذا ذكرت هذه الآثار الجليلة فلا بد من ذكر مطبعة الجوائب التى عم نفعها بما أحيته من دارس الكتب العربية وما نشرته بالطبع من مكنوناتها بين أبناء الضاد حتى ملأت المكاتب بعد ان كانت بعيدة المنال

الساق على الساق فى ماهو الفارياق* — كتاب من أجل الكتب وأمتعها، جمع بشر اللهو الى عبوس الجد . وضعه فى طالعة أمر دومستهل نشأته ، فوصف فيه أحواله الخاصة بحركاته وسكناته ، وماعاناه فى عراك أيامه، وذياد لياليه ، سبكه فى قالب المقامات، أوعلى شكل الروايات ، غيران اكثره مرسل، صاغه بلباقة فأدقه وأجله، وأغرب فيه وأطرب، وذهب فى ابداعه كل مذهب ، لم يتبع فيه سابقا، ولن يبلغ شأوه فيه لاحق . طبع فى باريس سنة ١٨٥٥ وهو الآن فى حكم المعدوم

سر الليال فى القلب والابدال — كتاب لغوى جليل يدل اسمه على موضوعه، لم يطبع منه غير جزئه الاول وهو معروف متداول

الجاسوس على القاموس — كتاب ممتع حافل بالفوائد اللغوية وضعه لاستدراك مافات المجد فى قاموسه ورد ماوهم فيه من الالفاظ الى أصولها . وهو مطبوع متداول

منتهى العجب فى خصائص لغة العرب — كتاب كان قد وضعه فى أسرار اللغة وخصائص الحروف ومدلولاتها بمالم يسبق اليه . ذهب فريسة النار التى أصابت منزله بالاستانة ، لوسلم منها وطبع لجاء بنفع عظيم . ترى نموذجا كافيا منه فى أوائل كتاب الساق على الساق أوفى الجزء الاول من كنز الرغائب

الجوائب — هى الجريدة العربية التى سأذكرها مسير الشمس . صدرت بالاستانة العلية منذ خمس وخمسين سنة . لولا ارادة الخديو اسماعيل وأياديه ما كان لها فى عالم الصحافة هذا الاثر المحمود وما كان منشئها الا حلس دار الطباعة وقعيدة ديوان الترجمة فى الاستانة . فقد كان يدفع لصاحبها سنويا من ماله الخاص فضلا عما كانت تدفعه الحكومة المصرية من الاشتراكات مبلغا قدره ٥٠٠ من الجنيهات كما كان يدفع مثل

(*) الفارياق لقب منحوت من اسمه « فارس الشدياق » أخذ من فارس « فار » ومن الشدياق « ياق »

كلماتها، وما وقع لهم من الاغلاط في معانيها ومشتقات ألفاظها، بعالم يعهد في سواه من الانصاف والحرية وبعد النظر، حتى كان ذلك سببا لقيام أنصار القديم عليه، وانشاء الصحف لمدافعته، وتصنيف الكتب لتجريحه . وأما الكتابة فله فيها آيات التجديد، ومعجزات الابتكار، وكان اميالا فيها الى السهولة وسلامة التعبير، منطبعا على الرقة في الفاظه، والدقة في معانيه، والبصر بمواقع الكلم، صعب مراس المناظرة، اذا عن له أمر أحاط باطرافه تبيانا وافصاحا حتى لا يكاد يرى له فيه ثلم أو يلمح له ثغر ينفذ اليه منه . وأما شعره فليس فيه ما في نثره من جمال الإنطباع، وحسن الإختراع، غير أنه كان اذا رام قصدا تناوله غثا وسمينا، يسرك هزله، ولا يروعك جده . فهو في جبهة الطبقة الاولى من كتاب وقته، وفي صدر الثانية من شعراء عصره

مُؤَلَّفَاتُهُ

الواسطة في أحوال مالطه — كتاب وصف فيه هذه الجزيرة وصفا شاملا لم يغادر شيئاً فيها الا أحصاه . وأبان فيه عن أن أصل لغة أهلها العربية شيبت بلهجات الفاتحين ولحون الطارئين

كشف المخبا عن فنون أوربا — فصل فيه سياحته في بلاد الانجليز ومروره بكثير من القرى والبلدان الاوربية، فوصف عادات الانكليز وآدابهم وأخلاقهم واسرار تقدمهم وتاريخ تمدنهم باسلوب عذب، ومنهج سهل . وهو وسابقه مطبوعان معا ومتداولان

شيئاً من السؤال أو الجواب . ولما وقفت على عبارة الامام علي ، و إجابة المجد عليها ،[١] رأيت كلاماً يشبه في فعله بالاذهان حجر المُهَلَّبيّ في رءوس الخوارج ،[٢] فضلا عن أنه خال من فائدة تصلح عقلا ، أو تقوم لسانا ، أو ترهف بيانا ، كما لا يدل على فضل أو يشير الى تفوق ، فما شككت في أنه من الكلام المدخول على الإمام علي كرم الله وجهه وهو ما هو صاحب البلاغة التي تكاد تكون وحياً معجزا ، لنصاعة الفاظه ، وشرف ديباجته ، وسمو معانيه ، على أننا لم نجرب صاحب « سر الليال » في مثل ذلك حتى نحكم عليه بالعجز عن الاتيان بمثل هذه الالفاظ النابية التي رواها صاحب القاموس عن نفسه مدلا بها على غيره لحضور بديهته واستظهاره للغة . كما ان الفيروزابادى لم يعرف الا بقاموسه ، وكم عرف صاحب « الجاسوس » بغير كتاب . نعم قد اعترف صاحب « الساق على الساق » في بعض كتبه بفضل المجد عليه بما أفاده من كتابه . الا أنه قد فاقه علما وتحقيقا بما حصّله مما لم يبلغ المجد علمه . وكم فات الاول ، ما لم يفت الآخر . وهو أول من طرق أبواب معجمات اللغة العربية من المتأخرين واستثاركوا منها وجرد نفسه لنقدها ومناقشة أصحابها الحساب على ما وهموا فيه من

(١) روى صاحب القاموس عن نفسه قال : كنت ببلاد الروم فسئلت عن معني قول الامام علي كرم الله وجهه لكاتبه « ألصق روانفك بالجبوب ، وخذ المزبر بشناترك ، واجعل حندورتيك الى قيهلي ، حتي لا أنغي نغية الا وعيتها في حماطه جلجلانك » فأجبت على الفور بقولي « الزق غضرتك بالصلة ، وخذ المسطر بأباخسك ، واجعل حجمتيك الي أثعباني ، حتى لا أنبس نبسة الا وعيتها في لمظة رباطك » انتهت وتعريب ذلك : اقعد أيها الكاتب متمكنا ، وخذ القلم بأناملك ، واصغ لما سأمليه عليك ، وعه في سويداء فؤادك ، حتي لا يفلت منه حرف

(٢) في يوم من ايام الخوارج حدث رجل من موالى المهلب قال : لقد صرعت يومئذ بحجر واحد ثلاثة ، رميت به رجلا فأصبت أصل أذنه فصرعته ، ثم أخذت الحجر فضربت به آخر على هامته فصرعته ، ثم صرعت به ثالثا . وقال رجل من الخوارج

أتانا بأحجار ليقتلنا بها ☆ وهل تقتل الابطال ويحك بالحجر

نسخة . وفى سنة (١٨٨٦) وفـد على مصر فى عهد عزيزها الخديو السابق توفيق باشا فنال من لدنه كل رعاية واكرام ، واجتمع به نفر من أفاضـل الادباء وأرباب الصحف وغـيرهم فبهرهم منه على شيخوخته وانحنائه تحت أثقال السنين واعباء الايام — حضور ذهنه وتوقد ذكائه ، وحلاوة سمره ، ورقة حاشيته ، ورشيق عبارته ، ثم آب الى الاستانة فتوفى بها سنة (١٨٨٧ م) وكان لموته دوى هائل رددت صـداه صحف الاخبار فى الشرق والغرب ، ورثاه الـكتاب والشعراء ، وأبنه العلماء والادباء ، ثم نقلت جثته عملا بوصيته الى سوريا حيث ووريت بسفح لبنان رحمه الله

مميزاته

اذا كان أحمد فارس سوريا فى مولده ومنشئه ومثوى رفاته ، فهو مصرى فى أدبه وفضله ، فى مجده ونبله ، فى شهرته ونباهتـه ، فى نبوغه وعبقريته ، فى ذوقه ورقته ، قد جمع الفضل من أطرافه ، وملك فى أكنافـه ، همة السورى ومثابرته ، وذكاء المصري وفطنته . إمام فى فهم دقائق اللغـة العربية وفقه أسرارها ، واكتناه مرامى ألفاظها ، وأدراك معانيها بما لم يعرف فى أحـد غيره اللهم الا أن يكون الجاحظ ومن ناصاه فى مذهبه . سمرت منذ أعوام وجماعة من الادباء ليلة من ليالى الدهر ، وفيهم أديب العصر حفنى بك ناصف فذكرت الشيخ أحمـد فارس مثنيا على علمه وأدبه ، مفضلا إياه على صاحب القاموس . فقال أديبنا الـكبير : لـكنه لا يستطيع أن يجيب سائله ارتجالا كما أجاب الفـيروزابادى من سأله عن كلام للامام على . ولم يروا لنا

الوقائع فكان ينشئ فيها الفصول الرائقة بأسلوب مستقل عما ألفه كتاب ذلك العصر، ثم سافر الى جزيرة مالطه (١٨٣٤) بدعوة الاميركان ليعلم فى مدارسهم فالتحق بها وأخذ يعلم و يصنف و يصحح ما يطبع فى مطبعتها من الكتب والمترجمات الى ان طلبته جمعية ترجمة التوراة فى لوندرة ليساعد فى تعريبها و يتعهدها بالضبط والتنقيح فشخص الى أوروبا (١٨٤٨) وأقام بها مدة تمكن أثناءها من درس أحوال الأمة الانكليزية والوقوف على طبائعها ، ثم سافر الى باريس بعد ان حصل على حماية بريطانيا العظمى

وفى إبان وجوده فى باريس زارها باى تونس أحمد باشا و بسط يده لفقراء الفرنسيس ومعوزيهم بجزيل العطايا ، ولما آب الى تونس بعث اليه صاحب الترجمة بقصيدة عربية حازت اعجاب الباى فأرسل يستقدمه وأمر باعداد باخرة حربية لحضوره عليها ، فلما مثل بين يديه أكرم مثواه، وأفاض عليه سجال نعمه وعطاياه ، ثم وقعت بينه و بين شيخ الاسلام بالديار التونسية مجادلات فى العقائد الدينية أدت الى اعتناقه الدين الحنيف ودعى نفسه «أحمد فارس» وتكنى «بأبى العباس» ولبث فى حاشية الباى الى أن شبت نار الحرب بين الدولة العلية والروسيا سنة (١٢٧٠ هـ ١٨٥٥ م) فنظم فيها قصيدة و بعث بها الى الباب العالى فنالت رضا السلطان عبد المجيد فأمر باستدعائه الى الاستانة فلما حضرها الحق بديوان الترجمة وعهد اليه بالتصحيح فى دار الطباعة العامرة

ولما كانت سنة (١٢٧٧ هـ ١٨٦٢ م) كان الخديو اسماعيل باشا رحمه الله فى الاستانة العلية فاستزاره وأثنى عليه وأعجب به وقال له ما معناه «أنى أجل العلم والفضل فى شخصك» ثم نفحه بـ ٥٠٠ من الجنيهات و يقال انه هو الذى أشار عليه بانشاء جريدة «الجوائب» فقام بانشائها خير قيام واشتركت الحكومة المصرية منها فى الفى

الشيخ احمد فارس

ترجمة

هو فارس بن يوسف بن منصور الملقب بالشدياق ولد بقرية عشقوت من أعمال لبنان سنة (١٢١٩هـ ١٨٠٤ م) من أسرة مجيدة من أسر سوريا المسيحية . ثم انتقل به والده الى الحدث بلبنان فنشأ فيها بادية عليه سيماء النجابة فأدخل المكتب فتعلم مبادئ القراءة والكتابة ، وشدا شيأ من النحو واللغة على أخيه أسعد ، ثم أخذ فى مطالعة ماوصل اليه من الكتب العربية فاستنارت قريحته ، وذكت طبيعته . ولما مات والده طلب العيش من نسخ الكتب تارة ، ومن الاتجار فى القرى تارة أخرى ، غير انه لم يكن ذا حظ فى الكسب من التجارة ، وكان على جانب من حسن الخط . فظل يعانى غصص الحياة الى أن تمت مصائبه بوفاة أخيه أسعد صبرا فى سجن أعدائه المارونيين لتركه نحلتهم وانتحاله المذهب الانجيلى . فجاهر فارس بسوء فعلتهم وأخذ يندد بهم فخشوا عضب لسانه ، فاقتفوا أثره طلبا للنكال به ، فالتجا الى المرسلين الامير كان فأجاروه و بعثوا به الى مصر ليعلم فى مدارسهم بها فجاء القاهرة فى عهد مصلح مصر الكبير محمد على باشا . ولما ألقى بها عصاه تعرف بالفاضل نصر الله الطرابلسى واتصلت صحبته بالشيخ محمد شهاب الدين محرر الوقائع المصرية فلازمه وقرأ عليه طائفة من كتب اللغة والادب مع شروحها وحواشيها فتخرج عليه أحسن تخريج ، ثم أفسح له فى صدر

وحملته من نار شوقي اليهم * ولاعج أشجان الفراق حمولا
فمن حملها يعيي النسيم لانه * يهب بهاتيك الطلول عليلا

حساد الفضلاء

واذا الفتى بلغ السماك بفضله * كانت كاعداد النجوم عداه
و رموه عن حسد بكل كريهة * لكنهم لا ينقصون علاه

الشوق الى الأوطان

أهيم بآثار العراق وذكره * وتغدو عيوني من مسرتها عبرى
وألثم اخفافا وطئن ترابه * وأكحل أجفانا بتربته العطرى
واسهر ارعى فى الدياجي كواكبا * تمر اذا سارت على ساكنى الزورا
وانشق ريح الشرق عند هبوبها * أداوى بها يامى مهجتى الحرا

دواء الحب

لقد لامنى الاحباب جهلا وعنفوا * غداة رأوا جسمى تقاسمه الضنى
وقالوا عقاقير لديك كثيرة * فهلا باحداهن داويت ذا العنا
فقلت وغير اللطف لم يبق من دوا * «بكل تداوينا فلم يشف ما بنا»(*)

(*) رأيت أديب اليسوعيين الفاضل الاب لويس شيخو محرر مجلة المشرق ينحل الآلوسى أبياتا هى

تتحير الشعراء ان سمعوا به * فى حسن صنعته وفي تأليفه
فكأنه فى قربه من فهمهم * ونكولهم فى العجز عن ترصيفه
شجر بدا للعين حسن نباته * ونأى عن الايدى جنى مقطوفه

مع أن من له أقل اطلاع على كتب الادب يعلم أن هذه الابيات هى (للناشى) الشاعر المعروف وتمامها

واذا قرنت أبيه بمطيعه * وقرنته بغريبه وظريفه
ألفيت معناه يطابق لفظه * والنظم منه جليله بلطيفه

عرقا أسود أنتن مما تمجه أفواههم من البصاق ، فما رؤية أولئك إلا سقام، وما دخول حمامهم فيه الا حمام ؛ ثم ان هذا الذى قلته انما هو بالنسبة الى اللذائذ النفسية ، والشهوات الطبيعية البشرية ، والا فالشريعة المحمدية والغيرة العربية تأبيان كون الدلاك امرد، يتمايل بذوائبه كالغصن اذا تأود ، جسده ألين مسا من الزبد ، ورضابه ولم أذقه ألذ مصا من الشهد ، مع أوصاف يمل القلم من خندريس حلاونها ، ويتلجلج لسانه فلا يقدر الا ان ساعده البارى على تلاوتها ، وعبارات تلتقط بلا اذن السمع حبات القلوب ، واشارات تدخل على الصالح بلا رضى الطبع حيات الذنوب ، نعم لم يحكم عقل ولا نقل بالاتفاق ، انه ينبغى ان يكون الدلاك كاكثر دلاكى العراق ، فالانصاف ان ذلك مما لا يتحمله البشر ، اللهم الا ان يكون طبعه الشريف قد قد من حجر، وكان وجه اختيار بعض الناس ذاك ، ان الكيس ربما لا يكون خشنا فتقوم مقامه لخشونتها كف الدلاك ، أو ربما لا يحضر عند الدلك بالصابون الليف ، فيقوم مقامه ذقن ذلك الدلاك الكثيف . . . . وتفصيل الكلام فيما يلزم داخل الحمام قد نظفه فى كتبهم من كل درن الفقهاء الاعلام ، فأتزر بمئزر ما يلزمك منه ، ولا أظنك فى غنى عنه

نبذ من شعره

الماء رسول الحب

ولم تزل العشاق تتخذ الهوا * رسولا بابلاغ السلام خليلا
وانى اتخذت الماء يبلغ جيرتى * إذا ماجرى عنى السلام جزيلا

انهـا لا تريد لامس ، لم أر مثلهم فى حمامات دار الخـلافة ، مع ان دلا كيها قد ارتدوا بالحسن وائتزروا بالظرافة ، فهوى أحدهم الىّ وأخذ بيده بيمنى يدىّ

فسرت أسرت طوتيه فغورت * فى الخصر منه وأنجدت فى نجده

فاقشعرت جلدتى ، وأعظمت ذلك ديانتى وغيرتى ، وجعلت أسال الله تعالى العصمة ، وأصعد النظر وأصوبه فى تصحيح تحريم النظر الى المرد ، كما يحكى عن بعض الأئمة ؛ مع أنه والحمد لله تعالى لا يزدهينى حسن أمرد ، ولا يستميلنى بتمايله قوام أملد ؛ قد حبب لى نحو ما حبب لجدى رسول الله ؛ النساء والطيب ، وجعلت قرة فى الصلاة ، فلذا ترانى كثيرا ما أترحم على الشاعر الامجد ، عصيرنا الشيخ صالح التميمى حيث أنشد

سلوا عن مذهب الولدان غيرى * وعن دين العذارى فاسـألونى

وأستظرف قول بعض الظرفاء من رجال سويداء الادباء

من قال بالمرد فانى امرؤ * الى النسا ميلى ذوات الجمـال

مافى سواد القلب الا النسا * ما حيلتى مافى السويدا رجال

لـكننى شاهدت ما كاد يحل والعياذ بالله تعالى عصام العصمة عما لم يحله دليل العقل والسمع ، وقد رأيت الجائين الى الحمـام كلهم يكرمون الخادم على كيسه ، وهو قاتله الله تعالى يخطف العقول بابتسامه ولا يروع أحدا بتعبيسه ، وفى عينيه ذبول تعلق بالقلوب لها ذبال ، ولعمرى انه يخيله وقد رشح عرقا من حب ، شجرة من فضة نقية حملها اللؤلؤ الرطب ، الى محاسن بلغت فى الحسن الثريا ، وشمائل تـكاد تنشق من حـلاوته مرارة الحميا ، يصحبها غنج ألفاظ ، أخلب للقلوب من غمزات الالحاظ ، وحركات أطراف اجلب للبلاء من لين اعطاف ، فهو من غير تطويل ، ممن يهدى الى الضلال ويضـل عن سواء السبيل ، فأين هـذا من الدلاكين فى حمامات العراق ، الذين تمتطر لحاهم البيض

نساء الاعراب ، انهن يبرزن الى الازقة بمجرد نقاب ، الا انه ألطف من شمائلهن ، وادعى للصبوة بهن من تمايلهن ، فكأنه نسيم همّ أن يتجسد ، فعارضه توقد وجنة الخد ، وربما يقول ظمآن النظر اذا أتى منهل مياه خدودهن وورد ، الله أكبر كيف نسج الريح على الماء زرد ، وربما ينشد ، اذا ذاق نظره خمر خدها المتورد

رق الزجاج وراقت الخمر * فتشابها وتشاكل الامر

فكأنما خمر ولا قدح * وكأنما قدح ولا خمر

ومعظمهن حرائر ، وان لم يحتجبن عن النواظر ، فعدم الاحتجاب عادة قديمة في عُرُب الاعراب ، وهن اللواتي ولا شك في عفتهن ، ولله تعالى در من قال في صفتهن

هن الحرائر لا ربات أخمرة * سود المحاجر لا يقرأن في السور

وقد حققت ان منهن من لا تخرج من بيتها حتى الى الحمام ، ولا يحوم عليها طائر نظر أهل الازقة الى أن تصير وكراً لحمَام الحِمام ، نعم لا يخلو غيل من واوى ، وأى بلد عريض طويل ليس فيه كلب عاوى ، فالمعول عليه في رداءة البلدة وفضلها ، انما هو عند المنصف حال غالب أهلها ، وحال أغلب أهل هذه البلدة في الحسن لا يطال ، وسيان في ذلك على ما علمت النساء والرجال

قوم ذكوا نفسا وطابوا مخبرا * وتدفقوا جودا وراقوا منظرا

فانعم بذلك المغنى ، فقد جمع الفضل حسا ومعنى

حمامات سمسون

ذهبت لازالة الدرن الى الحمام فرأيت دلاكيه ظباءً الا انها أوانس ، وغواني غير

كاللجين تحلى بعذار من انعكاس النبات، وحول كل بركة — وحياتك — روض نضر، ومامن روض الا و يلتقى فيه ماء الحياة والخضر، وامتداد هاتيك القصور ست ساعات، على ماحدثنى به بعض الرواة الثقات، وأسود غابات اسلامبول، وبدور بروجها التى ليس لها أفول، ينتقلون اليها اذا بلغت الشمس نصف برج الثور، ولهم اذا بلغت نصف برج العقرب رجوع بعد الاقامة وحور بعد الكور، وفى كلا الامرين قد يتقدمون وقد يتأخرون، وربما تجد فيها قوما مقيمين فى الفصول الاربعة لا يرحلون، وقد اتخذوها منزلا، واستوطنوها ولم يبغوا عنها حولا، وعرض الخليج هناك نحو جسر الزوراء أربع مرات، وانه يزيد على ذلك و ينقص فى بعض الجهات، والزوارق فيه تزيد على اثنى عشر ألفا، وهى مشحونة لطفا، ومملوءة ظرفا، وانها تحكى فيه الدعاميس، كما أن زوارقه السلطانية تشبه الطواويس، وفيه من السفن النارية عده، قد اتخذت للعبور عده، وهى من حيث البوائق، آمن بكثير من الزوارق، وفيه من الحيتان اليونسية كثير، و يتحرج من هناك من أكلها كما يتحرج المسلم من أكل الخنزير، وربما يظنها الظان، انها خنازير الحيتان، وهى تتطارد جهاراً، ليلا ونهاراً، فماذا عسى تقول فى بلدة لا يزال يضحك ثغرها على جميع البلاد، ولا يبرح فى العمارة أمرها كل يوم فى ازدياد، و يوشك أن تكون جنة يقضى منها العجب، لولا ما ابتليت به من الحريق وقمل الخشب، ولكم نمت فيها من القمل على مثل الاسنه، واعترتنى من محن الدهشة من حريقها أعظم محنه، وكلا الامرين فى الساحل قليل، وفى الارض قطع متجاورات كما نطق به التنزيل، ثم انها لكثرة الخلق فيها، واختلاف صنوف أهاليها، لا تخلو عمن لو ألقى فى البحر المحيط لنجسه، أو كان جزءاً من العدد الغير المتناهى لبخسه، وفيها من النسوان مايخيل انهن حور الجنان، وكلامهن لو تجسد لازرى بالدر ..... وفيهن من عادات

وجملة أمرها أنها انموذج الجنة بلا مين ، فيها ما تشتهى الانفس وتلذ العين ، وكم فيها من حبر راقت حبره ، ومن امام توجت جباه الاسلام سيره ، آثار علومهم على صفحات الدهر مكتوبه ، وفضائلهم فى محاسن الدين والدنيا محسوبه ، والى كل قطر مجلوبه ، ولكل قلب محبوبه ، فما من متين علم وقديم رأى الا ومنهم مشرقه ، ومن بروجهم مطلعه ، ولا من معين فضل وقوى فهم الا وعندهم مغربه ، واليهم منزعه ، وما تشاؤه من كرم أخلاق بلا اختلاق الا وجدته فيهم ، ولا جلالة اعراق فى طيب اعراق الا اجتليته من معانيهم ، أطفالهم رجال ، وشبانهم أبطال ، ومشايخهم ابدال ، شواهد مناقبهم باهره ، ودلائل مجدهم ظاهره

فمن حاتم فى جوده وابن مامة * ومن أحنف ان عد حلم ومن سعد

وأما الثغر وما أدراك ما الثغر ، فذاك الذى تنشق من حلاوة لمى محاسن ثناياه مرارة الخمرة ، وقد ولع لسانه بالافتخار ، فجرى مطلق عنان الفخر فى كل مضمار ، وتلاسن البحران بلا مراء ، فالقم البحر الاسود حجرا بحر مرا ، واذا رأيت ثم رأيت نعيما ، وملكا مقيما ، وملكا عظيما ، فالقصور هناك لها الرفع عن القصور سمه ، فوحسنها لقد غدت فلفلة الغيرة منها فى است قصور أرض السمسمه ، فان الفرق بين هذه وتلك جبال ، فهذه مما تلتذ به الحواس العشر وليس فى تلك حظ لسوى الخيال ، وقد غدت تسحب ذيول الفخر بأفصح لسان على ساحلى خليج يزرى بالمجره ، وتنقل لرائيها أحاديث غرف الجنان فتملأ اذ تملى الجنان بانواع المسره ، وانها على ما أضمرت من دقائق الحسن فى سرائرها ، ليرى ظاهرها من باطنها وباطنها من ظاهرها ، وقد غلت مقدارا ، وعلت منارا ، وشمخت بأنفها حتى ظن ان لها عند الشعرى العبور ثارا ، وقد اتصلت بها من ورائها جنان ، هى فوق ما تتخيله أذهان الامكان ، وان مبتدأ أمرها لينادى : ليس الخبر كالعيان ، وفى كل منها بركة مفعمة من الحسن ببركات ، ولها خد

آثار أقلامه

نخب من نثره

الاستانه العلية

ان المتقدمين من المؤرخين بالغوا فى عظم هذه البلده ، وجاوزوا فى الوصف حده ، كما بالغوا فى شأن الزوراء ، فى عصر الخلفاء ، وأنا أقول ، غير مبالغ بمقول ، إنها بلدة مؤنقة الأرجاء ، رائقة الأنحاء ، ذات قصور تضيق عن قصور رها سعة الاذهان ، وتتجاذب الحسن هى وقصور الجنان ، وربة رياض أريضة ، وأهوية صحيحة مريضة ، قد تغنت أطيارها ، فتمايلت طربا أشجارها ، وبكت أمطارها ، فتضاحكت أزهارها ، وطاب روح نسيمها ، فصح مزاج اقليمها . وليتك رأيت مافيها من الرياض الأنيقة ، والأشجار المتهدلة الوريقة ، وقد ساقت اليها أرواح الجنائب ، زقاق خمر السحائب ، فسقت مروجها مدام الطل ، فنشأ على أزهارها حباب كاللؤلؤ المنحل ، فلما رويت من الصهباء أشجارها ، رنحها مع النسمات المسكية خمارها ، فدانت ولا تدانى المحبين ، وتعانقت ولا تعانق العاشقين ، يلوح من خلالها شقيق ، كأنه جمرات من آثار حريق ، ويتخللها بهار بيهر ناظره ، فيرتاح اليه ناظره

وكأن النرجس الغض بها * أعين العين ومافيهن غمض

مُؤَلَّفَاتُهُ

روح المعانى — هو التفسير الكبير المعروف بين التفاسير، أفرغ فيه طائفة من كتب الفقه والاصول حتى وقع فى تسع مجلدات ضخام، وعلى هذا يكون أقرب فى النسبة الى هذه الكتب ومباحثها منه الى كتب التفسير، ومع هذا فقد نال كبها واشتهر من بينها شهرة عظيمة . وهو مطبوع فى بولاق ومعروف لدى أهل العلم

غرائب الاغتراب ونزهة الالباب — كتاب وضعه فى تفصيل رحلته الى الاستانة العلية وذكر فيه مَن لقيه من رجال العلم وأهل الادب ولاسيما شيخ الاسلام عارف حكمت وما جرى بينهما من المباحث العلمية . طبع حديثا فى بغداد

نشوة الشمول فى الذهاب الى اسلامبول . نشوة المدام فى العود الى دار السلام — كتابان وصف فيهما البلاد التى مر بها فى ذهابه الى الاستانة وايابه الى بغداد وذكر من لقيه أثناء ذلك من العلماء والادباء، ومادار بينه و بينهم من المجادلات والمحاورات . طبعا حديثا فى بغداد

كشف الطره عن الغره — هو شرح لدرة الغواص إعتمد فيه على شرحها للشهاب الخفاجى . وهو مطبوع فى دمشق ومنتشر

المقامات الخيالية — قيل انها طبعت فى كربلا . لم أرها

وله غير ذلك كتب ورسائل وشروح وفتاوى وتعليقات وحواش منها المطبوع المشهور، ومنها المطوى المدثور

مُمَيِّزَاتُهُ

لكل علم من العلوم، وفن من الآداب، أسلوب من الكتابة خاص به اذا حاد عنه الكاتب التوى عليه القصد، وزلت به القدم ما لم يكن من المجلين . وقليل هم الكتاب الذين يستطيعون أن يضربوا فى كل علم بسهمه، وينضحوا لكل فن عن قوسه، ويلتزموا بيانه بعبارته الخاصة به . ولقد رأيت أبا الثناء من أقدر كتاب عصره على تكييف مناحيه فيما قصد اليه من العلوم والآداب . فبينا تراه يكتب فى التفسير، بقلم الرازى وابن جرير، اذا به يقابل فى رحله بيراع ابن بطوطه، ويقيس بذراع ابن جبير، ويحسن فى الوصف والتعريف، احسان الموفق عبد اللطيف، أما صناعة الانشاء فقد كان يتظالع فيها وراء من تقدمه من ذوى المقامات البليغة، غير أنه كان على اضطلاعه بعلوم الدين الداعية الى التوقر والاحتشام، ميالا الى ما يشرح الصدر من عبارة لطيفة، أو فكاهة طريفة، مما أبان به عن رقة طبع، وحسن ذوق . ومع أن السجع كان ذا السلطان على أقلام الكاتبين، فى ذلك الحين، فقد كان يحاول أن يكون أقلهم فيه تكلفا، وأدناهم الى الانسجام . وقد قال الشعر الا انه ما كان فيه من المطبوعين

ذا ثروة طائلة وجاه عريض . فمر المترجم له فى طريقه بآمد ، فالموصل ، فماردين ، فديار بكر ، فارضروم ، فسيواس ، فسامسون ، وقد كان موضع اعجاب علماء هاتيك الديار وكثيراً ما جرت بينه وبينهم مباحث ومطارحات ، ومسائل ومجادلات . ولما انتهى به السير الى دار الخلافة التقى بشيخ الاسلام احمد عارف حكمت بك وعرض عليه تفسيره وما جاء من أجله فأنكر منه ما رآه من انصراف نفسه عنه ، لما كان قد سبقه اليه من وشايات المبغضين ، ثم ما لبث أن زال هذا العارض وحل القبول محله ودارت بينهما مباحث ومناقشات علمية وأدبية دلت على توسعهما فى علوم الدين والآداب وأجاز كلٌّ صاحبه فيما علم من منقول ومعقول ، ومن ثم كثرت أصدقاؤه من رجال الدولة ووزرائها ، وصار موضع اجلال صدورها وأمرائها ، وبعد نزوله بدار الضيافة السلطانية أُمر بتقديم مذكرة عن حاله وما يرجوه الى الصدر الاعظم ، وكان اذ ذاك مصطفى رشيد باشا فكتبها وألحق بها ورقة فيها :

قصدت من الزوراء صدراً معظما * وقد سامنى ضر وقد ساءنى دهر
فقلت لنفسى والرجاء موفــر * « لنا الصدر دون العالمين أو القبر »

فحازت اعجاب الصدر الاعظم ، وبعد لأْيٍ ما صدرت ارادة السلطان عبد المجيد باعطائه مبلغ ٢٥٠٠٠ قرشا وله مثلها فى كل عام ، وبالانعام عليه بالوسام المرصع

ثم آب الى وطنه حسن الحال ، ناعم البال ، فانكب على التأليف ، وانقطع للتصنيف ، ووفد عليه ذوو الحاج من الناس ، وفصّل فيما صنف رحلته هذه فى عدة كتب . وما زال بيته مثابة للناس وأمنا الى أن دعاه ربه فلباه فى يوم السبت ٢٥ ذى القعدة سنة (١٢٧٠ هـ و ١٨٥٤ م) رحمه الله ، فرثاه الشعراء وابنه الادباء ودفن بجوار والده قريبا من ضريح سيدى معروف الكرخى تاركا وراءه ذرية صالحة وأنجالا كراما حفظوا مجد بيت الالوسى وفضله الى اليوم

به نفسه ودعاه الى زيارته ، والاختصاص بصحبته ، فلبى دعوته ، ولزمه ما شاءت أوقاته ، وفى أثناء ذلك شرح كتابا دعاه « البرهان فى أطاعة السلطان » وقدمه الى الوالى فأجازه عليه بنظارة « وقف مرجان » وجلب له رتبة « تدريس الاستانة » من الحضرة السلطانية . ثم عين مفتيا للحنفية ، وأخذ فى كتابة تفسيره روح المعانى فى أوقات الفراغ ، و إجازة الطلاب ، فى العلوم والاداب ، وخرّج فريقا من أهل الفضل فذاع صيته ونما فضله ، فقصد رحابه طلاب العوارف ، و وفد عليه رواد المعارف ، و راسله الكتاب والبلغاء ، ومدحه الادباء والشعراء ، فكان يفيض على سائليه ما نالته يده من الذهب ، وما بلغ إليه علمه من الفضل والادب . واتفق أن نقل رضا باشا الى ولاية دمشق وعين بدله بولاية بغداد محمد نجيب باشا فأساء معاملة المترجم له بوشاية أعدائه وسعاية حاسديه فعزل عن منصب الافتاء وانقطع لاتمام التفسير ، ثم رفع عن نظارة « وقف مرجان » « فأسبلت عليه سجف الاحزان ، وقطع العوز نياط قلبه ، فصار عثيثة أثاثه وفويرة كتبه ، حتى كاد يأكل الحصير ، و يشرب عليه مداد التفسير » وما كانت هذه الاساءات لتشفى صدر الوالى تولى الله حسابه من غله على صاحب الترجمة ، بل ما برح يصب على رأسه جام نقمه حتى ألجأه الى ركوب الأخطار ، واقتحام الأسفار ، فرارا من ظلمه ، وهربا من عسفه ، وقد كان أتم تفسيره فاصطحبه وسيلة الى بلوغ مرامه لدى جلالة السلطان

ففى سنة (١٢٦٢ ﻫ ١٨٤٥ م) شد رحاله الى الاستانة العلية بصحبة المشير عبد الكريم باشا النادر ، ومصطفى بك الربعى ، وسليمان بك أفندى* . وقد كان فى صحبتهم أيضا النوّاب اقبال الدولة أحد ملوك الهند وعظمائها ، كان قد اتخذ العراق له سكنا وكان

(*) هو والد المرحوم الصدر محمود شوكت باشا مزلزل عرش عبد الحميد والمقتول فى دم ناظم باشا البريء منه براءة الذئب من دم ابن يعقوب . وقد كان والده هذا من أكابر كتاب الترك وشعرائهم

أبو الثناء الشهاب الألوسى

ترجمة

هو عالم العراق الكبير والكاتب النحرير السيد محمود شهاب الدين أبو الثناء الآلوسى البغدادى ابن السيد عبد الله أفندى ينمى نسبه إلى الامام الحسين بن على كرم الله وجهه . ولد فى ١٤ شعبان سنة (١٢١٧ هـ ١٨٠٢ م) بالكرخ من بغداد فى بيت عز عريق ومجد صميم . أخذ مبادىء العلوم عن والده، ولما بلغ العاشرة من عمره أسلمه والده الى شيوخ علماء العراق ومدرسيه فقرأ عليهم واستجازهم فى علوم اللغة والدين والآداب والفقه وغيرها من المعقول والمنقول وكانت خاتمة إجازته على يد شيخه العلامة الشيخ علاء الدين الموصلى فى يوم مشهود . ثم أخذ فى الشرح والتعليق ، وأكب على القراطيس تأليفا وتصنيفا ، وتصدر للتدريس وهو فى الحادية والعشرين من سنى حياته . ولما اجتاحت سادة الكرخ جائحةُ الطاعون قضى والده فيمن قضى منهم «فلبس الزمن له جلد النمر ، وجعل يكر عليه و يفر ، وجرت لها أمور منها السماء تمور ، ووقعت مواد تشيب لذكرها اللمم المداد» فاضطر إلى ترك سُكنى داره بالكرخ وسكن بجوار الباز الاشهب

وفى شهر رمضان سنة ١٢٥٠ هـ دعى للوعظ فى جامع الحضرة الغوثية فأجاب مُكرها واتفق ان حضر درسه وسمع وعظه، المشير على رضا باشا والى بغداد فعلقت

نبذ من شعره

اطلعت على كثير من القصائد التى نظمها رفاعه بك فيما عنّ له من الأغراض والمطالب فلم أجد له من بينها ما يستحق نشره فى هذا العصر أو الإتيان به كشاهد على منزلة الشعر فى أيامه كما هو المقصود من بعض ماجئنا به لغيره ليكون مثالا لتدرج الشعر فى معارج الكمال حتى بلغ منزلته التى صار إليها لهذا العهد من الإجادة والإحسان . ولقد والله أحسن وصف نفسه حيث قال

وما نظم القريض برأس مالى * ولا سندى اليه ولا سنادى

غير أننى رأيت له البيتين الآتيين فآثرتهما بالإثبات هنا على ما فيهما من التعبير العامى فى قوله « نزاهة طرفى »

خمر العيون

قد قلت لما بدا والكاس فى يده * وجوهر الخمر فيه شبه خديه
حسبى نزاهة طرفى فى محاسنه * ونشوتى من معانى سحر عينيه

وحولى من بنى قحطان شيب * وشبان الى الهيجا سراع
إذا فزعوا فأمرهم جميع * وان لانوا فأيدهم شعاع

وقوله

لا يبعدن قومى الذين همُ * سم العداة وآفة الجزر
النازلين بكل معترك * والطيبين معاقد الأزر

الى أن قال :

ومن صفات العرب أيضاً كرم النفس ، ومكارم الاخلاق ، وكان يحملهم على الانتصار لمن استنصر بهم وإجارة من استجار ، كما يحملهم على صدق الوعد ، ووفاء العهد ، يستوى فى ذلك منهم الوثنى والكتابى حتى بقى فيهم الى الإسلام ، الى غير ذلك مما فاضت به الكتب فى صفات العرب ، وقال :

وقد بقيت هذه النخوة الفخارية فى العرب الى الإسلام بل والى الأزمان الأخيرة عند نسل العرب الملتزمين ، فمن ذلك ما ينسب لبعض عظماء أولاد عائد بالدوير بصعيد مصر وهو قوله

إذا ماركبنا ظهور الجياد * فمن ذا لفرساننا يقهر
ومهما أمرنا لكل البلاد * فكلٌّ مطيعٌ لما نأمر
ونحن الملوك أهيل السداد * ونحن لأصدافهم جوهر
ومن يبتغينا ينال المراد * ويرجع طلقا ويستبشر
نخل سوانا وصفّ الفؤاد * ترى من عطانا الذى يبهر

وفن الواو قام عند عرب الصعيد مقام الشعر عند سلفهم فلهم فيه الملكة الجيدة مع لحنه الذى يحلو به

المولى بوعدك ، بطيئا عنه بوعيدك ، وكنت لا تضل حتى يضل النجم ، ولا تهاب حتى يهاب السيف ، ولا تعطش حتى يعطش البعير ، وكنت خير ما تكون حين لا تظن نفس بنفس خيرا . فقد مدحه بأحسن ما يوصف به عربى ، فكأن بقاء ذكر الانسان بعد الموت بمنزلة الحياة . قال بعضهم

فأثنوا علينا لا أبا لابيكم * بأفعالنا إن الثناء هو الخلد

وقال آخر

فان يك أفنته الليالى فأوشكت * فان له ذكراً سيفنى اللياليا

ومن صفاتهم النجدة التى هى عدم الجزع عند المخاوف فكانوا منها على مكانة عالية وكانت أحلامهم تحمل أجسامهم ما لا يطاق سواء فى ذلك الشخص والقبيلة كما قيل فى الاول

أكر على الكتيبة لا أبالى * أفيها كان حتفى أم سواها

ولى نفس تتوق الى المعالى * ستتلف أو أبلغها مناها

غيره

كنت المقدم غير لابس جنة * بالسيف تضرب معلما أبطالها

وعلمت أن النفس تلقى حتفها * ما كان خالقها اليك قضى لها

غيره

فان يك قيدى كان نذرا نذرته * فما بى عن أحساب قومى من شغل

أنا الضامن الراعى عليهم وانما * يدافع عن أحسابهم أنا أو مثلى

وقيل فى الثانى

وكفى تستقل بحمل سيفى * وبى ممن يهضمنى امتناع

آثار أقلامه

نخب من نثره

مميزات العرب

العرب كلها ترجع الى قحطان وعدنان فيقال لسائر قحطان اليمن ، ولسائر عدنان المضرية والنزارية وهى قيس ، ويقال قيسى ويمانى ، كما يقال سعد وحرام ، وكل من قحطان وعدنان كلهم متحدون فى النسب متحدون فى الطبائع والعوائد على اختلاف طبقاتهم الست التى هى الشعوب والقبائل والعمائر والبطون والافخاذ والفصائل ، فالشعب أكبر من القبيلة ، كربيعة ومضر والاوس والخزرج ، والقبيلة ككنانة ، والعمارة كقريش ، والبطن كقصى ، والفخذ كهاشم ، والفصيلة كبنى العباس . وأول صفة من صفات العرب المحمودة وهى الشهامة فى الحرص على مايوجب الذكر الجميل من العظائم ، والثناء الحسن من المكارم ، وهذه الصفة كعلو الهمة والحمية والنجدة من أركان الشجاعة التى هى صفة جامعة لذلك ، فكانوا يحبون المحامد والفخر وبعد الصيت بما يعدونه عندهم من الفعل الجميل ، كانتصارهم على الاعداء وكسب الغنائم . فكانت النصرة عندهم تقوم مقام الحقوق المدنية فيما يترتب عليها من المزايا . . . كما يحكى أن بعض العرب وقف على قبر عامر بن الطفيل العامرى فقال يرثيه :

أنعم ظلاما أباعلى ، فلقد كنت تشن الغارة ، وتحمى الجارة ، سريعاً الى المولى

مواقع الافلاك فى أخبار تليماك — قصة مشهورة ترجمها وهو فى الخرطوم طبعت ونشرت مراراً

مباهج الالباب المصرية فى مناهج الآداب العصرية — كتاب حوى ضروبا من الآداب . وصنوفا من السياسات، وفنون الصناعات، طبع أخيراً

أنوار توفيق الجليل فى أخبار مصر وتوثيق بنى اسماعيل — كتاب من أجل الكتب وأمتعها فصل فيه أخبار من ملك مصر من الأسر والملوك منذ مُصّرت الى قدوم عمرو بن العاصَ وأصحابه اليها فاتحين . ويتلو ذلك فصل ضاف فى أخبار العرب وأطوارهم . وضعه فى عهد ممدن مصر الخديوى اسماعيل وجعله تقدمة لولى عهده المرحوم توفيق باشا الخديوى السابق . وهو مطبوع قليل الوجود

نهاية الايجاز فى سيرة ساكن الحجاز — كتاب كريم وضعه فى سيرة الرسول عليه الصلاة والسلام وجعله جزءاً ثانياً للكتاب السابق . طبع فى روضة المدارس وهو آخر ما ألف . قليل الوجود

وله غير ما تقدم كتب كثيرة ما بين مطبوع ومخطوط . كما أحيا كثيراً من الكتب الجليلة بالطبع، مثل خزانة الادب للبغدادى، ومقامات الحريرى، وغيرها . و يقال أنه ترجم بنفسه و باشرافه ما ير بو على الستمائة كتاب

مُؤَلَّفَاتُهُ

قلائد المفاخر فى غريب عوائد الأوائل والأواخر — كتاب جليل يدل عنوانه على موضوعه ترجمه وهو فى باريس وهذا الكتاب هو من أنفع الكتب وأمتعها ، طبع ونشر غير أنه قليل الوجود

تخليص الابريز الى تلخيص باريز — كتاب وصف فيه رحلته الى فرنسا وذكر ماشاهده بها من آثار التمدن وما وقف عليه من عادات القوم وأخلاقهم وآدابهم . قيل انه حاز إعجاب العزيز محمد على باشا لدرجة أمر معها أن يتلى فى قصوره ثم أمر بطبعه وتوزيعه على الدواوين وبين حاشيته وأعيان بلاده . طبع غير مرة وتداولته الايدى

التعريبات الشافية لمريد الجغرافية — كتاب ترجمه عن الافرنسية لتلاميذ المدارس طبع مرارا فى مجلد ضخم

جغرافية ملطبرون — كتاب جليل فى الجغرافية والتاريخ ترجمه وهو بطهطا هاربا من الطاعون ، يقال أنه ترجم من أصل هذا الكتاب أربعة مجلدات فقط طبعت فى مطبعة بولاق لم أطلع منها على غير مجلدين فى قطع كبير . وقد وعد حفيده السيد محمد بك رفاعه باعادة طبعه مع كتاب آخر اسمه مونتسكيو من مترجماته أيضاً فعساه يبر بوعده

بداية القدماء وهداية الحكماء — كتاب فى التاريخ القديم أكثره مترجم وبه تفصيل واف عن حروب الطرواد ووقائع اليونان التى نظم هوميروس الياذته المشهورة فيها

مُمَيِّزَاتُهُ

منحة من منح صاحب مصر — محمد على باشا الكبير — على مصر، و يد من أياديه الغر على لغة العرب ، وحياة الادب ، فلولا محمد على ماعرف الناس من أمر رفاعة بك الا أنه ذلك المجاور المنزوى بين أساطين الازهر ، ولولا رفاعة بك ماعادت مصر الى سالف عهدها ، وسابق مجدها ، وصارت كعبة العلماء ، ومهبط الكتاب والشعراء ، ومافاءت اللغة العربية الى عصرها الاول، عصر رفولها فى حلل العلوم والآداب . فهو بما نقله اليها من نفائس الكتب ، وأعلاق الأسفار ، قد شيد بنيانها ، ودعم أركانها . وهو وان كان قد ضرب فى فنون العلوم والآداب بكل سهم نافذ الا أنه اختص من ذلك بفن التأريخ وتحقيقاته ، وتميز صحاحه من معتلاته ، بحيث كان فيه الحجة التى لاتدفع ، والدليل الذى لايرد . أما الانشاء فقد كان فيه بحيث لاينظر فى أى قالب من التعبير جاء معناه، وفى النظم ظاهر الإجهاد بين المعاناه، ومع هذا فقد خرّج رجالا اقتسموا جزو ر البيان، واقتحموا ميادين البلاغة والتبيان، فكانوا كالأنجم الزُّهر، فى سماء ذلك العصر

و بعد أن نال أمنيته وحاز اجازته الدالة على نبوغه فى العلوم الحديثة وتفوقه فى فن الترجمة والتعريب قدم القاهرة سنة (١٢٤٧ ﻫ ١٨٣١ م) ومصباح الغرب باحدى يديه ، ومفتاح الشرق باليد الاخرى ، وحظى بلقاء العزيز محمد على فسر به وعهد اليه فى الترجمة بمدرسة الطب فى أبى زعبل ، ثم نقل منها الى مدرسة الطوبجية بطره ، وفى أثناء ذلك عاضد الشيخ حسن العطار على إنشاء جريدة عربية هى « الوقائع المصرية » فسعيا لدى الجناب العالى سعيا مشكورا الى أن حصلا منه على الاذن والمساعدة فكانت أول جريدة عربية ظهرت تحت سماء الشرق سنة (١٢٤٨ ﻫ ، ١٨٣٢ م)

وفى سنة (١٢٥١ ﻫ ، ١٨٣٥ م) أنشئت مدرسة الترجمة التى سميت فيما بعد مدرسة الالسن وعهد اليه فى إدارتها كما أحيلت عليه مدارس أخرى مع تفتيش مكاتب الاقاليم فخرج نشأ حديثين نفعوا البلاد و بثوا فى أرجائها روح الحياة بنشر العلوم والآداب . ومازال مثابرا على التعليم فى مدارس القطر وترجمة الكتب النافعة مترقيا فى مراتب الحكومة السنية الى أن ألغيت مدرسة الالسن سنة (١٢٦٥ ﻫ ، ١٨٤٩ م) فى عهد عباس الاول ونفى الى السودان باسم رغبة الحكومة فى إنشاء مدرسة بالخرطوم فلبث هناك يعانى مضض العيش ، وغصص النوى ، الى أن تولى سعيد باشا فاستقدمه و ولاه بعض المناصب ولما ألغيت كل هذه المدارس سنة (١٢٧٧ ﻫ) أعيد الى نظارة قلم الترجمة وعين عضوا فى قومسيون المدارس ثم تولى ادارة تحرير جريدة « روضة المدارس » ولم تعقه شواغله ومناصبه على كثرتها عن ترجمة الكتب وتصنيف المؤلفات ونشر جلائل الآثار التى ظل مثابرا عليها الى أن نقل الى جوار ربه سنة (١٢٩٠ ﻫ ١٨٧٣) ودفن فى بستان العلماء من قرافة المجاورين رحمه الله وأثابه

رفاعه رافع بك

ترجمة

هو العلامة العامل الكبير السيد رفاعه بك رفع ابن السيد بدوى يتصل نسبه بالامام الحسين بن على كرم الله وجهه . ولد فى بلدة طهطا من صعيد مصر سنة (١٢٠٦ هـ ١٨٠١ م) من أسرة شريفة الاصل أصابها عنت الدهر فنشأ فى أحضان الفاقة، ولما توفى والده كفله أخواله، وهم أهل بيت متصل النسب بالانصار الخزرجية ، ولبث فى كفالتهم الى أن شب وترعرع فقدم القاهرة وانتظم فى سلك الطلبة بالازهر الشريف فقرأ العلوم العقلية والنقلية على أكابر علمائه ولازم من بينهم الشيخ حسن العطار وتخرج عليه ، ولما آنس العطار فيه الذكاء أُعجبَ به ورفع أمره الى عزيز مصر محمد على باشا فجعله اماما لاول بعثة علمية أرسلها الى أوربا لتلقى العلوم والمعارف بمدارسها، فسافر معها الى باريس سنة (١٢٤١ هـ ١٨٢٥ م) وما كاد يلقى بها عصاه حتى عكف على دراسة اللغة الافرنسية وأخذ يتصور أساليبها ، و يتفهم معانيها وتراكيبها ، الى أن برع فيها براعة ظهرت آثارها المحمودة فيما نقله عنها من نفائس الكتب وذخائر الاسفار . ولما أحرز منها نصيبا وافرا راسل أفاضل الفرنسيس وكتابهم وصحب علماء المشرقيات منهم، كالبارون دى ساسى الشهير ، والمسيو جوبار الرحالة المعروف ، وكان لهما عليه فضل التعهد والارشاد . وكان مولعا بمطالعة الجرائد وصحف الاخبار ميالا الى الترجمة فعرب فى مدة اقامته بباريس عدة كتب ورسائل لعل أفضلها كتاب قلائد المفاخر،

لا أستحى ان قلت قل نظيره * بين الرجال فلست غير مصيب
والمرء يطلق فى الكلام لسانه * ان كان لا يخشى من التكذيب
أنى وقفت على جوانب قبره * اسقى ثراه بدمعى المصبوب
ولقد كتبت له على صفحاته * يالوعتى من ذلك المكتوب :
لك ياضريح كرامة ومحبة * عندى لأنك قد حويت حبيبى

غيران المريض يرجو دواءً * فاذا لم ينله فالصبر أحرى
إن حقا على الطبيعة أن تحزن * والعقل بالنتيجة أدرى
لو يفيد البكاء والنوح شيئاً * لأقامت خنساء قبلك صخرا
كل من فى الوجود وهم فلانر * حم زيداً ولا نغبّط عمرا
يطمع المرء فى الحياة طويلا * وهو فى الموت أو عن الموت فترا
وحياة الدنيا تسمى حياة * مثلما تحسب المجرة نهرا
هكذا الناس عاثرا أثر كاب * كل عين بدمعة العين تشكرى
رب باك لضربة صادفتنى * وهو قد شك ان تفاجيه أخرى
طالما عالج الزمان رجال * فابتلاهم بأحرف ليس تُقرا
حيلة تركها سبيل اليها * وسقام برفضها الطب يبرا

رثاء الحبيب

وهو آخر شعر قاله فى حياته يرثى به ولده حبيبا

ذهب الحبيب فياحشاشة ذوبى * أسفا عليه ويادموع أجيبى
ربيته للبين حتى جاءه * فى جنح ليل خاطفا كالذيب
ياأيها الأم الحزينة أجملى * صبرا فان الصبر خير طبيب
لاتخلعى ثوب الحداد ولازمى * ندبا عليه يليق بالمحبوب
هذا هو الغصن الرطيب أصابه * سهم القضاء فمال غير رطيب
من للكتابة والحسابة بعده * ولصحة التدبير والتدريب

أفدى التى لبست من مجد دولتها * تاجا فهان عليها الحلى والحلل
صان القريض عن الدعوى تفردها * بين الكرائم حتى ليس ينتحل
قد هاج الاعليها الخلف غارقة * فيه الملوك ولم يلحق بها بلل
كالشمس بين بدور لا يلم بها * نقص البدور ولا يغتالها الطفل
قريرة العين ترعى الملك ساهرة * على العباد فنامت حولها المقل
لمشكل الرأى فى أجفانها قمر * يدنو ولو أنه فى بعده زحل

القد والغصن

ولما تثنى وهو ريان معطف * يميل على سفح العقيق ويخطر
تذكرت أغصان الرياض يهزها * نسيم الصبا والشبه بالشبه يذكر

طعام البخيل

قد قال قوم ان خبزك حامض * والبعض أثبت بالحلاوة حكمه
كذب الجميع بزعمهم فى طعمه * من ذاقه يوما ليعرف طعمه

تعزية صديق

أجمل الله فى فؤادك صبرا * وجزى منة وأعظم أجرا
وسقى ترب من فقدت سحابا * لا دموعا فذاك أندى وأطرى
ان أمرا دهاك أعظم أمر * من تلقاه لا يعظم أمرا

فكتوريا العظمى

اليوم قامت فتاة الملك بارزة * وقام من قبلها أسلافها الأُول
فرع الأُصول التي مرت وبهجتها * ان الثمار من الأغصان تبتذل
يستحسن الملك فيها والخضوع لها * وليس يحسن فيها الجبن والبخل
باهى الرجالُ نساء الدهر وافتخروا * حتى أتت فاصاب المدعى الخجل
اذا صفا لك نور الشمس فى فلك * فما الذى تفرق الجوزاء والحمل
بقية من ملوك الدهر قد ذُخرت * وأفضل الشيء مايخبى فيعتزل
فى قلبها خاتم التقوى وفى يدها * من خاتم الملك مايجرى به المثل
تدبر الأمر فى أقطار مملكة * كأن أطرافها القصوى لها حلل
فى كل نجد لها غور تمهده * وكل سهل به من خوفها جبل
قد أدبت كل نفس فى جوانبها * حتى تأدب فيها الصقر والوعل
تلوى الرياح مثانى الرمل عاصفة * حتى تصيب أراضيها فتعتدل
قد التقى الدين والدنيا بساحتها * كما التقى الكُحل فى الاجفان والكَحل
فى ظلها للورى من كل طارقة * أمن وفى قلبها من ربها وجل
اذا انثنى صولجان الملك فى يدها * تحطمت منه بيض الهند والاسل
تصمى بأهدافها الرامى ولو رشقت * بأسهم الشهب عن قوس الهوى ثُعل
لها من الرأى جيش تحت رايته * جيش به تأمر الدنيا فتمتثل
يظل فى البحر من أطباقه لجج * تعلو وفى البر من أخفاقه زجل
اذا سقى القوم كاسا من وقائعه * كفاهم النهل ان يستأنف العلل

يا أيها الركب الذين تحملوا * هل كان يثقلكم فؤادي المدنف
تبع الركاب فما استطاع لحاقها * وبغى الرجوع فلم يجد من مصرف

غزل المشيب

خطرت وفي قلبي لذاك خفوق * ورنت فكل الصاحبين رشيق
هيفاء مال بصبها سكر الهوى * لما تمايل عطفها الممشوق
قامت تدير لنا الرحيق وليتها * طلبت مجانسة فدار الريق
وشدت فأطربت الجماد وهيجت * حتى علمنا كيف يحيي البوق
ناظرتها فسكرت من لحظاتها * وشربت خمرتها فكيف أفيق
ورأيت رقة خصرها فوهبتها * قلبي فان كليهما لرقيق
غيداء آنسة تفور عندها * يحيا الرجاء ويقتل التوفيق
كالآل يطمع لامعا متقربا * ولمن أتاه زفرة وشهيق
قالت وقد غازلتها متصببا * ليس الصبابة بالمشيب تليق
هيهات ما كبرا مشيبي انما * هذا الدلال الى المشيب يسوق
اني امرؤ طرب على غزل المهى * وعلى مناظرة الحسان مشوق
حجت الى قلبي العيون فانه * بيت ولكن لا أقول عتيق
يا ربة الحسن العزيز لك الحشا * مصر غلا فسطا عليه حريق
نعمان خدك في الرياض ومدمعي * هذا لها خال وذاك شقيق
دمعي حديث لا يزال مسلسلا * أبدا وقلبي بالغرام خليق

يلومونني أن أحمل الذل في الهوى * كأنهموا لم ينظروا عاشقاً قبلي
الى الله أشكو جور فاتنتي التي * لئن رضيت قلبي فقد زدتها عقلي

لهفة القلب

لمن الهوادج في عراء الهوجل * تحت القباب تشق ذيل القسطل
يتتبع الآثار قلبي خلفها * فلو انثنين وطئنه بالأرجل
أبراج أقمار تغيب نهارها * فيها وتطلع في الظلام المقبل
حملتني مالو تحمل بعضه * حمر النياق لما نهضن بمحمل
لي ذات خدر بينهن أنالها * وأود لو رضيت فقالت أنت لي
قامت تصول من الرماح بابيض * ومن السيوف بأسود لم يصقل
ولقد أقول لمن أقام بمرصد * ما كان ضرك لو أقمت بمعزل

مراتع الظبا

أعرفت رسم الدار أم لم تعرف * بين العقيق وبين دارة رفرف
دار عهدناها مراتع للظبا * فغدت مسارح للضواري الخطف
خطت صفاً محيها الرياح فنقطت * أيدي السحائب غفل تلك الأحرف
فترى الرسوم تلوح حول خطوطها * مثل الجداول حول خط المصحف
ولقد وقفت على المنازل وقفة * نصبت لعيني هول يوم الموقف
ناديتها كالمستجير وانما * ماذا يفيد نداء قاع صفصف

أيا دارها بالواديين قريبة * نراك ولكن ما اليك سبيل
لئن عمرت منك البيوت فانما * لديك قلوب العاشقين طلول
لنا فيك خود تحسد السمر عطفها * فيبدو على اعطافهن ذبول
عزيزة قوم حبها قد أذلني * نعم كل من يهوى الجمال ذليل
أقامت عبيد الخال فى الخد حارسا * على الورد أن يسطو عليه جهول
وأحرزت الدرياق فى الثغر اذ رأت * أفاعى ذاك الشعر وهى تجول
تذكرت مالم أنس من وقفة لنا * خلال الثنايا حين جد رحيل
بكت فاستهل الكحل فى صحن خدها * فحاكى صدى الصمصام وهو صقيل
تقول نساء الحى إنى خليلها * كذبن فما للغانيات خليل
لئن كان بعد البين قد حال عهدها * فمهد الهوى فى القلب ليس يحول

اسر الصبابة

تقول لقبى ربة الأعين النجل * أفق لا تقف بين الصوارم والنبل
قد استعبدته عينها وهى عبدة * فياويل عبد العبد ذل على ذل
فتاة يغار العقد من حسن جيدها * وتضحك عجبا مقلتاها على الكحل
بكيت وقد أرخت سدول قناعها * فقلت جرت هذى السحابة بالوبل
مهفهفة الأعطاف تخطر كالقنا * بمعتدل لاشىء فيه من العدل
تكاد لهضم الكشح تجعل عقدها * نطاقا كما يستبدل المثل بالمثل
أسالت على وردالخدود ذؤابة * لخوف ذبول قد تلقته بالظل
وخطت لخوف العين بالوشم رقية * على معصميها كالفرند على النصل

لا يستطيع بخيل ان يجود ولو * حوى من المال ما لا تحمل الابل
وكلما رمت تشديد الجبان على * شجاعة زاد فيه الجبن والفشل
ان الكريم الذي لا مال في يده * مثل الشجاع الذي في كفه شلل
والمال مثل الحصى ما دام في يدنا * فليس ينفع الا حين ينتقل
ان الذي قسم الأخلاق قد قسم الا * أرزاق تجري الى ان يقسم الاجل
يارب قوم سعوا بالجهل فانتصروا * ورب قوم سعوا بالعقل فانخذلوا

وصف أبيات

أخذَتْ نحوي سبيلا * فسقتني سلسبيلا
بنت فكر من خليل * قد شفت مني غليلا
ذقت منها مَنّ لفظ * كان بالسلوى كفيلا
ومعانٍ كنسيم ال * روض إذ هب أصيلا
هيَّجت عندي شجونا * سكنت دهراً طويلا
وبَنَتْ للشوق عندي * أربُعا كانت طلولا

رقة الهوى

أجارتنا هل للنسيم وصول * إليك فلي منه الغداة رسول
مضى وأراه لم يعد فلعله * قضى نحبه إذ راح وهو عليل
تمنعت بين الشوس والبيض والقنا * وكل بمنع الطارقين كفيل
وما كان يجدي لو برزت من الحمى * وأنت على عهد النفار جفول

عروس الزهر

هذه عروس الزّهر نقطها الندى * بالدر فابتسمت ونادت معبدا
لما تفتق سترُها عن رأسها * عبث الحياء بخدها فتوردا
فتح البنفسج مقلة مكحولة * غمز الهزار بها فقام وغردا
وتبرجت وُرق الحمام بطوقها * لما رأين التاج يعلو الهدهُدا
بلغ الازاهر ان ورد جنانها * ملكُ الزُّهور فقابلته سجدا
فرنا الشقيق بأعين محمرة * غضبا وأبدى منه قلبا أسودا
بسط الغدير الماء حتى مسه * برد النسائم قارصا فتجعدا
ورأى النباتُ على جوانب أرضه * مهدا رطيبا لينا فتوسدا
يا صاحبيّ تعجبا للملابس * قد حاكها من لم يعد لها يدا
كل الثياب يحول لون صباغها * وصباغ هذه حين طال تجددا

الغرائز

تناقض الرأى بين الناس والعملُ * والكل يرضى بما فيه و يقتبلُ
ان كان ذلك مقبولا برُمته * فليس بين الورى عيب ولا زلل
الناس فى الارض كالأشجار قام بها * حلو ومر ومعوج ومعتدل
وكل صنف له وقت يراد به * فلا يصح له من غيره بدل
من كان فى الناس مولوداً على صفة * فليس للناس فى تغييرها أمل
اذا تمكن خلق السوء من رجل * كما اذا استحكمت فى جسمه العلل

وكل مافوق وجه الارض تنظره * يطوى على عدم فى ثوب موجود
بئس الحياة حياة لارجاء لها * ما بين تصويب أنفاس وتصعيد
لا تستقر بها عين على سنة * الا على خوف نوم غير محدود
ماأجهل المرء فى الدنيا وأغفله * ولا تحاشى سليمان بن داود
يرى و يعلم مافيها على ثقة * منه ويغترها بالمواعيد
كل يفارقها صفر اليدين بلا * زاد فما الفرق بين البخل والجود
يضن بالمال محمودا يشاب به * طوعا و يعطيه كرها غير محمود
هان المعاد فما نفس به شغلت * عن ربة العود أو عن رنة العود
ياأعين الغيد تسبينا لواحظها * قفى انظرى كيف تمسى أعين الغيد
يبدو الهلال و يأتى العيد فى أنق * ماذا الهلال وماذا بهجة العيد
يوم لغيرك ترجوه وليس له * كل ليوم غداة البين مشهود
قد صغر الدهر عندى كل ذى خطر * حتى استوى كل مرحوم ومحسود
إذا فجعت بمفقود صبرت له * انى سأترك مفجوعا بمفقود
يامن له منه أهل لا جزعت على * أهل وهل لك ركن غير مهدود
لسنا نعزيك اجلالا وتكرمة * فانت أدرى ببرهان وتقليد
لكل داء دواء يستطب به * وليس للحزن الا الصبر مجهود
والصبر كالصدر رحبا عند صاحبه * فان صبرك مثل البيد فى البيد
لله أية عين غير باكية * ترى وأى فؤاد غير مفؤود
ان كان لابد مما قد بليت به * هان البلى بين موعود ومنقود
حاشاك من خطة للقوم باطلة * منها الاسى لفوات غير مردود
فالحلم فى القلب مثل السور فى بلد * والعلم فى العقل مثل الطوق فى الجيد

على ذاك الكثيب لنا سلام * يكاثر في الكثيب الفرد رملا
كثيب قام فيه رشيق عطف * نشبهه بغصن البان جهلا
رشا في الحي تغزل مقلتاه * ترى من علم الغزلان غزلا
اذا اتحفت عينيه بكحل * يقول أراك تهدي الكحل كحلا
رويدك أيها الجاني بطرف * فكم جنت الليالي السود قبلا

لقد جمعت به النيلين مصر * ولكن أشرف النيلين أحلى
هما النيلان من ذهب وماء * قد اجتمعا فليس تخاف محلا
يمين تملأ الآفاق جودا * وقلب يملأ الاقطار عدلا

عزاء

لا تبك ميتا ولا تفرح بمولود * فالميت للدود والمولود للدود[1]

---

(١) وهي قصيدة عزى بها الشيخ أحمد فارس عن وفاة بعض أنسبائه . ولمطلع هذه القصيدة نادرة لطيفة نوردها هنا على سبيل الفكاهة : لما قدم الشيخ خليل اليازجي مصر كان فيمن لقيه من أهل الفضل الاديب المرحوم الشيخ محمد النجار المصري صاحب جريدة الارغول فجرت بينهما محاورة أدبية انتهى فيها الكلام الى ذكر الشعر والشعراء فقال الشيخ النجار للشيخ خليل : أظن أن والدك أشعر السوريين ؟ فقال الشيخ خليل : نعم . فقال وأظن ان أحسن شعره قصيدته « الدودية » ؛ فدهش الشيخ خليل وقال وايش هي القصيدة الدودية ؛ فقال : التي مطلعها .

لا تبك ميتاً ولا تفرح بمولود * فالميت للدود والمولود للدود

فقال : نعم انها خير ماقال في العزاء . فقال النجار واذا سلمنا للقائلين بأن خير القصائد مطالعها كان هذا البيت خير شعر السوريين كافة فاسمع مافيه من العيوب أما الشطر الاول فمسروق من قول الشاعر

ان دام هذا ولم تحدث له غير * لم يبك ميت ولم يفرح بمولود

وأما الشطر الثاني « أديك شايفه بينغل »

لاوالذى خلق الميـاه فما به * الارُضاب كوثرىُّ المطعم
وأجـله عن أن أقول بأنه * شهد جنته النحل لا يروى الظمى
نقل الرواية طيب منطقه وما * ذقنا وكان الورد أبرد مغنم
ألوى علىّ فضمنى وضممته * وصـدورنا بصدورنا لم تعـلم
اهوى عليه وفىّ عفة يوسف * حتى يميـل وفيـه عفة مريم
فيروح بين صبابتى وحنينه * وأروح بين حديثه وتبسمى
خضنا مليًّـا فى الحديث كما جرى * وكأننا للشـوق لم نتكلم
حتى رجعت كما رجعت وأخمصى * متأخر فى نيـة المتقـدم
ياليلة سمح الزمان ببعضها * بعض السماح وليته لم ينـدم
قد كنت أرجومثلها فبلغته * والحادثات تقول طرفك فاسلم
حتى دخلت الدار ساعة غفلة * وعرفت ربع الدار بعد توهمى
فكأن كل الدهر مدة لحظة * وكأن كل الارض دارة درهم

سعيد باشا

قفا بين الثنيـة والمصـلى * على جبـل دنا حتى تدلى
وان أبصرتما نارا فقولا * ترى أىّ القلوب عليك يصلى
من العرب الـكرام كماة حرب * تناظرهم كرائم لسن عزلا
اذا ما أرهفوا نصـلا لقتـل * فهن أشـد بالاجفان قتـلا
رجال ينحرون البذل جودا * وغيد تنحر العشاق بخـلا
ترى نار القرى فى الحى تعلو * ونيران الهوى أعلى وأغلى

طويس،[١] لو رمى الله بك أصحاب الفيل ، أغنيت عن الطير الأبابيل . فنظر الى شذرا ، وأنشد يقول شعرا

لا خير في الناس دعني * افتك بهم يافلان
فليس فيهم رجاء * وليس منهم أمان
ياليت ألف طبيب * مثلي يسوق الزمان
فكلما قصر العيش * يقصر العصيان
نخفف عنهم عذاب الا * أخرى وقل الهوان

ثم قال هذه معذرتي فان شئت القبول ، و إلا فدع عنك الفضول ، و إذا فارقتني فقل ماشئت أن تقول . ثم ولى يهرول ، والنائحات تولول ، وهو يقول لوقدرت أن أدفع الموت لبقيت إلى الابد ، ولوشفى الطبيب كل مريض لم يمت أحد . فرجعت أقول هاهنا كل العجب ، لا بين جمادى و رجب

نبذ من شعره

« غزل الصبي »

اتظن هذا الخال فوق المبسم * الا عبيدا حارسا در الفم ؟
وتظن هذا الدر دراً حوله * ماء كماء البحر مثل العلقم ؟

---

(١) كان من مخنثي المدينة مغنياً ظريفا ينقر بالدف عارفا بأمر المدينة وأنساب أهلها . ولذا كان متقى للسنه ، سئل عن مولده فقال ولدت يوم قبض الرسول وفطمت يوم مات أبو بكر وبلغت الحلم يوم اغتيل عمر وزوجت يوم قتل عثمان وولدلي يوم قتل علي وكانت أمي تمشي بالنميمة بين نساء الانصار . فلهذا ضرب به المثل في الشؤم

يشكل على الالباء، وتناقش به فحول الاطباء ، فان شئت جعلنا الساعة موعداً، وأتيناك بها غداً ، قال ذاك اليك ، فنهض وقال السلام عليك . وخرج وهو قد اعتضد الصولجان ، وانساب انسياب الافعوان . قال سهيل فابتدرت الخروج على الاثر ، قبل أن يتوارى عن النظر ، فأدركته عن أميال يسير ، وهو ينشد كحادى البعير

الحمد لله وللفرار * فقد نجوت من فضوح العار
أفلت من جرادة العيار * مالى وللنضال والحوار
ماأنا بالرازى ولاالبخارى * وليس لى فى الطب من أسفار(١)
أدرسها فى الليل والنهار * وسائل مماحك مهزار
يسألنى عن غامض الاسرار * جعلت مثل الخادع الفرار
موعده الساعة فوق النار * فقل له صبراً على انتظارى

قال فما استتم الانشاد ، حتى وقفت له بالمرصاد ، وقلت عهدتك بالامس خطيباً ، فمتى صرت طبيبا، فقال: البس لكل حالة لبوسها ، إما نعيمها و إما بوسها . دخلت ياابن أخى هذا البلد ، وأنا غريب لا سبد لى ولا لبد ، (٢) فرأيت الاديب عند أمته ، أهون من قُعيس على عمته ، (٣) فلما رأيتهم معارج لا ترتقى ، وأراقم لا تقبل الرقى ، جردت المبضع والمشراط ، وسأستغفر الله لى ولهم إذا وقفنا على الصراط . قال و بينما نحن كذلك إذ صاحت الصوائح ، وعلا ضجيج النوائح . فقلت له قاتلك الله ماأقتلك ، وأحبط علمك وعملك ، قد كنت أهون من قعيس ، فصرت أشأم من

(١) أما الرازى فهو محمد بن زكريا صاحب كتاب الحاوى فى الطب . وأما البخارى فالمراد به أبو على بن سينا صاحب القانون والشفاء (٢) السبد الشعر واللبد الصوف (٣) رجل من الكوفة زار عمته فى الشتاء وكان بيتها ضيقا فأدخلت كلبها الى البيت وتركت قعيساً خارجا فمات من البرد

وصف له الامام ابن عاتكة ، أن يسقى شراب الملائكة ،(١) لكنه لا يشترى الا بمائة درهم ، فان بذلتها نجوت من البلاء الادهم ، فدفعها اليه وقال حبا وكرامة ، إن ظفرت بالسلامة . قال وكان أهل المريض قد استضعفوا رجاء الشفاء ، ورأوا طبيبهم كالكاتب على صفحات الماء ، فاستحضروا بعض نُطُس الاطباء ، ووافق تلك الساعة وفده عليه ، فدخل وهو يتهادى بين بُرديه ، ثم جلس والشيخ يصوّب طرفه ويُصعّده اليه . فقال إن شئت أن تتحفنا بمعرفتك ، فذلك من عارفتك . قال أنا من أطباء جزيرة العرب ، كنت قد انتصبت للتدريس حتى انقطع الطلب ، فاعتزلت عن مزاولة العلاج واصطناع الادوية ، وخرجت أتفقد العقاقير فى الجبال والاودية . فعظم الشيخ فى عين الطبيب ، وأراد أن يسبر غوره ليرى أيخطئ ظنه أم يصيب . فقال يامولاى إنى رجل من المتطببين ، وقد عثرت على مسائل أنا منها بين الشك واليقين . قال على الخبير بها سقطت ، فسل عما التقطت ، فان وجدت لذلك عبرة ، أعطيتك الجواب صبرة ، (٢) قال كيف يتركب السرسام (٣) مع البرسام ، وماهى مقادير الاخلاط بالنسبة الى بعضها فى الاجسام ، (٤) وماهو المراد عند الاول ، بقسمة الطب الى علم وعمل ، وماهى الكيفية المنفعلة والكيفية الفاعلة ، (٥) وماهى الاسباب السابقة والبادية والواصلة ؟ (٦) فقال الله أكبر إن الحديث ذو شجون ، وان لك أجراً غير ممنون ، لقد ذكرتنى مائة من المسائل ، جمعتها فى بعض الرسائل ، وهى مما

(١) ليس لابن عاتكة ولا لهذا الشراب أصل فى فن الطب أو الاطباء غير أنه أتى بهما ترويجا لحيلته في الحصول على بغيته (٢) جملة واحدة (٣) ورم الرأس

(٤) أما الابدان المتعدله فيكون فيها البلغم سدس الدم والصفراء سدس البلغم والسوداء ثلاثة أرباع لصفراء وأما غير المعتدلة فتختلف باختلاف الامزجة المتغلبة فيها (٥) المنفعلة: الرطوبة واليبوسة . والفاعلة الحرارة والبرودة (٦) السابقة كالطعام والشراب ونحوه . والبادية كالضربة والسقطة . والواصلة هى التي تكون سبباً لوجود المرض ولا يزول الا بزوالها كالحميات ونحوها

انساب بي الى منزله كالحباب، واذا غلامه الذي كان يخاصمه بالباب، فأشار اليه وأنشد

هذا غلاميَ الذي خاصمته * انى لمثل ذلك استخدمته
حتى اذا الصيد أتى قاسمته * بما كسوته وما أطعمته
وان تمادى الدهر بي علمته * ماقد أذعته وما كتمته
وهو مقام ولدى أقمته * فان ذخرت عنه أو أحرمته
عاقبني الله فقد ظلمته

قال فعجبت من أفانينه في المكر، وأساليبه في النظم والنثر، وعدلت اذ ذاك عن الرحيل الى المقام، حتى أراد الشخوص الى الشام، فانطلق الى دار الحرب، وانطلقت الى دار السلام

المقامة الشامية

أخبر سهيل بن عباد قال: دخلت يوما على صاحب لي بالشام، أعوده من داء البرسام، [1] فجلست بازائه، وأنا أستخبره عن دائه، وبينما هو يبث شكواه، ويتأوّه لبلواه، اذ قيل قد جاء الطبيب، فقلت قطعت جهيزةُ قولَ كل خطيب، ونظرت فاذا رجل قد أقبل يجر ذيل طيلسانه، ويقرع أديم الأرض بصولجانه، حتى دخل فسلم، ثم جلس معرضا ولم يتكلم، فتوسمته واذا هو شيخنا ابن خزام، فاحتفزت [2] للقيام، وأردت أن أستأنف السلام، فاومض اليّ بجفنيه، [3] واستوقفني عن التسليم عليه. فقال له المريض يامولاي أرى ان صدري قد ضاق، وتواتر عليّ الفُواق، [4] فقال ذكر الاستاذ بقراط، ان ذلك يدل على نضج الأخلاط، وقد

(١) داء يعتري الصدر (٢) تهيأت (٣) أشار (٤) ريح يتردد في الصدر

غلمانه، وقال له شيع الشيخ الى بحبوحة الربع، وخذ منه دينار المنع . فقال الشيخ: أراك أيها الإمام، قد جعلت زادك مخ النعام، (١) ولقد بلوتك لأرى هل تحكم بالقسط بين الناس، فوجدتك تميل الى حيث ترجو ثمالة الكاس، أو تجهل إخراج القضايا على مقتضى القياس، فلأهجونك بما لم يهج به قاض من قبل، ولأشكونك الى من يؤدبك بالعزل، أو تشترى عرضك مني ولي عليك الفضل . فندم القاضي على قضائه الخاسر، وقال هذا جزاء مجير أم عامر، (٢) ثم أقبل على الشيخ وقال: قد فرضت في مالي من الزكاة نصابا، فخذه وسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا . قال: فلما قبض الشيخ الذهب، نهض وقال لي يارجب، خذ من القاضي دينار الأدب، فقال القاضي: انني بحكمك راض، فاقض ما أنت قاض، فتلقفت الدينار وخرجنا للحين، والقاضي يقول: ان الله لا يضيع أجر المصلحين . ولما فصلنا عن المكان، دعوت الشيخ الى منزلي بالخان، فقال ان نفسي لا تطيب بمقام، حتى افتقد الناقة والغلام، قلت وماذاك يا حُمة العقرب؟ (٣) فضحك حتى استغرب، (٤) وقال: أما الناقة فركوبتي التي جرت على أجرتها المخاصمة، وأما الغلام فخصمي الذي رأيته في المحاكمة، فقلت وماذا حملك على أن تحبط عملك؟ قال: وصلت الى هذه البلاد، وقد خلت وفضتي من الزاد، فتوصلت الى القاضي بسبب لعلمي انه أطغى من فرعون ذي الأوتاد، وأبخل من كلاب بني زياد، ورصدت له حتى طلب دينار القضاء، فكان عليه أشأم من رغيف الحولاء . (٥) فقلت له لله درك ما أطول باعك، وأهول قاعك . قال من ليس يؤخذ بالبنان، نخذه بالسنان . ثم

---

(١) هو مثل للممتنع وجوده (٢) كنية الضبع (٣) شوكتها التي تلدغ بها
(٤) بالغ في الضحك (٥) هي امرأة من العرب قيل أن رجلا خطف رغيفاً عن رأسها فشاجرته واتسع بينهما الخصام حتى اتصل بالحلافهما فقتل فيه ألف رجل

شيخاً بمال ، والشيخ يتبرأ من طلبه ، مالم يحكم الشرع به ، فتنافدا [١] الى القاضي بسببه ، قال : وكنت قد تبينت أن الشيخ صاحبنا ميمون ، فابتهجت كاني أوتيت مال قارون ، وتبعته الى دار القضاء لأنظر ماذا يكون . فلما دخلا على القاضي نظر الى رثاثة بُرديه ، فلم يحفل بالرد عليه ، فأخذت الشيخ الحمية ، حمية الجاهلية ، وقال : أراك قد ارتكبت الخلة المنهيّ عنها ، فقد قال الكتاب : اذا حُيّيتم بتحية فحيُّوا باحسن منها ، فان كنت تعتبر الخلوق دون الاخلاق ، [٢] فهاك مدارج الخز في الأسواق ، وإلا فانظر الى الألباب ، دون الجلباب ، فإن المرء باصغريه [٣] ، لا بثوبيه ، قال : فخجل القاضي واعتذر اليه ، وقد عظم في عينيه ، وقال : هل للشيخ دعوى ترفع ، قال : لا بل لصاحبنا دعوى لا تسمع ، فاشار القاضي الى الرجل ، وقال : تقدم فقل . فقال : يامولاي تطعم العبد الكراع فيطمع في الذراع ، إن هذا الشيخ قد استأجرني ناقة مهرية ، [٤] في الديار المصرية ، وقال اذا بلغنا اليمن لا أسلمك الزمام ، حتى أسلمك الأجرة عن تمام ، فرخصت له في النسيئه ، [٥] وغفلت عن الخبيئة ، فلما بلغنا موطىء القدم ، اذا هو أضبط من عائشة بن عُثم ، [٦] فأمسك المطية ، فضلا عن العطية . فقال القاضي : ماتقول أيها الشيخ في دعواه ؟ فضحك حتى استلقى على قفاه ، وقال : قد جعلت تسليم الاجرة موعداً لتسليم الزمام ، فأنا لا أسلمه الأجرة والسلام . فعجب القاضي لافتنانه ، وأعجب بسحر بيانه ، وخاف من ظُبة لسانه . فقال للرجل نجعلها بين بين ، خذ العين واترك الدين ، فويل أهون من ويلين ، فقال اذا لم يكن غير هذا عند المولى ، فالرضى به أولى . ولما خرج الرجل لشانه ، أشار القاضي الى بعض

---

(١) ذهبا (٢) الثياب (٣) قلبه ولسانه وهو مثل (٤) نسبة الي رجل من العرب اسمه مهرة بن حيدان (٥) تأخير دفع الاجرة (٦) هو رجل من العرب كان أخوه ينزح بئرا واذا بكر من الابل قد اقتحم البئر فما كان أسرع من أن أخذ عائشة بذنبه وضبطه عن الهبوط ثم انتشله فضرب به المثل

ان العلم بتحقيق القضايا ، لا بتنميق الوصايا . فغلب على الرجل الوجوم ، ولعبت بالقوم الرجوم ، حتى قالوا للشيخ : مثلك من يستحق الامامة ، فهل لك عندنا إقامة؟ قال قد علمتم ان النقلة ثقلة ، ولا سيما مع تطارح الشقة ، وتطاوح المشقة ، فان خففتم عني بالامداد ، أتيتكم كورى الزناد . فنفحوه بعدة من الدنانير ، وقالوا استعن بالله والله على كل شيء قدير . قال سهيل : فلما فصلنا عن المكان أخذ الشيخ مجلساً مكتوماً ثم برز فناولني طرساً مختوماً ، (١) وقال : اذا أصبحت فألقه الى القوم ، ولا تثريب عليك ولا لوم ، فأجبته الى ما طلب ، واذا به قد كتب

أناذاك الطبيب و إن طبّي * لنفسي لا لزيد أو لعمرو

وما عالجت سقم الناس يوماً * ولكنّي أعالج سقم دهري

اذا ما مسني ضنك فعندي * جوارش حيلة وشراب مكر

فلما وقفوا على أبياته ، تعوذوا بالله من آفاته ، وقالوا ان لم يكن طبيباً ، فكفى به لبيباً ، فهل لك أن ترده علينا لظرفه ، ان لم يكن لعرفه ، قلت ذاك مما لا يقرب ، فانه أجول من قطرب ، (٢) و رجعت الى موعدنا أمس ، فوجدت انه قد أفل قبل الشمس

المقامة اليمنية

حكى سهيل بن عباد قال : لفظتني احداث الزمن ، (٣) الى مشارف اليمن ، فخلتها أنكر من شيء ، وأنقل من فيء ، لا أعرف بها جليساً ، ولا أجد لي أنيساً ، فلما مللت الاقامة فيها ، هممت بالرحيل عن فيافيها ، فرأيت رجلاً في الرجال ، يطالب

(١) صحيفة (٢) دويبة لا تمل الليل تجوالا (٣) طرحتني

السبب ، واحرص على القوة فإنها الى الحياة سبب ، وبالغ في الدواء ، ماشعرت بالداء ، ودعه متى وثقت بالشفاء ، واذا استغنيت بالمفردات ، فلا تعدل الى المركبات ، واذا اكتفيت بالأغذية ، فلا تتجاوز الى الأودية ، واذا تعاظم العرض ، فاشتغل به عن المرض ، واعتمد الحمية الواقية ، مادامت العلة باقية ، واحذر دواعي النكس ، فانه شر من العلة بالأمس ، واعلم ان التجربة خطر ، فكن منها على حذر ، والعلاج بين استفراغ الحاصل ، وقطع الواصل ، والصحة تحفظ بالشبه وتسترد بالنقيض ، والحمية للصحيح كالتخليط للمريض ، واستعمال الدواء حيث لا يحتاج ، كتركه عند حاجة العلاج ، ألمضر اليسير ، خير من النافع الكثير ، وكل ماعسر قضمه ، شق هضمه ، ومن كثرت تخمه ، تفاقم سقمه ، وأكثر الأوصاب ، يكون من الطعام أو الشراب ، فاحفظ عني هذه المواعظ ، واحتفظ بها والله الحافظ . قال فلما فرغ من كلامه الموضون ، برز شيخنا الميمون ، وقال : اني لأراك من أهل الفضل والفصل ، وأرباب العقل والنقل ، ولقد عثرت على مسائل ، في كتب الأوائل ، فهل تأذن بدفع الظنّة ، ولك المنة ؟ قال حبذا ، فقل إذا . قال : ماهو الدشبذ ،(١) وكم هي الدلائل التي تؤخذ ،(٢) وماهو أعدل الاعضاء ،(٣) بالنسبة الى بقية الأجزاء ؟ فأخذ الاستاذ في تقليب رأيه ، حتى أفرط في لأيه ، ثم قال : ان الانسان موضع النسيان ، فهل من مسائل أخرى ، لعلي أصادف بها الذكرى ، قال قد رميتك بالفصيح فاستعجم ، فهل تفرق من صوت الغراب وتفترس الأسد المشبم ، هيهات

---

(١) هو المادة الغضروفية التي تنبت على طرف العظم ليلتحم بها (٢) الدلائل ثلاثة . المذكرة وهي التي تذكر الطبيب بما مضى من الاعراض فيستدل به على سبب المرض وكميته . والحاضرة وهي التي تدل على حقيقة المرض الحاصل . والمنذرة وهي التي تدل على ماسيحدث

(٣) أعدل الاعضاء مزاجا بالنسبة الي غيره من أجزاء البدن جلدة طرف السبابة .

وهي حافلة بالطلبة ، وقد قام في صدرها شيخ طويل الأرنبة ، عظيم المرتبة ، فقال : الحمد لله الذي شرف علم الأبدان ، حتى قدم على علم الأديان . اما بعد فان هذا العلم أفضل علوم الدنيا جميعاً ، لانه أشرفها موضوعا ، وهو أدقها نظرا ، وأجلها خطرا ، وأقدمها وضعاً ، وأعظمها نفعا ، وأغمضها سريرة ، وأوسعها حظيرة ، وهو يستطلع الخبايا ، ويستوضح الخفايا ، حتى قيل انه وحي قد هبط على الأطباء ، كما هبط الوحي على الانبياء وصاحب هذه الصناعة ، أروج الناس بضاعة ، وأربحهم تجارة ، وأشهاهم زيارة ، وأكسبهم أجرة وأجراً ، وأنفذهم نهيا وأمرا ، وعليه مدار الأعمال والمِهَن ، وقيام الفروض والسنن ، فان كل ذلك لا يتم الا بصحة البدن ، وطالما كان هذا الفن أعز من جبهة الاسد ، حتى اغتاله الجهلاء فأوثقوا جيده بحبل من مسد ، فواهاً له كيف ثُل عرشه ، وآها لعليلهم كيف قُل نعشه ، قال : وكان في الحضرة فتى باهر اللطافة ، ظاهر القضافة ، فقال : يامولاي أني قد منيت بجهل المتطببين الرعاع ، الذين لا يعرفون الصافن من حبل الذراع ، (١) فلعلك توصيني بما يكون غنية اللبيب عند غيبة الطبيب ، فأطرق هنيهة للتروية ، وهب في التوصية فقال : يابنيّ لا تجلس على الطعام الا وأنت جائع ، وقم وأنت بما دون الشبع قانع ، وباكر في الغداء ، ولا تماسّ في العشاء ، والزم الرياضة على الخلاء ، واجتنبها عند الإمتلاء ، ولا تُدخل طعاما على طعام ، ولا تشرب بعد المنام ، ولا تكثر من الالوان ، على الخوان ، ولا تعجل في المضغ والازدراد ، واجتنب كل مالم يَنْضَجْ وما بات من الطعام فهو مجلبة الفساد ، واذا أمكنتك الوجبة ، (٢) فهي أفضل نخبة ، واقطع العادة المضره ، مرة بعد مرة ، وعليك بتنقية الفضول ، في معتدلات الفصول ، واذا مرضت فقابل

(١) المتطبب هو المحترف الطب بغير علم ولا يستطيع أن يفرق بين الصافن الذي هو عرق في الرجل وبين حبل الذراع الذي هو عرق في اليد . (٢) الأكلة الواحدة في النهار

عباد، فتوسمته من تحت اللثام، وقلت: قاتلك الله ولو كنت ميمون بن خزام . فضحك ثم كبّر، وقال: الاجتماع مقدَّر. ثم قال: الطعام ياغلام، فأحضر ماتسنّى، ثم اندفع فتغنى . قال: فكان عندي أنس ذلك اللقاء، أطرب من شدو سلامة الزرقاء، (١) وبت معه ليلة من ليالي الدهر، أحسبها خيرا من ألف شهر، حتى اشتعل رأسها شيبا، وعط (٢) الصباح لديجورها جيبا، فاستوى الشيخ على القتب، وقال: أجيبوا داعي الله الى ما كتب . فأوفضنا في مفازة صلدة، (٣) حتى أفضينا الى بلدة، بها مدرسة للطب عن الحرث بن كلدة، (٤) فحللناها حلول النون في القفار، أو الضب في البحار . ولما انجابت وعكة السفر، خرج الشيخ في ارتياد الظفر، حتى أتينا المدرسة

(١) كانت من أحسن القيان وأطربهن صوتا وأطيبهن غناء . ابتاعها جعفر بن سليمان الاموي بثمانين ألف درهم . غنت يوما بحضرة معن بن زائدة، وروح بن حاتم المهلبي وابن المقفع، فطرب منها طربا هز فيه أريحية الكرم فأفرغ بين يديها بدرة من المال وتابعه على ذلك روح ولم يكن لدى ابن المقفع مال فأعطاها صكا بضيعة كانت له (٢) شق (٣) أي أسرعنا في فلاة صلبه (٤) كان الحرث هذا من أطباء العرب المعدودين . زعموا أنه وفد على كسرى أنوشروان فلما مثل بين يديه قال له كسري: من أنت؛ قال أنا الحرث بن كلدة الثقفي . قال فما صناعتك؛ قال الطب . قال أعرابي أنت؟ قال نعم من صميمها وبحبوحة دارها . قال فما تصنع العرب بطبيب مع جهلها وضعف عقولها وسوء أغذيتها؟ قال: أيها الملك اذا كانت هذه صفتها كانت أحوج الى من يصلح جهلها، ويقيم عوجها، ويسوي أبدانها، ويعدل أمشاجها، فان العاقل يعرف ذلك من نفسه . قال كسري فكيف تعرف مايورده عليها ولو عرفت الحلم لم تنسب الي الجهل . قال: الطفل يناغى فيداوى والحية ترقى فتحاوى . فأعجب كسرى بكلامه وقال: فما الذى تحمد من أخلاقها، ويعجبك من مذاهبها وسجاياها؛ قال الحرث: أيها الملك لها أنفس سخية، وقلوب جرية، ولغة فصيحة، وألسن بليغة، وأنساب صحيحة، وأحساب شريفة، يمرق من أفواههم الكلام مروق السهم من نبعة الرامى، أعذب من هواء الربيع وألين من سلسبيل المعين، مطعموا الطعام في الجدب، وضاربوا الهام في الحرب، لايرام عزهم، ولا يضام جارهم، ولا يستباح حريمهم، ولا يذل كريمهم، ولا يقرون بفضل للانام الا الملك الهمام، الذي لايقاس به أحد، ولا يوازيه سوقة ولاملك . فأجله كسرى غاية الاجلال وأجلسه فى حضرته وسأله عن طبه وتطبيبه فأجابه بما يتلخص فى الوصية التي بهذه المقامة . وأنى أرجح أخذ اليازجى وصيته منها

ويعرفون حقهم . وكانوا يقيمون مدارس فى علوم شتى حيثما وجدوا لها موضعا ، ويغمرون المشايخ والطلبة بالعطايا والاحسان ، فكان الناس يدخلون فيها أفواجا وينعكفون على تحصيل ما يستطيعون من العلوم حتى اذا استتم الرجل علمه خرج الى منصب أو وظيفة عند السلطان متمتعاً ببسطة الجاه والمال ، ومستغنيا عن جميع المهمات والاعمال ، فيتفرغ للتوسع فى العلوم وانشاء المصنفات فيها وبذلك يكون مثالا لغيره فى طلب العلم والتجرد له

ومازال ذلك كذلك حتى سقطت رغبة الملوك فى العلم فانقطعت أسباب الطلب وتعطل السعى فى تحصيله ، ودثرت مصنفاته ، وأفنى الدهر أهله حتى فقد كثير من هذه العلوم فلم يعرف لها عين ولا أثر ، وجرت بقيتها على آثاره لولا أن تداركها الله بهذه الدولة المجيدة السعيدة التى أحيت ما مات من آداب الاولين والحمد لله رب العالمين

المقامة الطبية

حكى سهيل بن عباد قال : خرجت على فرس جموح ، (١) الى نية طروح ، (٢) فأزعجنى هملجة وخببا ، (٣) وأرهقنى صعدا وصببا ، حتى انهكنى اللغوب ، (٤) وأعيانى الرُّكوب ، فنزلت لأقيل ، وأستقيل ، واذا ناقة ترعى ، وهى تنساب كالأفعى ، فوقفت استشرف الهضاب والوهاد ، وأنا أريد أن ابدلها بالجواد ، واذا شيخ قد انقض عليّ كنسر لقمان بن عاد ، وقال : هلكت ولو كنت سهيل بن

(١) الفرس الجموح المستعص على فارسه (٢) النية هنا بمعنى الجهة التى ينوي المسافر السفر اليها والطروح النائية البعيدة (٣) الهملجة أشد الركض ، والخبب الركض المضطرب (٤) أى حملنى من اضطرابه فى سيره ما لا قبل لي باحتماله حتى انهكنى اللغوب أعني التعب الشديد

المتعلقة بها مما يطول بيانه حتى يكون من لم يدرك منها غير المتعارف بين العامة كمن أصاب سقطا قد ضربته الريح الى خارج البستان وفاته ما في داخله من الثمار الصالحة الكثيرة المختلفة الأنواع

ثم اتسعوا في العلوم الشائعة فتداولوا علم المنطق وكان أسبقهم اليه الشيخ الرئيس الحسن بن عبد الله بن سينا البخاري وهو الذي استوفى حق الصناعة الطبية غير أنه كان قد سبقه الى شيء من ذلك الشيخ محمد بن زكريا الرازي . وكثيرا ما تشتمل مؤلفاتهم على فنون من هذه الصناعة كالبيطرة وهي طب الخيل ، والزردقة وهي طب الطيور . وقد يتعرضون لشيء من البزردة وهي صناعة الغرس وأوقاته ، والفلاحة وهي صناعة الاغراس ومغارسها . وكان كثير من الاطباء المحققين يضمون الى علم الطب علم الطبيعيات لعلاقة بينهما في الاحكام المزاجية وغيرها ، وعلم النجوم لتأثير الاجرام العلوية في الأبدان ، وعلم الموسيقى لمعاضدته في أحكام النبض ، ولهم في ذلك مؤلفات لا تحصى

ومما أفرغوا كنانة الجهد فيه علم الفقه ، وهو ثلاثة أطراف . أولها العبادات وهي ما حق لله على الناس ، والثاني البيوع وهي ما حق للناس على الناس في المعاملات ، والثالث الفرائض وهي ما حق للأحياء من الأموات . ومن علومهم أيضاً علم الحساب ، وهو لازم للفقيه المحقق لاستخراج السهام المجهولة ، وقسمة السهام المعلومة ، ويتصل به علم الهندسة والمساحة ، ومن علومهم علم الالٓهيات ، وعلم الآداب ، وعلم الانساب ، والتاريخ ، وبين ذلك فنون قد تعللوا بها كالكهانة ، والفراسة ، وضرب الرمل ، وزجر الطير ، وقيافة الاثر ، ونحو ذلك

وكان الملوك ومن يليهم في الايام القديمة يعرفون كثيرا من العلوم ويتمكنون منها حتى كان منهم من يخطىء العلماء في بعض المسائل ، ولذلك كانوا يعتنون بشأن العلم والعلماء

ومنه ماتعرف به أحكام أبنية الألفاظ المتداولة فى المعانى المختلفة وهو علم الصرف وواضعه معاذ الهراء فيما قيل . ومنه مايعرف به تركيب الألفاظ الدال على أصل المعنى المراد وهو علم النحو وقيل واضعه على بن أبى طالب، وقيل أبو الأسود الدؤلى ، ونسبه بعضهم الى حماد بن سلمة . وهو أجل علوم هذه اللغة لاشتماله على الاعراب الذى هو دليل القارى، ومصباح السارى، وعليه مدار المعانى، واختلاف المبانى، كما هو فى نحو : لا تأكل السمك وتشرب اللبن، فان رفع تشربُ يدل على النهى عن الاول وإباحة الثانى، ونصبه يدل على النهى عن الجمع بينهما دون انفراد كل منهما على حدته ، وجزمه يدل على النهى عنهما جميعاً ، والواو على الرفع للاستئناف ، وعلى النصب للصرف ، وعلى الجزم للعطف . فقد تلاعب الإعراب بالمعانى والألفاظ جميعاً . كما تلاعب فى قولهم: ما أحسن زيدا . فان النصب يدل على التعجب من حسن زيد ، والرفع على نفى الاحسان عنه ، والخفض على الاستفهام عن أحسن مافيه . فتكون « ما » على الاول تعجبية وأحسن فعلا جامدا ، وعلى الثانى نافية وأحسن فعلا متصرفا ، وعلى الثالث استفهامية وأحسن اسم تفضيل . ولو أردنا الإتساع فى ذلك لأوردنا كثيرا من الصور المختلفة ، ولعل هذا لا يوجد فى غير هذه اللغة .

ومن علوم العربية ماتعرف به مطابقة ألفاظها للمعانى المقصودة بها فى التركيب وهو علم المعانى ، ومايعرف به ايراد المعنى الواحد بطرق مختلفة وهو علم البيان ، وواضعهما الشيخ عبد القاهر الجرجانى . ومنها ماتعرف به وجوه تحسين الكلام وهو علم البديع ، وواضعه عبد الله بن المعتز . ومنها ماتعرف به أحكام موازين الشعر وهو علم العروض ، وما تعرف به أحكام الأجزاء الملتزمة فى أواخر الابيات وهو علم القوافى، وواضعهما الخليل بن احمد . ويتصل بذلك فنون شتى، كعلم الاشتقاق، وأصول النحو ، وقرض الشعر، وإنشاء النثر، والفصاحة، والمحاضرة، والخط ، ومقاطع الحروف، والاحكام

آثار أقلامه

نخب من نثره

علوم العرب

لا يخفى أن العرب كانوا قوما أميين لا يعرفون القراءة ولا الكتابة الا القليل منهم ، ولم تكن عندهم علوم الا قليلا فى النجوم والطب عملا بالاستقراء والتجربة . غير أنهم كانوا فى أعلى طبقة من نباهة الفكر ، وفصاحة اللسان ، وسرعة الخاطر ، حتى كانوا ينظمون الشعر ارتجالا فيأتون فيه بما لا يقدر عليه غيرهم بعد التروية والاستعداد ، وهو أمر عظيم لا يعرف مقداره الا من كلف نفسه الهجوم عليه . ولم يكن لهؤلاء القوم أعمال يشتغلون بها فكانوا يصرفون همتهم الى تهذيب لغتهم والتفنن فيها حتى ذهبوا فى ذلك كل مذهب ، وساعدهم على التصرف فيها ما عندهم من الحذاقة ، فكانوا يجعلون لكل حكم من أحكامها وجها سديدا يحكم العقل بصحته ، فكانت باعتبار ألفاظها منقوله ، وباعتبار أحكامها معقوله . وما زالوا كذلك حتى ظهر الاسلام ودخلت فيه شعوب من الاعاجم ، فاختلطت اللغات وخيف الفساد على العربية ، فجعل لها روابط وضوابط تحفظها على أصلها عند ما يقف عليهن . فمن ذلك ما تعرف به مبانى الفاظها بحسب الوضع وهو علم متن اللغة ، ولعل واضعه أحمد بن المستنير الملقب بقطرب .

وسائر الامثال، وغريب الكلام، ولطائف اللغات، مما أبان عن علم واسع، واطلاع فائق . وهي مشهورة متداولة بين أيدي المتأدبين، طبعت مرارا

ديوان شعر — في ثلاث نبذ لطيفة الحجم، دعاها: النبذة الاولى، نفحة الريحان، ثالث القمرين . فيه من جيد الشعر مالا تكاد تجد بعضه في أكثر شعر من عاصره . وهو معروف متداول

شرح لديوان — المتنبي كان قد شرع في وضع هذا الشرح غير أنه لم يعلق عليه سوى بعض تفاسير وجيزة، ثم أتمه ببسط وإيضاح ولده الشيخ ابراهيم كما نظر في سائر مؤلفاته نظر تهذيب وإصلاح، وحذف وتصحيح

كتب مدرسية ما بين منظوم ومنثور في النحو والصرف والبيان والعروض وجلها مطبوع متداول ورأيت له كتابا اسمه (فاكهة الندماء) في مراسلات الادباء، فيه بعض ما دار بينه وبين أدباء عصره من المراسلات بالشعر فقط يظهر ان الذي جمعه هو عزيز أفندي زند

مُمَيِّزاتُهُ

إعتور الشعرَ العربيَّ في أيامه الأخيرة ضروبٌ من دخائل الصناعات ابتدعوها، وصنوف من البديع اخترعوها، ليست من الفطر العربية في شيء، ولا لها من الأثر الشعريّ لدى النفس ذلك المكان، ان هي الا أنصاب عنا لها متشاعروا المتأخرين، ولم يعرفها شاعر من فحول المتقدمين. فكانت للشعر قيوداً وأغلالاً رسف فيها حيناً من الدهر الى ان جاء الشيخ ناصيف، فكان له فضل تخفيفها عنه، و إبعادها منه، الا فيما اقتضاه حال زمنه من جناسات البديع، وحسابات التأريخ على قلة و إجاده. فأحسن فيما نظمه جزالة المباني والتراكيب، وأحكم سهولة المعاني والاساليب، محتذيا المتنبي في فخامة العبارة، و بارع الحكمة، وناصع الاشارة، وذهاب المثل، على وجه الزمن، مؤثراً إياه على غيره من الشعراء حتى كان يقول: كأن المتنبي يمشي في الجو وسائر الشعراء يمشون على الأرض. أما الكتابة فقد فات فيها أكثر أهل عصره إجادة و إحساناً، وسلامة وافتنانا، كما أبدع محاكاة المقامات، وجوّد صوغ العبارات تجويداً يذكر فهو في الكتابة والشعر في الطبقة الأُولى من صدور الأدباء، في ذلك العصر

مُؤَلَّفاتُهُ

مجمع البحرين — كتاب جليل حوى ستين مقامة في هزل القول وجده على نمط مقامات الحريري، أودعها فنونا من الآداب، وصنوفا من بديع الانشاء،

الحصول عليها لفتور الهمم عن نشرها وعدم توفر أسباب الطبع ، حتى لقد كان ربما أضطر الى نسخ الكتاب بأكمله مهما تعددت صحائفه ، وانكب عليها تفهماً واستظهارا ومما حفظه القرآن الكريم ، وديوان المتنبي ، وكان له به ولع عظيم وايثار فائق ، فنال حظاً وافراً من فنون الآداب ، وشهرة واسعة بين أبناء اللغة ، وفهماً نافذاً في فقه العربية . وكانت له سليقة نادرة في قرض الشعر حتى لهتف به وهو في أوائل العقد الثاني من سني حياته

ولما وري زنده ، وبلغ أشده ، وفد على الامير بشير الشهابي مع قاصدي بره ، ومنتجعي فضله ، من شعراء عصره ، فلقي منه حسن الرعاية وكريم المثوى ، حتى ألحقه ببطانته ، واختاره كاتباً لاسراره . ومازال في خدمته الى سنة (١٢٥٦ هـ ١٨٤٠ م) حيث نزعت حكومة لبنان من يد الامير ونفي الى مالطه . فانحدر الشيخ ناصيف الى بيروت وأقام بهامع ذويه ، وعكف على المطالعة والتدريس ، وتأليف الكتب للناشئين ونظم الاشعار ، ومراسلة الأدباء في الاقطار ، فذاع صيته ، وعلت مكانته ، فكان نجعة أهل الادب ، وشرعة أولي الفضل ، الى أن أصيب بفالج نصفي عطل شقه الأيسر سنة (١٢٨٦هـ ١٨٦٩ م) لكنه لم يؤثر في ذكائه النادر ، وفطنته العجيبة ، فما برح ينظم درر الاشعار ، وينثر غرر النثار ، الى أن فوجيء بوفاة ولده البكر حبيب ، فكان لمنعاه وقع سيّئ في نفسه ، فحاول رثاءه فخانته قريحته ولم يستطع ان يبكيه بأكثر من الأبيات التي تراها في نبذ شعره بعد . ثم مالبث بعده أياما حتى لحق به فمات فجئة في ٨ فبراير م ١٨٧١ فقام نعيه ورثاه أدباء عصره

الشيخ ناصيف اليازجي



ترجمته

هو ناصيف بن عبد الله اليازجي الشاعر الناثر المجيد ولد فى قرية كفرشيما من قرى ساحل لبنان سنة (١٢١٥ هـ ١٨٠٠ م) من أسرة كريمة من أسر لبنان المسيحية. وكان والده عبد الله متطبباً على نهج ابن سينا فعهد بتأديب ناصيف الى أحد القسوس فتلقى عليه مبادئ القراءة والكتابة. ثم صبت نفسه الى الدرس والمطالعة فتطلب كتب الادب وأصول اللغة وقواعد النحو ودواوين الشعراء، فكان يعانى المشاق فى

فليت القلب كان لها لباسا * وصاحب قلبه عبدا لديها

الادوار وأمثالها

هات راحى ياحياة الانفس * فشفائى فى شفاه الاكؤس
فوق مرج مكتس بالسندس * يبسم الورد لعين النرجس

زفها بالناى لى البكر العروس * أخذ العقل لها المهر القسوس
حين تملا ينتفى عنك العبوس * كلما قد أحسن الدهر تسى

من أدوار

يامن على خده دينار * صرفت فيه فضة دمعى
جدلى ببوسة قال دينار * والبوس محرم فى شرعى

من طلعتك بدر الافراح * والشمس هى الفراحى
حسنك عليه راحت الارواح * والثغر فيه روحى وراحى

قلبى على قدك يحكى * طيره على عصن السروه
تضحك ومن صدك أبكى * ومحبتك مره وحلوه

الدمع من عينى جارى * والورد من خده جورى
والوجد قال لى ياجارى * قل للعيون فينا جورى

الحب روضة

جناين العشق فيها اشجار وفيها انهار * فيها البلابل وفيها الليل وفيها نهار
فنزهة النفس وجهه والشعور أستار * على العقول فوق أعطافه ودمعى احتار

تهنئة المرحوم رياض باشا برتبة مهردار

لعباس باشا الاول سنة ١٢٦٩

ياحفيظا على الختام عليما * وأمينا بكل مدح جـدير
خاتم الملك فى يمينـك يمن * رسمه الاصفى نعم النصـير
نافذا أمره به ختم الله * على قلب حاسد ذى نـكير
دمت فى نعمة وجاه وعز * وسـترقى بطول عمر وزير

وقال مضمنا

قد قلت لما بدا يختال فى خفر * وهز عطفا كغصن البان ممشوقا
هذا الذى ترك الاوهام حائرة * وصير العالم النحرير زنديقا

لؤلؤ الشعر

لقد كان لى قلب تضمن لؤلؤاً * من الشعر مسبوك النظام انيقا
فلما حللتم فيـه حاولت نقله * فاخرجتـه من ناظرى عقيقا

دواهى العيون

ودواهى العيون نعم الدواهى * أيقظتنى للوجد وهى سواهى
واستعانت على القوى بهواها * فاسـتعنا على الهـوى بالله

غادة الروم

بروحى من بنات الروم ماست * بأبيض ملبس يصبى اليهـا
تسـتر بالغمام البـدر منها * وشق ثيابه وجدا عليها

المداراة

اذا رفع الزمان عليك شخصا * وكنت احق منه ولو تصاعد
انله حق رتبته تجده * ينيلك ان دنوت وان تباعد
فان تبد الذى تدريه فيه * تكن ممن عن الحسنى تقاعد
فكم فى الخدر أبهى من عروس * ولكن للعروس الدهر ساعد

الوفاء في منفلوط (١)

سعيد من نآى عنه الصعيد * صعود ما لطالعه سعود
وردنا منفلوط فلا سقاها * وردناها فأظمأنا الورود
فمالى قد بعثت لقوم عاد * كأنى صالح وهم ثمود
أراهم ينظرون الىّ شزرا * كعيسى حين تنظره اليهود
فمالى منهم خل ودود * ولى من طبعهم خل ودود
وكم لى منهم سمج وقيح * تقعر وهو فى جهل فريد
وصدان وفى أو صد يوما * فطبع الموت فيه والصديد
فلو أن الجحيم هم لاضحى * مطيعا من تولاه الجحود

---

(١) ليسمح لي السيد مصطفى لطفي والسيد أبو بكر لطفي بالتفكه بهذه القطعة فلعله قالها فى يوم وقف به حظه ثمنه عند السفهاء وهم فى كل بلد دهماؤه

الهرمان

انظر الى الهرمين واعلم انني * فيما اراه منهما مبهوت
رسخا على صدر الزمان وقلبه * لم ينهضا حتى الزمان يموت

التحبب

الا محب يلاقيني اطارحه * هوى حبيب متيم الدار نازحه
رأيت في الغصن شيئاً من رشاقته * فكدت من فرط أشواقي اصافحه
ضني يؤجج نار الحب في كبدي * ظلما وقلبي مع هذا يسامحه
كأن شمس الضحى من طوقه شرقت * لنا ومن فرعه عادت بوارحه
وان جفاني لبعدي عن منازله * واعتاض بي مائقا يهجوه مادحه
فطالما قصرت أوقاتنا معه * في ظل بان يثير الوجد صادحه
ورب ماض من الاعراب ذي شرف * تصافح الهام في الهيجا صفائحه
سابقته للمعاني ثم قدمني * قلب الى الذروة العليا مطامحه
وبات يسري الى شأو ليدركه * كالوعل يمشي الى طود يناطحه
ومهمه نازح الارجاء ذي محن * كأنما لجج خضر مناوحه
قطعته وركاب الركب واقفة * سيان سانحه عندي وبارحه
حيا العقيق من الوسمي صوب حيا * وجاد مغناه غاديه ورائحه
فكم فؤاد أبيٍّ فيه منطرح * وعاشق سُفحت فيه سوافحه

يامسبل الستر ليلا من ذوائبها * ومسلب البدر فيها حسن اضواء[1]

معنى جديد

ومجتهد اللحاظ أصاب قلبي * كذلك كل مجتهد مصيب
بسهم وقعه لم يخط اذ من * بنى ثعل كثيرا ما يخيب

الى مؤدب ولده

هرب الغلام ولم يُغسّل بعد ما * أكل الطعام وفر عنى واحتجب
وسألت عنه فقيل لى، لم ندره * حتى تحقق انه لك قد ذهب
فاذا أتى الكتّاب فاقرع بالعصا * فوق الحصير ومس مافوق الركب
وأشهر عصا التأديب لاتضرب بها * غضباً فكم لم يهد ضالا من ضرب
واعلم بان المشتكى منه على * من يشتكيه أعز محبوب يحب
واعلمه ان الاتساخ مذمة * ورجوعه متسخاً غير الادب
واساله لِمَ لم يُعلم الابَ إبنُه * أولم بعقب الاكل منه قد هرب
وأفده أن الدين حب نظافة * وتشبث الاوساخ مفض للجرب
انى شكرتك وهو يقرأ أحرفا * حفظا فكيف يكون شكرى إن كتب
ان الصغير يشب مع عاداته * حتى يشيب وانه مع ماغلب
حتى ترى عينيه قد أخذ البكا * بدموعها عاهده فى ترك السبب

(١) يال الله . ما كان ضره لو قال : وساب بدل من ومسلب ؟ ان البيت بها يكون سليما من الشوائب ولكنها احدى جنايات التهالك على البديع وجناساته

فارفع صدر خارج دون حسنها * وأدنى مكان داخل منتهى الصدر
فكل زمان عندها زمن الصبا * وكل مكان ضمنها دمية القصر
رياض باخلاق الزهور تكوتلت * على حسن أخلاق النسيم الذى يسرى
بأحمرقان أو بأصفر فاقع * وأبيض مفتر وأزرق مغبر
تمايلت الاغصان فى القطر نشوة * اذا ضحكت أزهاره من بكا القطر
كأن عيون الزهر بين قصورها * عيون المها بين الرصافة والجسر
عرائس أشجار تجلت فزفها * طيور تغنى وهى فى سندس خضر
تراقصت الاغصان لما ترنمت * بلابلها والجو نقط بالدر
خليلى فيها غنيانى على الطلا * ولاتذكرا لى حال زيد ولا عمرو
فقلبى فقير فى ظلام همومه * لجامد نور فيه ذوب من التبر
ولاتجهرا فى سبك اكسيرها على * لهيب الحشا فالكيمياء من السر
أعد فقيراً راح بالراح مثريا * بألف غنىٍّ بات منها على فقر
حواسى بذكراها نعيم ولذة * ونور وطيب كل ذلك فى الخمر
اذا شمسها حلت بروج كؤسها * ترى فلكا قد دار بالكوكب الدرى
مليح له لحظ به الموت كامن * ولفظ به يحيا المناجى من القبر
علىّ بها ان مال فى الشرب وانثنى * تميل به ميل الزمان على الحر

بركة

يابركة بوركت نار الزهور بها * وكان عرش مبانيها على الماء
صغى الهزار عشاء والهواء شكى * بها وخبط فيها خبط عشواء

وتب ، ما أغنى عنه ماله وما كسب . وقد مدح صلى الله عليه وسلم وذم . قال نعم العبد صهيب لو لم يخف الله لم يعصه . وفى مروان : الوزغ ابن الوزغ . وهو كثير فى كتابه القديم ، وحديث نبيه الكريم ، وأكثر من أن يحصر فى كلام الكتاب والبلغاء من السلف والخلف .

ولما كان ممن استهوته الشياطين ، وتسلطن جنونه على جنون سائر المغفلين ، ذو البهتان ، غلام امرأة السيد فلان . . . . وكان قد تزوجها بعد زوجها فيما سلف ، وعاشرها على كره وصلف ، فولدت له أم غيلان ، ولدا وهبوه لا ولا دعلوان ، وبعد مضى سنين ، سموه سى ولا الضالين أمين ، فلما فاق العشرين ، وعلت غلفة الشنب على السكين ، أرادوا أن يطاهروه ، لينجس بالماء كلما طهروه ، وعملوا فرحا ولكن لعدوهم ، ووليمة ما أكل فيها غير لحمهم بعجوهم ، فاتى هذا المتهم ، بالطم والرم ، وأردت أن أوقظ غيره من غمرات الغفلات ، وأن لا يقع أحد فى تلك الفضائح العجيبات .

نبذ من شعره

روضة ونعيم

رياض مسرات بمبتسم الزهر * تقول ازدهى دار السعود على الزهر
تقول أمانى ناظريها لمن بها * كذا صاحب العمران فى الناس والعمر
فيا حبذا تلك المبانى وحبذا * قصور بها الايوان معترف القصر
أشاهد منها جنة قد تزخرفت * بولدان ورد أو بحور من القمرى

والصواب تحمل بالفتح والتشديد ، لاستقامة الوزن والمعنى والفرار من التعقيد ...

الفضيلة والرذيلة

من مقامة

وفقك الله لما يرضاه ، وعصمك من موجب الذم وممن لا يتحاشاه ، ان الفضيلة والرذيلة صفتان متضادتان ، ونوع الانسان مجبول على الميل للاولى ، والفرار من الاخرى ، على حسب آراء العباد ، وعوائد البلاد ، فربما كانت الفضيلة عند قوم رذيلة عند آخرين ، وكانت الرذيلة عند أمم فضيلة عند غيرهم من المتاخرين (١) ، وحسنات الابرار سيئات المقربين ، مع تفاوتهم فى طبائعهم ، وأشكالهم وصنائعهم ، فمنهم ذو الطبع السليم ، ومنهم الذميم ، ولا سبيل الى ترغيب الاول ليجتهد فى الازدياد ، والترهيب للثانى لينطبع على أن يتحاشى بالاعتياد ، الا باللسان الآتى بسحر البيان ، فقد جاء فى الحديث ان إيمان المرء ليربو اذا مُدح ، وربما يصح الجسم اذا جُرح ، فمن ذلك كان المدح على المحاسن تذكيرا ، والذم على القبائح تنفيرا ، وكلاهما مطلوب شرعا ، ومرغوب فرعا ، ليستيقظ الغافل ، ويقبل الكمال الكامل ، وليس كل المدح بمقبول ، ولا كل الذم مطلقا بمعذول ، فان كان من ذممته لا ينتفع بنصيحة ، ولا ينتهى عن فعلة قبيحة ، فحينئذ لا يكون الهجو من سىء الافعال ، بل يندرج فى صالح الاعمال ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اذكروا الفاسق بما فيه تحذره الناس . وأن الله تعالى فى كتابه العزيز قد ذم مصرّحا ومعرّضا ، قال تعالى : تبت يدا أبى لهب

---

(١) فى هذا الموضوع مجازفة وتناقض غريبان اذ ما مبنى أن نوع الانسان يكون مجبولا على الميل الى الفضيلة والفرار من الرذيلة فى حين أن لا قاعدة عنده لكلا الصفتين فما يكون عند بعضه فضيلة يعد عند البعض الآخر رذيلة . فليتأمل

جميع ما أبداه غير مطابق للحقيقة ، ولم يجر فى سنن الجواب على طريقة ، وقد علمت مقدار عقل القائل ، وما هو عليه من التقوى والفضائل ، حيث قال وأشار لى بقوله السعيد فى الدنيا ، وهو السعيد فى تلك الدار ، فقد اعترف لى بالسعادة فى الدنيا والله أكرم منه فى الاخرى . واما قوله كان الواجب نعت قائل البيتين اللطاف ، فهما فى كتاب المنسوب والمضاف للامام الثعالبى . وكانه استطرد فيما أفسد ، فلست ملزوما « كذا » برد هذا التهافت ، واصغر قاصر يكبر عن معارضة كل اعتراض له باهت ، حيث اطال بكل محال من تعريفه الدهر ، بما لا يتعلمه الدهر ، ولو وفقه الله ، فعرض ما ابداه ، فى تفسيره للدهر فى جوابيه ، لارشده كل سامع لما يترتب عليه ، لكن ما على اذا لم يفهم ، أو هجانى وذم وتكلم . واما كلامه فى اعترافى بقلة بضاعتى ، ومماراتى بما لا يغنينى بمجادلتى ، فانى لم أزل معترفا بالتقصير والقصور ، بل وعدم البضاعة التى بها الغير مغرور ، لكن مثله لا يغتر بتمشدقه ، ولا يلتفت الى تلهوقه . ومما يدلنى على أنه معدوم البضاعة ، وان آراءه فى الصواب مضاعه ، قوله فى أبيات الجواب الاول « هو الامام العلى العالم الورع » فلا يخفى قاصرى طالبى العلم ان الجزء الاخير من الكلمة الاخيرة من المصراع الاول التى هى عروض البيت لا يجوز تحريكها بل لا بد من اعتمادها على تنوين أو ساكن ولا تنوين هنا لوجود أداة التعريف ولا يصح أن تقيد عين الورع فالواجب أن يقال « هو الامام على عالم ورع » الثانى قوله من أبيات الجواب الثانى

ألا يا نسيم الريح ان كنت محسنا * تحمل الى وادى الاحبا سلامى

فما هذه الكثافة ، التى لا تحسن بوجه من أقسام الاضافة فى قوله « نسيم الريح » الذى لم يقله ألكن ولا فصيح ، وما هذا الحشو الكريه ، الذى يأباه كل نبيه ولا يرتضيه ، ولو أصاب لقال : ألا يا نسيم الشوق أو نحوه ، فما أثقل نسيم ريحه ، وأثقل منه فى ضبطه وتصحيحه ، لفظته تحمل بسكون الحاء وكسر الميم ، فان ذلك غير مستقيم

الاسد، وأسمعهم غناء البنادق من حانة الصفوف، فرفضت عيون جراحهم الدموع على خدود السيوف، حتى عموا وصموا لحب الحياة مخافة الهجران، وسمعوا ملام الموت بآذان الطعان

أراعهم منك رعب واقف بهم * حتى تآمر فيهم رائد الاجل

فتقاسمت جثثهم الطير في محشر طرقه، وترى كلاً منهم طائره في عنقه،

وأخفت أهل الشرك حتى انه * لتخافك النطف التي لم تخلق

فاروى الامانى بريق قلمه، واظما نفوسهم بريق لهذمه

أمضى من الاجل الماضى وأسرع من * جارى القضاء واضوأ من سنا القمر

فزعت اليه الارض من تلك الدواب، فأحال مشرق مشرفيه بين الاوعال والهضاب، فالقوا باسلابهم منهزمين امام العسكر، وظنوا انها حاجة الصائد من الجند بيد ستر

ان الاسود أسود الغاب همتها * يوم الكريهة فى المسلوب لا السلب

لم تشيبه من توالى الحروب الشوائب، ورد ماء شبيبة الدهر الهرم وما طر له شارب، ورجعت بيادق هذا الشاه الاعظم فرزانا بغنائمهم، وداسهم بالفرس فعاش الرخ فى رمائمهم

خذوا الآن ما يأتيكم بعد هذه * ولا تذكروا ذا العام فهو مثال

شيء من نقده

وكان الواجب الاضراب عن مجاوبة أمثاله، والتأمل لما لاشىء فى خياله، لكن كاتب تلك الكتابة، الخالية عن الاصابة، المتكلم عنك، المتقرب اليك بما ليس منك، ليست براعته الا فى ذمى وسبي، ولا تمشي براعته الا بتاء كيدذنبي، مع ان

الغير، كدعواه فى أبيه

خفض عليك فلو كساك قميصه * تاموزُ كنت فتى وحقك باردا

يحرف الحروف، ويؤلف غير مالوف، يتعدى بالتحريف، ويلزم اللحن والتصحيف، ويفوت ماأعجم عليه، وينسب فى كل كلمة اليه، يجر الفاعل من كل بيت، ويفتح فى موضع السكون بليت. فقلت من هذا القارى، ذو الوجه القارى، فقيل هاشم. فقلت رأسه. فقيل إسمه. فقلت بئسه، وتأملته فاذا فيه كبر نمرود، وذات شقى ثمود، ولؤم مادر، وعىّ باقل، وطمع أشعب المغلوم لكل ناقل، وجهل أبى جهل المتقدم، وحمق هبنّقة وخفة المعلم. فعرفت من العنوان المضمون، واللغتان فلتتان من المكنون، فقنعت من الغنيمة بالاياب، وبالجوى عن الجواب.

مأثرة السلطان محمود خان

كان فى زمن خرج فيه من العدو اعصار، سجرت نيران حروب مااصطلاها فؤاد عصر من الاعصار، فاخرج الله منهم موسى النصر خائفاً يترقب، حتى استظل بحرمة الامان من علمه المنصور مذ رآه يترقب

لو لم يقد جحفلا يوم الوغى لغدا * من نفسه وحدها فى جحفل لجب

فوقع بهم باتر بأسه فتخفشوا فى نهار البواتر، وكاد يشيب الليل لنسبته لهم انه كافر

لقد بث عبد الله جند انتقامه * على الليل حتى ماتدب عقاربه

ففى كل نجد فى البلاد وغائر * مواهب ليست منه وهى مواهبه

كايلهم بازواحهم من بنادقه شزكيل، حتى تكسرت النصال على النصال، باشباحهم من سهام النهار على سهام الليل، فقدمت جندُ عدوه قدوم العير على أبى الاشبال: حيث أيقنوا انها ضرْبى عزم من أبى سماك. والعير تقدم من جبن على

آثار أقلامه

نخب من نثره

من مقامة

سمعت برجل اسمه فلان ظهر يدعى الشعر انشاءً وانشادا ، وانه أبدع فى السجع إملاءً وإيجادا ، وله لسان حسان ، وحكمة لقمان ، وشعر الوليد ، ومعانى أبى الوليد ، وكتابة عبد الحميد ، وبلاغة ابن العميد ، وزكن اياس ، وعلم ابن عباس ، وخط ابن مقلة ، ويستصغر لجعفر فضله ، ويدعى الادب ، فى الشعر والخطب ، ويقول فى كل مجال ، هل من مبارز للنزال ، وهذه الدعوى يتوهمها حدسه ، وتسول له بها نفسه ، فشوقنى خبره خبره ، وشوقنى اذ شوقنى سبره ، وكنت كثيراً ما ألح على بعض من عرفه ، وبالخبل وصفه ، فى ان يرينى شكل هذا المدعى ، وان كان لا يعى ، الى ان أشتفى من الحاح ان أراه ، وأكتفى من معاقبتى بان جمعنى وإياه ، وذلك فى مولد البدوى ، بمنزل خادم المقام العيسوى ، فرأيت عماره ، فى إماره ، ساحبا على بنى مخزوم ذيل الفخارة ، وهو كاتم انفاسه ، جامع حواسه ، مطأطىء رأسه ، يتهجى فى كراسه ، فيها أحاديث خرافه ، يرددها بكثافه ، وهى مقامة اشتراها ، وهو لا يدرى مادحاها ، لو سمعها صاحب المقامات مات من بردها ، وهلك المبرد ولم يكتس ببردها ، وصار السفيه ، يقول ما ليس فيه ، ويدعى أبوة بنت فكر

مميزاته

جارى أدباء عصره فى ضروب الشعر وتحبير الرسائل المسجعة ، والمقامات المرصعة ، وبرع فى صناعة البديع ، وحسن التفنن فيه . وامتاز من أنواعه بالتأريخ ، وأدوار التغنى ، وصناعة المواليا والموشحات ، وما اليها من فنون الغناء ، وأحسبه ممن يعدون فى ذيل الطبقة الاولى فى شعره ، حسبما كان عليه الشعر فى عصره ، ولولا ما كانت تجره اليه الاسجاع من الحشو والخروج لعد من كتاب الطبقة الاولى فى منشئى ذلك العهد . ومع هذا فهو من أفراده المعدودين فى الادب والفضل

مؤلفاته

الدرج والدرك — كتاب وضعه فى مدح من اشتهر فى أيامه بحميد المزايا وكريم الصفات ، وذم ذوى المثالب والدنايات ، على ما أرشده اليه عقله ، وقادته نحوه ميول نفسه . جعل الدرج للممدوحين والدرك للمذمومين . روى تلميذه مصطفى النجارى ان هذا الكتاب استعاره منه صديقه حافظ بك مصطفى ولم يرده . غير اننى وقفت منه على نبذ ترى بعضها فى نخب منثوره

تاريخ محاسن الميل لصور الخيل — كتاب وضعه بامر صاحب مصر عباس باشا الاول ذكر فيه محاسن الخيل ومساوئها

رحلة — لم أطلع عليها ولعلها لم تطبع

سفينة فى الادب — استعارها منه صديقه على أغا الترجمان ولم يردها

السيد علي الدرويش

ترجمته

هو ابن السيد حسن بن ابراهيم الانكورى . ولد ونشأ بالقاهرة فى غرة شهر المحرم سنة (١٢١١ ه) ولما بلغ سن التعلم أدخل الازهر وأخذ علومه على شيوخ وقته كالشيخ المهدى والقويسنى والصاوى وغيرهم من جلة شيوخ الازهر . ثم مالت نفسه الى الأدب ، فانكب على ما وصلت اليه يده من كتبه ، واستقرى أمهات اللغة وأخذ يستخرج دررها ، ويحتلب درها ، كما صبت نفسه الى تعلم الهندسة والحساب . ثم تفرغ للكتابة وقرض الشعر واختص بعلم البديع وأتقن فيه فن التأريخ حتى ما كانت تمر به حادثة الا أرخها عفو الساعة . وكان يُعرف بشاعر عباس باشا الاول . وقد كان حسن الحال ذا مال وعقار غير متكسب بالشعر . ميالا الى اللهو والسرور مداحا للكرام ، نباذا للئام ، مقذعا فى الهجاء ، مر الخصومة ، حلو المفاكهة ، ومازال مشتغلا بنظم الشعر وانشاء الرسائل ومكاتبة أدباء عصره حائزا لإعزاز أصدقائه ، وإجلال عارفى فضله ، إلى أن توفاه الله فى ٢٧ ذى القعدة سنة (١٢٧٠ه) فما قام نعيه حتى رثاه الشعراء وأبنه الادباء . وقد جمع ما تفرق من شعره ونثره تلميذه مصطفى سلامه النجارى فى كتاب سماه (الإشعار بحميد الأشعار) وطبعه على مطبعة الحجر سنة ١٢٨٤ ه

الدرويش

ان فى الروم من يروم الجبوشا * ويرى محض نصحه مغشوشا
اذ ترجى من مائهم رى أرض * زادها خلف نوئهم تعطيشا
وتصابى فى حبهم وهو شيخ * كان فى دولة الجوى جاويشا
فهو مثل الفراش حُمقا وزعما * طاش عقلا وظن ان لن يطيشا
عاش دهرا وجهله فى ازدياد * ليته بعد لم يكن ليعيشا
لو فهمنا حلى الكمال فهمنا * بالمعانى لراح يهوى النقوشا (١)
نجتنى الكرم يانعاً وهو يأبى * بجناياته ويرعى الحشيشا
ان تبدى خياله بغدير * خاف منه وخال فيه جيوشا
وهو فيما داخلته خارجىّ * رافضىّ يدعونه الدرويشا
كان مثل البابوش فى الرّجل لكن * جعلته أيدى العلى سربوشا
قربه لم يكن لنا منه بدّ * لو صرفنا فى البعد عنه قروشا
فتوخى يانفس صبرا عليه * فى لياليك ما يثل العروشا

ضارب رق

همت وجدا بحب ضارب رق * قد رمى لحظه فؤادى بأسهم
رمت منه وصلا فما كان أحلى * قوله لى من بعد ذلك تك تم

ظبى أغن

لله شاد رخيم الصوت همت به * وفيه طابت أويقاتى وأحيانى
اذا رنا بظُبى الالحاظ مت به * وان ترنم بالالحان أحيانى

(١) فهمنا الاولى هي من الفهم والثانيه من الهيام

تشبيب

سباه غزال قد دعته الى الحمى
مهى الوحش تبغى انسه والظبا الفور
تخلفه حيران فى ظلمة النوى
وسار الى البطحاء يكنفه النور
وفاز بحج البيت غير مقصر
وان فاته حلق فما فات تقصير
وزمزم زانته بحلية لحية
على مثلها الولدان تحسدُها الحور
حلاه بها زادت كمالا وبهجة
وان قال من يهواه حقا هى الزور
تقول لَواحيه وقد عجبوا لها
الا ان من يهوى العذار لمعذور
ولما قضى نسكا وأدى زيارة
ولاحت على الاوطان منه تباشير
أتته تهانى الحظ يضحك سنها
وقلب محبيه بلقياه مسرور
ونادته ان ابشر محمد بالمنى
فحجك مبرور وذنبك مغفور
وهذا لسان الحال قال مؤرخا
الى حج بيت الله ساعيك مشكور

مداعبة

وارجع عن الشكوى وقل
انى رضيت الله ربا
فلقد جنيت بها على * خد جناه كان رطبا
ربيتها فتفلتت * ولكم تفلت من تربى
بعضا لها من لحية * كثفت وحاشى ان تحبا
هجمت عليك تطاولا * ودعت سميعا قد ألبا
ومذا استطالات أرخت * قد ضرطولى يوم لبى
١٢٥٧

أمرد حج والتحى

تشبيب

أ آس عــذار فوق خديه منثور
أم الورد فى روض به حف منثور
حـديقـة أزهار عبـير شميمها
له فى جميع الـكون نشر وتعـطير
حماها من الجانى قسى حواجب
وفتاك لحظ سيفه العضب مشهور
الى الله أشكو جفن ظبى اذا رنا
الى قلب صب صاده وهو مكسور
الا فى سبيل الحب صب متيم
مصاب بسهم الجفن ولهان مسحور
عليـه سطا لحظ الحبيب بنظرة
فراح طليقا دمعـه وهو مأسور
لئن ساءه يوم الرحيـل فراقه
فقد سره لقياه والحظ موفور
الا قاتل الله الفراق فكم به
على ذى رفاق قد تعسر ميسور
ورب محب حذروه من الهوى
وقد بات يغريه على الحب تحذير

مداعبة

فى حبه كم بت صبا * أجرى عليه الدمع ضبا
ظبى حلاه فى العلا * تحكى لنا بدرا وشهبا
بهرت شموس جماله * فسبت بطلعتها المحبا
عجبا لنمل عـذاره * اذ فوق ورد الخد دبا
سلك الطريق لثغره * متطلب الشهد المربى
لله نجل سعادة * فى حجر حظو تهاتربى
لو صار أشيب لم يحل * عما عليـه كان شبا
حاكى أباه تربيا * بل فاقه وعليه أربى
كانت عواقب أمره * محمودة شرعا وطبا
أدى فريضة حجه * سعيا وتطوافا ولبا
وسقته زمزم شربة * قد لينت ما كان صعبا
وأتى ليحدث لحية * فاسترسلت كالريح هبا
سهلت عليه طبيعة * ولرب طبع قد تأبى
وفشت بخديه وما * بالت ولا كادت تخبا
وغدت تقول لخده * ياحسرتا تبت وتبا
كم من حزانى حولها * هموا بها شتما وسبا
واذا رأوا تلويثها * صبوا عليه الماء صبا
فاصبر عليها واعتذر * عنها لعل تزور غبا

شبيه الغصن

بروحي من لغصن البان شابه * ومشروب الطلا بلماه شابه
مليح لم يخط له عذار * وفى رقى له ابدا كتابه
بذا العقد الفريد بفيه نظما * وحكم فيّ ديوان الصبابه
ومن فلم اجد صبرا عليه * واحشائى ترى عذبا عذابه
رمى قلبي بسهم قد مضى فى * رميته ولم يخطىء مصابه
وراح وقد بدا برق الثنايا * ودمعى هاطل يبدى انسكابه
يلوح ووجهه بدر ولكن * عليه من ذوائبه سحابه
بخد روضه يرعاه طرفى * وقلبي بالجوى يصلى التهابه
يدير من الحديث عتيق خمر * فيسكرنى ولم أطعم شرابه
أراه فى محاسنه عليّا * ولكن ما تنزل للصحابه
سعيت وزرته فازداد تيها * وولى معرضا يولى اجتنابه
أنا الجانى على نفسى لأنى * دخلت على هزبر الغاب غابه
فبدلنى بنوم الليل سهدا * وعوضنى الشجون على الدعابه
شياطين الوشاة به المووا * ليسترقوا ولم يخشوا شهابه
سألقى منه غايات الامانى * وسوف تكون عقباها عتابه

وحياهم الساقى بورد ونرجس * وبالخد حيّي والعيون النواعس
فطابوا نفوسا واطمأنوا خواطرا * وقد أمنوا تكدير صفو المجالس
بأطيب يوما من ثناء يديره * لسانى امتداحا فى مدير المدارس

اجابة لملتمس صديق

يا دُميةً شرعها ضرب النواقيس * ما بين قرب مزارى والنوى قيسى
هذى ثناياك قد لاحت بوارقها * أم أشرقت فى الدجى أنوار برجيس
أم ثغر كاس الطلا يفتر عن حبب * أم ذا ضياء نبى الله جرجيس
أم تلك طلعة بدر التّم قد ظهرت * يحكى سناها محيا غورغريوس
بابا النصارى مربى روح ملتهم * حامى حمى كل شماس وقسيس
شخص ولكن هيولى روحه ملك * وجسمه صورة فى شكل قديس
أقام وهو وحيد العصر مفردُه * دينَ النصارى بتثليث وتغطيس
تسعى الملوك الى تقبيل راحته * فى البحر والبر فوق الفُلك والعيس
أحيى الكنائس جسما بعد ما درست * وشيد الروح تشييدا بتأسيس
فعظموا الرب فيها بالصلاة له * ومجدوه بتسبيح وتقديس
لا غرو ان زهت الدنيا ببهجته * فالطير تزهو ابتهاجا بالطواويس
كم بطرك حل فيه سره فبدت * منه عجائب معقول ومحسوس
يريك آصف اذ وافى بدعوته * فى ظرف طرفة عين عرش بلقيس
لاسيما البطرك السامى سرادقه * مَن فخره فاق فيهم كل نقريس
أعنى به حضرة المظلوم من بسمت * به ثغور الامانى بعد تعبيس

رياض المسرات

وماروض آس ذى غصون موائس * كسته يد الأنداء خُضرَ الملابس
و باتت سوارى المزن من دَرّ طلها * تحلى طلى قضبانه بنفائس
وأصبح ثغر الزهر يضحك من بكا * عيون الغوادى المعصرات العوابس
و والت به وُرق الحمائم نوحها * لوحشة إلف بات غير مؤانس
وصاحت شحارير الطيور كانها * رهابنة صلت بسود البرانس
وراح غدير الماء يجرى مسلسلا * و يشكو على الاطلاق ضيق المجالس
يمر به روح النسيم ويثنى * فيروى شذا أنفاسه للمعاطس
وقد باكر الندمان دوح أراكه * جراح حكت فى الكاس جذوة قابس
معتقة بكر عجوز بدنها * مخدرة فى الحان عذراء عانس
يطوف بها ساق اذا ماس وانثنى * تقول غصون البان هذا مجانسى
وان قام يستجلى الكؤوس حسبتها * شموساً بها تسعى بدور الحنادس
لمَىً فيه فيه كم نفوس تنافست * وقد قلّ ان تلقى سوى متنافس
وغناهم شادٍ أغن اذا انتضى * ظُبى اللحظ أزرى بالظباء الكوانس
رطيب قوام أهيف القد لم تدع * ليانة عطفيه قياساً لقائس
فان قسته بالبان فالفرق ظاهر * وان بالعوالى فهو ليس ببائس
اذا صاح بالالحان يشدو فمعبدٌ * وان طارح الندمان فابنُ مُكانس
ولو حضر الواشى لحاضره بما * يُبين عن الجزار وابنِ قلاقس
وقد آن ابان الربيع وشابهت * أزاهره فى الروض وشى الاطالس
وكلل تيجان الربا بلآلىء * من القطر يجلوها جلاء العرائس

نبذ من شعره

وصف مسجد القلعه

عروس كنوز قد تجلت بعسجد * مكللة تيجانها بالزبرجد
أم الجنة المبنيّ عالي قصورها * بأبهج ياقوت وأبهى زمرد
أم المكرمات الآصفية أبدعت * هيولى أعاجيب بصورة مسجد
هو الفلك الأعلى تنزل وازدهى * بزهر الدرارى جامعاً كل فرقد
الا ان تجديد العجيب من البنا * يؤكد تأسيس اقتدار المجدد
وهل أثر ياصاح يعرب عن حلى * مؤثره دون البناء المشيد
فدع قصر غمدان واهرام هرمس * وايوان كسرى ان أردت لتهتدى
ودع ارما ذات العماد ونحوها * وعرشاً لبلقيس كصرح ممرّد
ودع أمويّ الشام وانزل بمصرنا * وبادر الى هذا بإيماء مرشد
فلو عددت فى الكون بدأ بدائع * لكان به ختم لذاك التعدد
كأن الليالى الوالدات عجائباً * أصبن بعقم بعد هذا التولد
لئن صار فى الدنيا وحيداً تفردا * فلا غرو والمنشى له ذو تفرد
مليك جليل الشان ليس كمثله * جليل بعلياه اقتدى كل مقتدى
محمدُ آثار علىٌّ مآثر * عزيز افتخار ساد كل مسود

مكانها و يستطيعون الحصول عليها ، وأما سواهم من عشاق الطرب سماعا فليسوا فى حاجة اليها . ومع هذا فقد عثرت له على رسالة صغيرة من الرسائل الخصيصة بعث بها الى ناظر الوقائع اذ ذاك سامى افندى . وكان الشيخ عبد الرحمن السفطى هجاه بقصيدة مطلعها

الأهل مورة دان ماروت العصى * ولسحرهم سحر الحبال مع العصى

فرد عليه الشيخ شهاب بقصيدة على رويها مدافعاً فيها عن سامى افندى ملأها من الهجو بما لا هُجر فيه ولا فُحش . قال فى مطلعها

اذكر حلى شيم المحاسن واقصص * واقطع لسان السوء أصلا واقصص

فأخو الجزالة من يصون لسانه * ويجيء من حسن المديح بمرقص

وأخو السخافة من تفوّه بالخنا * وغدت مقالته كفارغ حمص

والرسالة هى

سيدى أدام الله سؤددك النامى ، وأيد بنصره عز جنابك السامى ، أن ذياك الخبيث المشمر عن ساعد شيطانه ، الرامى عن قوس أفكه و بهتانه ، لما أن قال ما قال ، مما أحدث به على نفسه وبال ، وكان كالباحث عن حتفه ، بظلفه ، والجادع مارن أنفه ، بكفه ، لا جرم ان شهابك الثاقب ، القاعد لمثل هذا الشيطان بمراصد المراقب ، قد أتبعه على غفلته ، و رماه بصاعقة شُعلته ، وكبه على وجهه وفيه ، وأولج ما أولج فيه ، ثم أتى بنيان قصيدته من القواعد ، ونقض كل بيت منها حتى خر لديه ساجد ، وعند ما صال وجال ، أنشد هنالك وقال . ثم جاء بالقصيدة التى أشرنا اليها

الليالى ببديع انشادهم ، أم كان من الذين يُقيمون أركان الطرب وليس لهم فيه صوت يهز النفس ، أو جرْس يحرك الحس ، حتى علمت انه كان من المعلمين ، ولم يك من المطربين

مُؤَلَّفَاتُهُ

ديوان شعر — مطبوع سنة ١٢٧٧ حوى على كبر حجمه شعراً يتناسب فى الجودة مع ما كان عليه الشعر فى ذلك العصر

سفينة الملك ونفيسة الفلك — كتاب جليل لم أر أجمع منه فى فن الموسيقى والاغانى العربية ، فانه فضلا عما وعاه من ضروب الغناء الحديث فقد حوى نخبة صالحة من مختار الشعر الرقيق وجيده وهو مطبوع متداول

وله رسالة فى التوحيد وأخرى فى الاوفاق وغير ذلك مما هو معروف مشهور

آثار أقلامه

نخب من نثره

لم أقف له من النثر على ما يستحق النشر فى كتابى هذا ، اللهم الا ما كتبه مقدمة للسفينة ، وهذه المقدمة وان كانت كثيرة الفوائد الا انها فنية محضة لا تروق الا أرباب فن الغناء وغواته الذين يحرصون على الوقوف على أسراره ، والاخذ باطرافه ، وهؤلاء قد علموا

مُمَيِّزَاتُهُ

للشهاب كما لسواه من أدباء جيله فضـل عظيم فى إعداد الأفكار وتمهيد الاذهان، لقبول مبادىء الادب ، وانتهاج سنن العرب ، بعـد ان نسج الخمول عليها خيوط عناكبـه ، وطليت العقول بقشرة صفيقه من صدأ الخمود . فكان من الذين أجروا أقلامهم بالكتابة والإنشاء ، ورفعوا أصواتهم بالنظم والإنشاد ، مهيبين بالعقول أن تثوب الى سالف عهدها من الحدة والصفاء ، وان تثوب الى سابقتها من الفطنة والذكاء، وهو وان كان قـد رأس تحرير الوقائع المصرية ،وخرج مثـل أحمـد فارس ، فان ماقرأته له من منثور الكلام لا يدل على انه كان فى صناعة الانشاء ذا ميزة تجعله فى مصاف المجيدين من كتاب وقته ، ولعل ذلك راجع الى ما كانت عليه الكتابة فى ذلك العهد من الوهن والسقوط ، والضعف والهبوط ، على اننى أحسبه فى شعره ممن يصح ان يعدوا من شعراء الطبقة الاولى من أهل ذلك الجيل . وخير ماله من الحسنات ماجدده فى سفينته من دارس الغناء العربى ، فقد افتتح مغالقه بعد إيصادها من عهد الاصبهانى ومن سار على نهجه ممن جاء بعـده ، وأوضح معالمه ، وأبان ما استعجم من آيانه ، فكان فيه المبرّز من بين أدباء المتأخرين ، والمعلّم الاخير الذى لم يأت مثله الى الآن ، ولعـل الذى صرفه الى هـذا الفن حتى أجاد قواعده ، وأحكم أساساته ، مناظرته لمعاصره الدرويش والمناظرة جلاء الاذهان . وكأنه كان فى زمنـه قاضى الغرام ، ومفتى العاشقين ، يحكم بينهم بشرع التصابى ، و يفتى باحكام الهوى .

ثم مازلت أتمنى ان أعلم من أمره أ كان ممن يُطربون النفوس برخيم أصواتهم، و يحيون

الشيخ محمد شهاب الدين

ترجمته

هو محمد بن اسماعيل الشهير بشهاب الدين صاحب السفينة ولد بمكة سنة (١٢١٠ ﻫ ١٨٧٦م) ثم حضر الى القاهرة ونشأ بها والتحق بالازهر فدرس على مشايخه واختص منهم بالشيخ حسن العطار والشيخ العروسى ، وكان ميالا الى الادب ، حسن النظر فى فنونه ، فبرع فى الانشاء ، وأتقن الشعر ، وتفنن فى ضروبه ، كما أخذ قسطا وافرا من علوم الرياضة ، كالحساب والهندسة والموسيقى والالحان ، وكاتب أدباء عصره ، وقصده الطلاب للاستفادة من معارفه ، وبارع آدابه ، وكان فيمن تخرج عليه فى فقه اللغة وأسرار البيان الشيخ أحمد فارس ، وناهيك بها مفخرة كبرى . ولما كان ممن يحررون الوقائع المصرية مع الشيخ العطار فقد ولى رئاسة تحريرها بعد اسناد مشيخة الازهر الى شيخه المذكور ، ومن ثم اطلق يد الشيخ أحمد فارس فى انشاء الفصول ، وتحبير الرسائل فيها ، وظل مهيمنا على تحريرها الى سنة (١٢٥٢ ﻫ ١٨٣٦ م) ثم جعل مصححا لمطبعة بولاق الشهيرة ، وكان من حاشية عباس باشا الاول ومن القائمين بالادب بين يديه ، والملازمين له فى حله وترحاله . وقد كان حسن الاخلاق رقيق حاشية الطبع فكه المسامرة ، مقصود الجناب ، يمنح أدبه لاى طلب ، غير ضنين بما وهب . ولما توفى المرحوم عباس باشا الاول لزم بيته وانقطع للدرس والتأليف ونشر الآداب الى ان توفى سنة (١٢٧٤ ﻫ ١٨٥٧)

أم لوت بانة علی الورد فرعا * أم عذار قد جف وجه البهاء
وجرى مسكة بنهر نهار * فأرانا الإصباح فى الإمساء

حسام الدهر

كل يوم يجرد الدهر سيفاً * نصله الصبح والمساء قرابه
يتراءى نجادة من شعاع * وعمود الفجر المنير نصابه
والدراری فی ظهره فقرات * فالورى مثل ذی الفقار تهابه
فاذا مابدا ينضنض كالصل * على الخافقين سال لعابه
انه ذلك الحسام الذى يخشى * على كل من عليها ضرابه

توهم قوم أن يجاروه فى العلا * فلم يجدهم ذاك التفكر والخال (١)
يشق على من لا يُشق غباره * رهان الذى عن شوطه عاقه الخال (٢)
عفا الله عنه قد عفت بعد بُعده * من البلدة الزوراء المعالم والخال (٣)
وهيهات ما دار الرصافة بعده * وما الكرخ الا السبسب القفر والخال (٤)
ولكن بهذا العصر أمست كجنة * بها تتباهى ربوة الشام والخال (٥)
ورضوانها اليوم النجيب مشيرها * يحافظها مولى عليها هو الخال (٦)
عظيم وقار لو تراءى ليذبل * تصاغر منحطا وطاوله الخال (٧)
حماها حماه الله من كل ريبة * تشين علاه فهو من ريبة خالِ (٨)
فلا زال كل منهما طود رفعة * يلوح عليه مع تواضعه الخالِ (٩)
وانى وان كنت الرديف زمانه * لمسبوقة حسن الروىّ لها خالِ (١٠)
فذى معجزاتى ما أرى ابن كرامة * يعارضها حتى يصاحبه الخال (١١)

التحاء

جرف لام قد حرروه بمسك * فغدا نزهة لعين الرائى
أم عبير به تضمخ خد * فازدرى بالشقيقة الحمراء
أم هو الآس قد أحاط بورد * لاح يغنى عن روضة غناء
أم عباب لما طمى قذفت أمواجه * عنبرا على الأرجاء
أم هو النمل دب يرسف فى كبل * من الند حول ضحضاح ماء

(١) التوهم (٢) العرج (٣) الأثر (٤) الموحش (٥) موضع بالشام
(٦) القائم ويريد به نجيب باشا والى دمشق فى ذلك الحين (٧) الاكمة (٨) برئ
(٩) الكبرياء (١٠) نقطة (١١) الكفن

خاليته (١)

الى الروم أصبوا كلما أومض الخال * فاسكب دمعا دون تسكابه الخال (٢)
وعن مدح داود وطيب ثنائه * فلا القد يثنيني ولا الخد والخال (٣)
مشير الى العليا أشار فطأطأت * وأصبح مندكا لهيبته الخال (٤)
مناصبها انقادت لاعتاب بابه * كما انقاد مرتاحا الى العطن الخال (٥)
وقد نالها اذ أوتي الحكم حكمة * الهية فصل الخطاب لها خال (٦)
مليك ملاك الامر والنهي كله * اليه أنتهى والحكم في الارض والخال (٧)
حكى نهر طالوت بسطة علمه * وفى فضله ذاك الفتى الماجد الخال (٨)
توسم عرافا بسيماه دهره * فخوله النعمى وما كذب الخال (٩)
وصدق فيه ماتخيله النهى * وفيما سواه قلما يصدق الخال (١٠)
فيالرجال من علاه تفرسوا * أغر عليه من نسيج العلا خال (١١)
اذا اعتركت آراؤهم عرضت لهم * كتائب رأي من نهاه لها خال (١٢)
عصامي نفس سودته جدوده * فلا الجد يجديه ولا العم والخال (١٣)
له العلم خدن والكمال منادم * وحسن السجايا والحجا الخل والخال (١٤)
هو الصدر منه القلب كالصخر في الوغى * اذا طاش في غلوائها الوكل الخال (١٥)
ودهم الليالي ان تمادى جماحها * فهمته الكبرى الشكيمة والخال (١٦)

---

(١) مدح بها المشير داود باشا والي بغداد اذ ذاك معارضا فيها خالية الشاعر بطرس كرامه
(٢) السحاب (٣) الشامة (٤) الجبل (٥) الجمل (٦) ملازم (٧) الخلاقة
(٨) الكريم (٩) التخيل (١٠) الصادق (١١) ثوب (١٢) لواء وكانه نظر فيه
الي قول المتنبي : أرادوا أن يديروا الرأى فيهم * فصبحهم برأى لا يدار
(١٣) أخو الام (١٤) الصاحب (١٥) الجبان (١٦) اللجام

يسامرني طول الدجا من غرامها * سميراناغى فى معانيه سُماري
على قربها حتى اذا هى اسفرت * يباعدمنها الحسن مابين اسفاري
لنفثة سحرى ينتمين لحاظُها * وألفاظها تعزى لرقة أسماري

وفيه قال

بروحى غريراً بالرصافة قلبه * لدى ظبية لمياء خلفه رهنا
وقاليه بالكرخ علم أهله * فنون جنون وهو فى غيرهم جُنا
له فى الهوى العذرى عذر اذا لوى * لبان اللوى عطفاً وحن الى المغنى
أتشجيه سُعدى والرباب وانه * يحاول ان يقضى اللبانة من لبنى
اذا ما انتضى من جفن عينيه مرهفا * رجوت فؤادى ان يكون له جفنا
فمقلته تلك المصيبة انها * لام الدواهى والدواهى لم أضنى
ومن قده واللحظ ان ماس أو رنا * يقاسى كقلبى قالبى الضرب والطعنا
تثنى فاودت بالقلوب طعانه * فما ضره لما تثنى لو استثنى
وهيهات عن قلبى تطيش سهامه * وقدصار منه قاب قوسين أو أدنى
اذا قلت قلبى أين حل أحابنى * فهل لك من كمّ به تعرف الأينا
ويبسم عن برق فأبكى بمدمع * اذاشمت ذاك البرق تحسب ذامزنا
لقد زارنى والليل زرجيوبه * علينا ونام النجم عنا وما نمنا
وبات يعاطينا سلافة ريقه * فلله ماأحلى ولله ماأهنى
الى أن رأينا الليل غطى ذراعه * ضياءُ نهار صبحه شمر الرُّدنا
ومد يدا تجنى من الزهر نرجساً * حكى من عيون العين فعلتها الوسنا

ولولا ترتب الحق كما ذكرتم ما كنت أنطق ببنت شفه ، ومازاد على هذا فمعدود من السفه ، وأما الشرك الذى نصبته لصيد غرانق العقول ، فهو منقول عن معقول ، فتدبر

نبذة من شعره

هلال المحرم

ليت المحرم ليلة استهلاله * سلخت عشيتها بنصل هلاله
شهر به شهر البلاء بكربلا * عضباً تأنق قينه بصقاله
قد حرمته الجاهلية واجترت * عدوا بنو حرب على استحلاله
قتل الحسين به فأى فضيلة * تعزى له وتعد من إفضاله

فى الغزل

وعفراء سكرى المقلتين كأنما * سلقتها الندامى من سلافة اشعارى
تمر مع الاتراب بالخيف من منى * مرور المعانى فى مفاوز أفكارى[1]
وماخطرت الا تذكرت فى الوغى * بهام خطير القدر ميلة خطارى
ومن ضمها كادت تبيح بطمرتى * من الضيم ما أخفيته تحت اطمارى
فرحت اليها اشتكى مضض النوى * كما شكت الاقلام منى الى البارى
وجاراتها راحت مؤنبة لها * على ماجرى بالسفح من دمعى الجارى
يعفين آثار الخطى بذوائب * كما قد عفت من منزل الذل آثارى

(١) تعالى الله ما سمعت قبل الآن أن للشعراء مفاوز فى أدمغتهم تخرقها الافكار . ولكن سبحان المبدع الحكيم

أصبح فيه الفاروقي وأمثاله وان كانوا واضعي أساس هذه النهضات لا يصلحون أن يعدوا تلاميذ لمفكرينا . وكتاب اسمه : نزهة الدهر في تراجم فضلاء العصر لا أظن انه من الكتب الخطيرة ولعله لم يطبع . . . .

آثار أقلامه

نخب من نثره

من رسالة الى الآلوسي

أنهى لجناب ذلك الشهاب الثاقب، والبدر الحاضر الغائب، انه وصل منه شريف كتابه ، ومنيف خطابه ، والداعي اذذاك في عقائل شكوى سد كتني منذ أيام سدك الغريم ، وعركتني بأكف آلامها وأيدي اسقامها عرك الاديم ، حتى لقد فغرت عليّ فاها المنون ، واستوت في اليأس من الحياة مني الظنون . الا أنه تعالى بلطفه منّ علي بالشفاء ، ونقلني عن جهة اليأس الى جانب الرجاء . فلله الحمد متواتراً ، والشكر أولا وآخراً ، وهو المسئول ان يبلغك أطول الاعمار ، ويزوي عنك مكروه الاقدار ، وكان كتابكم قد وافى في عنفوانها ، وإبان نزوانها ، فخفف من أوصابها ، وخلع من أثوابها وكان غنا ورد عائداً ملطفاً ، أو وفد زائراً متحفاً ، ولما نضوت بُرد الاعتلال ، وشمت برق الإبلال ، وجب انهاء العذر المعترض ، وتعين قضاء الحق المفترض ، فنبهت عين النون ، وأطلقت لسان القلم لتحرير هذه الاحرف ، المشحونة بالزُّخرف ،

مُمَيِّزَاتُهُ

أقام من منظوماته فى آل البيت سوقا عرض فيها صورا خزفية زوّرها بما قد يظن معه انه تحدى بها الكميت فى هاشمياته ، والسيد الحميرى فى طالبياته . أفرغ فيها ما أكنته جوانحه من التشيع بحب أسباط الرسول ، والتشيع الخالص لابناء فاطمة البتول . نظمها نظم من يريد الايضاح عن عقيدته بما يسعه طوقه من القدرة على التعبير والافصاح . أما نظمه فيما عدا ذلك فاكثره ليس بالجيد السهل ، ولا بالمنسجم الجزل ، غير أننى رأيت انه كان لا يكاد يضع قصيدة حتى يتناولها شعراء وقته بالتشطير والتخميس ، ولعل هذا كان إما لوجاهته ومقامه فى عشيرته ، وإما لطفولة الشعر فى عصره ، وأما كتابته فلم أرمنها الا رسائل خاصة منسوجة على منوال السجع المتكلف شان أكثر كتاب ذلك العصر ، وحسبه انه ظهر فى أوائل نهضة جاءت بعد طول الرقاد وتمطى ليل السبات

مُؤَلَّفَاتُهُ

له من المؤلفات غير شعره الذى حواه كتاب الترياق الفاروقى ، ديوان اسمه : أهلة الافكار فى معانى الاشعار ، لم أطلع عليه ، وما عسى أن يكون لهؤلاء من المعانى المبتكرة التي تروق أهل عصرنا هذا عصر العلم والعرفان وارتقاء الافكار الذى

عبدالباقي العمرى الفاروقي

ترجمته

هو الاديب العراقى عبدالباقى بن سليمان ينمى نسبه الى الامام عمر بن الخطاب رضى الله عنه . ولد بالموصل سنة (١٢٠٤ هـ ١٧٨٩ م) فى بيت وجاهة وفضل فنشأ محبا للادب، ولعا بالمعالى، ونظم الشعر قبل انفراط عقد تمائمه، وعرف بالذكاء والفطنة وهو دون العشرين ، وما بلغها حتى صار يعتمد عليه فى العظائم . فأسندت اليه الحكومة العثمانية منصب كتخدا ولاية بغداد إثر قمعه لفتنة ثار ثائرها بجهات النجف ، ومع قيامه باعباء هذا المنصب فما برح مجلسه مثابة للادباء ، آهلا بالفضلاء . وقد كان عالى الهمة ، ذا وجاهة فى قومه ، ومقام كريم بين وجوه بلاده، نافذ الارادة لدى حكومته ، و بهمته أسند منصب افتاء الحنفية فى بغداد الى الشهاب الالوسى . كما أفاد كثيرا من أهل الادب والفضل . ومازال قائما بمناصبه ، عاملا على اذاعة آدابه ونشر فضائله ، ومراسلة أدباء عصره وشعراء وقته الى أن توفى سنة (١٢٧٨ هـ ١٨٦٢ م) فقام نعيه ورثاه من مدحه فى حياته من الادباء والشعراء . وقد جمع شعره الشيخ عثمان الموصلى فى ديوان مشهور دعاه بالترياق الفاروقى وهو متداول

فصرت أشكو للحبيب مابى * وقلت قد تزايد الجوى بى
ودمع عينى ملأ الجوابى * ولم أطق ردا الى الجواب
والصبر صار طعمه كالصبر

فقال لابد من الفراق * ولو رقانا اليوم ألف راقى
قلت اذا ياناعس الاحداق * فهل يكون بعده تلاق
فقال ان اليسر ضد العسر

وأشمت البين بى الازهارا * فاظهرت سرورها إظهارا
وفككت من طوقها الازرارا * وجعلت تلحظنى جهارا
كانها تأمن خطب الدهر

وكدر الدهر سريع ان صفا * وهل رأيت الدهر يوما أنصفا
ان النوى صيرنى على شفا * والحب داء لم يكن له شفا
الا الوصال بعد طول الهجر

فجعلوا الورد عليهم قاضى * وكلهم بما يقول راضى
لانه لم يقض بالاغراض * وسالم من سائر الامراض
ذو شوكة وهو جليل القدر

قالوا له يا عادلا يابى الرُّشا * من الذى يشبه فينا ذا الرّشا
فقال قولا للعقول أدهشا : * هل فيكم غصن رطيب قد مشا
وفوقه كل صنوف الزهر

دعواكم ياأيها الزهور * كما زعمتم باطل وزور
وكلكم بنفسه مغرور * وواجب فى حقه التعزير
من جملة التعزير لوم الحر

الحسن شيء ماله مثيل * وكل وجه حازه جميل
والنفس دائما له تميل * وصاحب العز له ذليل
فى قيد أسر نهيه والامر

من شبه الجمال بالجنى جنى * وكان عندى مستحقا للجنا
لو كان فضل الله يؤتى بالمنا * كما زعمتم كنت لاشك أنا
أحق منكم لوجهلت قدرى

من لم يكن يعرف قدر نفسه * وقد تعدى طور أهل جنسه
يهدم عالى قدره من اسه * حتى يرى الوحشة بعد أنسه
والذل بعد عزه والفخر

وحين لاح البدر فى اشراق * وكمل السرور بالتلاقى
وأطفئت لواعج الاشواق * سطا علىّ صارم الفراق
أراد تحرى عامدا فى نحرى

قال الشقيق أنا مثل الخد * ورثتلونى عن أبى وجدى
ونسبتى تنبيكم عن مجدى * لكن الى النعمان ليست تجدى
فانا منسوب لهذا البدر

والياسمين صاح فى الرياض * يقول شطر الحسن فى بياضى
فمرضى من أشرف الأعراض * وأرجى يشفى من الأمراض
من ذا الذى يشبه هذا غيرى

والنوفر الرطب يقول جسمى * كجسمه فى خده والرسم
لكننى مخالف فى الاسم * من أجل هذا حكموا بوسمى
وغرقونى وسط هذا البحر

فابتدر النرجس اذ يقول * هذا الكلام كله فضول
طرفى كطرف ذا الرشا مذبول * والعين للقلب هى الرسول
ولم بها تغزلوا فى الشعر

تممهم بنفسج فثارا * كانه يطلب منهم ثارا
وقال أنا أشبه العذارا * حين سبا بحسنه العذارى
وصار لونه كلون الحبر

فشمر الغصن عن الساق وقد * جرد سيفاً لرقابهم وقد
وقال جرى بكلامكم وقد * أنا الذى أشبه اعطافا وقد
أحملكم وتجهلون قدرى

وكثر الخصام واللجاج * واختلفوا فى أمرهم وهاجوا
واضطربوا فى رأيهم وماجوا * ورجعوا للحق ثم عاجوا
فابصروا الهدى بعين الفكر

عقرب مسك فوق خده التوى * وجمرة الخد بها القلب اكتوى
جمال هذا الظبي قد هد القوى * وليس لى غير الوصال من دوا
فاسمح به يابدر واكسب أجرى

فقال لى يامرحبا وأهلا * أدخل تجد عندى مكانا سهلا
بادر ولا تقل الىّ مهلا * واشرب شرابا عللا ونهلا
فى ساعة تعدل كل العمر

خاف من اللوم والاعتراض * فقال هل تدخل للرياض
قلت نعم اشفى بذا أمراضى * ياحبذا ان كنت أنت راضى
ياغرة فى وجه هذا الدهر

فضم راحة له براحتى * فكان هذا سبباً لراحتى
وماس ينثنى بغصن القامة * حتى دخلنا روضة الحسن التى
فاح شذاها عبقاً كالعطر

فقال طب نفسا فقد زال الالم * والصفو من كل الجهات قد ألم
كأنه يتلو على القلب ألم * نشرح لك الصدر بهذه النعم
روض ووجه حسن ونهر

تخفقت فى القلب رايات الفرح * وامتلأ الصدر سروراً وانشرح
وقد سمعت بلبل الأيك صدح * يقول قد داوى الحبيب ماجرح
وهذه أسنى خصال البر

لم أنس اذ تنافس الازهار * ودهشوا من حسنه وحاروا
وظلموا فى حكمهم وجاروا * تشبهوا به وهذا عار
لان هذا بالمليح يزرى

وهذا

لو كان أمر فؤادى دائما بيدى * لما وضعت يدى اليمنى على كبدى

محاسن المزدوجة

رأيت بدراً فوق غصن مائس * يخطر فى خضر من الملابس
و يسحر العقل بطرف ناعس * وهو بشوش الوجه غير عابس
كان ماء الحسن منه يجرى

خاطرت لما أن رأيته خطر * وحار فكرى فى بها ذاك الحور
وقلت لا والله ماهذا بشر * ومن بشمس قاسه أو بقمر
فليس عندى بالقياس يدرى

فلفظه العذب لقلبي قوت * كأنه الدر أو الياقوت
وسحره الى النهى مثبوت * يعجز عن مثاله هاروت
وهو الحلال من صنوف السحر

وكم حوى الثغر من الجمال * اذ نظمت فى جوفه اللآلى
منسوقة جلت عن المثال * وحليت بريقه الزلال
فالحسن مجموع بذاك الثغر

ان قيل بدر قلت ذا قريب * وكامل فى الحسن لا يغيب
والبدر فيه كلف يعيب * وذا الرشا جماله عجيب
والفرق ظاهر لدى من يدرى

أقدامى ، متردداً فى تاخرى و إقدامى . . . وشددت نطاق العزم ، وتقلدت بصارم الحزم ، وقومت سنان يراعى ، و بسطت فى حومة هذا الميدان باعى ، وانى لارى التوفيق يقوم أمامى ، والعناية تقود ذمامى . الى آخر ماهنالك من مثل هذا الكلام الذى لا أكتم القارئ الكريم ان نفسى لم تسطع الصبر على نقل بقيته ، ولعل الشيخ قويدر فى الكلام المرسل خير منه فى تنميق الخطب ، و فى رسالته الآنفة الذكر مايدل على ذلك غير اننى لم أشأ الإتيان بشىء منها لما بنيت عليه من الهجاء المقذع الذى أربأ بكتابى هذا ان يحويه

نبذ من شعره

نصيحة

ياطالب النصح خذ منى محبرة * تلقى اليها على الرغم المقاليد
عروسة من نبات الفكر قد كسيت * ملاحة ولها فى الخد تو ريد
كانها وهى بالامثال ناطقة * طير له فى صميم القلب تغريد :
إحفظ لسانك من لغط ومن غلط * كل البلاء بهذا العضو مرصود
واحذر من الناس لاتركن الى أحد * فالخِل فى مثل هذا العصر مفقود
بواطن الناس فى ذا الدهر قد فسدت * فالشر طبع لهم والخير تقليد
هذا زمان لقد سادت أراذله * قلنا لهم هذه أيامكم سودوا

و رأيت له هذا المستهل

يامن له خلق كنفحة عنبر * بالله كف سهام لومك عن برى

وفوق اللحظ من جفنيك فى كبدى * فموت مثلى من سهم ومن وتر
فما يعيش مدى الايام ذو نفس * والحتف يحلو بسيف الطرف والحور

كان قد سرق قصيدة ونحلها نفسه، فجاء بها أحد الادباء الى الشيخ قويدر وأطلعه عليها، فلما قرأها وعلم انها مدعاة، كتب الى عاقل افندى ينصح له بالعدول عن ادعائها، وان ماغيره فى بعض أبياتها من الكلمات لا يغنى من الحق فتيلا، ولا سيما انها من القصائد المشهورة حتى عند تلاميذ المدارس . فأجابه عاقل افندى بجواب ملوءه الهزؤ والسخرية والاستخفاف . ومن أدلته المضحكة : ان كون القصيدة شهيرة حتى عند التلاميذ فضلا عن أهل الادب لا يثبت انها ليست له ، فقد يجوز انه توارد مع قائلها المعروفة له ، ومع هذا فلا يمكن اثبات سرقتها وانتحالها الا باعترافه ؟؟ وعلى هذا فما أرى إلا ان الشيخ قويدر قد أصاب فى تلقيب هذا العاقل بالمجنون . والرسالة موجودة بدار الكتب الخديوية مكتوبة بخط سقيم لا تستحق النشر

آثار أقلامه

نخب من نثره

قطعة من خطبة شرح الكتاب

ومن شغفى بتلك العرائس الخواطر ، حملتنى بواعث الخواطر ، على ان أكتب عليها شرحا ، وأبنى على دعائمها صرحا ، وأشد بنطاق البلاغة لها كشحا ، فوقفت على

الى السجع مع قليل تكلف ، وخبرة باسرار الكلام ، وتفوق فى فن المزدوجات بما لا بطال . وحسبه انه نابغة زملائه من خريجى الازهر فى زمنه أدبا وفضلا

مُؤَلَّفَاتُهُ

نيل الأرب فى مثلثات العرب — كتاب جليل جمع فيه ما يثلث من الالفاظ العربية بالحركات، منظوما فى أرجوزة غاية فى السبك والاحكام ليسهل حفظه على الطالبين وموشى الهامش بفوائد عدة لا يستغنى عنها متأدب . وهو مطبوع معروف

شرح منظومة العطار — هى منظومة فى النحو لشيخه الشيخ حسن العطار معروفة بشرحها لدى طلبة الازهر

زهر النبات فى الانشاء والمراسلات — كتاب لم يطبع ولعله على مثال انشاء العطار

شرح على مزدوجته البديعة لم يطبع و يقال انه كان واقعاً فى مئة ونيف كراسة . ذهبت به الايام

رسالة الاغلال والسلاسل فى مجنون اسمه عاقل : كان عاقل هذا من نظامى ذلك العصر ، واسمه محمد افندى عاقل كاشف زاده ومقامه الاسكندرية . له شعر يقول فيه

معالم الصبر دون الحى من مضر * ومرتع الغيد فى قلبى و فى فكرى
ومنبت الشيح شيح الظبى أفئدتى * فارعى وحاذر من النيران والشرر
واحكم بما شئت فى حر تملكه * رق الغرام وقيد مطلق الخفر

مثالب الناس، اللهم الا اذا كان مدافعا عن نفسه، أو أدبه، كما فعل مع عاقل أفندى فى رسالة الاغلال والسلاسل. هذا وما زال المترجم له حركة الوصل بين الادب والذهب الى أن دعاه ربه فلباه فى شهر رمضان سنة (١٢٦٢ هـ) فرثاه الشعراء، وأبنه الادباء، ومنهم تلميذه صفوت الساعاتى الذى زعموا أنه رأى فى منامه قويدر قبل وفاته بثلاث ليال ميتا فانتبه قائلا: رحمة الله على حسن قويدر. فحسب جملها فكان تاريخا لسنة وفاته.

ومما رثاه به الساعاتى قوله من قصيدة

بكت عيون العلا وانحطت الرتب * ومزقت شملها من بعدك الكتب
ونكست رأسها الاقلام باكية * على القراطيس لما ناحت الخطب

وفيه يقول

قالوا قضى حسن المناقب فارثه * فاجبتهم ومدامعى تتحدر
لا أستطيع رثاء من لمصابه * أضحى لسانى فى فمى يتعثر

مميزاته

نفحة من نفحات (العطار[1]) الزكية، وعلم من أفراد أدباء الازهر النوادر الذين وجد الادب فى مهاد قلوبهم أرضا خصيبة، وفى أذهانهم سماء صافية الاديم، ومن طباعهم جودا مغيثا وغيثا مدرارا، فازهر وأثمر وجاء من الافانين بكل زوج بهيج، فما شئت من نثر مجوّد سهل، وما رمت من شعر منسجم جذل. فى ميل

(١) هو أستاذه الشيخ حسن العطار المشهور

الشيخ حسن قويدر

ترجمته

هو الأديب العالم حسن بن علي قويدر . ولد بمصر (١٢٠٤ هـ) من أسرة مغربية الأصل استوطن أحدُ أفرادها الخليلَ من بلاد فلسطين وعرفت ذريته هناك بالمغاربة ومنها جاء والده عليٌّ الى مصر فى تجارة وأقام بها ورزق فيها بحسن فأنبته نباتا حسنا وألحقه بالازهر فقرأ العلوم والآداب على شيوخ وقته ، ومنهم الشيخ حسن العطار ، والشيخ ابراهيم الباجورى ، وتخرج عليهم فى اللغة والادب ، فأنشأ الفصول ، وحبّر القصائد ، وكاتب أدباء وقته ، وقصده الكتاب والشعراء وأخذوا عنه وشدوا بفضله ، ولم يعلم انه تقلب فى مراتب ، أو ارتقى الى مناصب ، غير أنه كان يتّجر فى ما خلفه له والده من المال مع شركاء له بسوريا كان يبادلهم سلع الشام ببضائع مصر ، على أن ذلك لم يلهه عن الاشتغال بالعلوم والآداب وتصنيف الكتب ، وشرح المؤلفات . وقد كان موصوفا بالجود يمنح العوارف ، ويجود بالمعارف ، وهى صفات حميدة الاثر لم نعهدها فى أبناء عصرنا ، فانك لا تكاد ترى تاجرا متحليا بشىء من الآداب ، أو أديبا يحسن ضبط ما قد يكون لديه من مال ، فضلا عن استثماره ، أو الاتجار به ، حتى أصبح أكثر من لقيت منهم فقيرا معدما ، وحتى صار البؤس عندهم عنوانا للادب

أما أخلاقه فالعفة والامانة وصدق المودة وعدم الميل مع الهوى فى كشف

وسبيلى فى تحريرهذا الكتاب وتنسيقه ، ان أوثر بالذكر فيه : الكاتب المجيد ولو لم ينظم فى حياته شعرا ، والكاتب الشاعر ، والشاعر الكاتب ، والمترجم الماهر الذى يساعد على نمو اللغة بما ينقل اليها من علوم الافرنج وغيرهم ، دون الشاعر الذى لم يكتب أو لم يُعرف انه كتب ، أو كتب ولم يُجِد الامن كان سامى الخيال ، حسن الابتكار ، وقليل ماهم . وان ارتبه على النسق الآتى — :

ترجمة حياة الاديب ترجمة مفيدة ابسط فيها مايهم الاطلاع عليه مما يصح ان يكون قدوة صالحة ، أو موعظة حسنة ، معتمدا فى ترتيب التراجم على تواريخ ميلاد أصحابها السابق منهم فالسابق . مع نشر صورته اذا نالتها اليد

ثم فصل عنوانه (مميزاته) أبين فيه عن الصورة الذهنية التى ارتسمت فى مخيلتى من دراسة ما كتب من منثور أو منظوم أو ألف من كتب . وعما امتاز به من الخصائص الذاتية ، فى ملكته الكتابية ، وسليقته الشعرية ، واضطلاعه بالادب وما كان له من حسن الاثر فى أهل جيلة

ثم فصل عنوانه (مؤلفاته) أصف فيه مؤلفاته وصفا يطابق ماهى عليه وأذكر منزلتها من الكتب والمطبوع منها وغير الطبوع

ثم باب عنوانه (آثار أقلامه) فيه فصلان : فصل عنوانه (نخب من نثره) وفصل عنوانه (نبذ من شعره) اختار فيهما طائفة صالحة من أحسن ما كتب وانفع مانظم ، واضمنهما ما يتفق لى مما تتوق النفوس الى عرفانه من الرسائل ذات الشان التاريخى ، والقصائد ذات الاثر الادبى ، مع شرح مايلزم شرحه منها والتعليق عليه بما يعن من الملاحظات افادة للناشىء المتادب ، وفاكهة للكامل الاديب . وهذا كله على قدر مايبلغ اليه علمى ، وتتسع له طاقتى

والله أسأل أن يسدد خطواتنا ، ويلهمنا الرشاد ، ويهدينا الصراط السوىّ ، ويسلك بنا السبيل الاقوم م

حسن السندوبى

روية ، والصادع بالحكمة التي تطمئن اليها نفوس الأثبات ، فطالما كانت الجماعات نصيرة المفسدين ، وحربا عوانا على المصلحين ، وقديماً كانت الشهرة أخيذة المحتالين ، أكثر منها للاكفاء القادرين، فكم علمنا من بين الكتاب ومنتحلي حرفة الادب من له ذكر ذاهب في الآفاق وشهرة طائرة في الخافقين ، اذا بلوته وسبرت غوره ، رأيت سرابا بقيعة يحسبه الظمآن ماء ويخاله العشوان نارا ، وماهو الا آل السباسب ونار الحباحب . وكم رأينا فيهم خاملا لا يكاد يعرف الا بين عشرائه ، ومغمورا قلما يذكر الا بلسان معارفه وسجرائه ، اذا أوريت زنده وجدت على النار هدى . وكذلك لست بالآبه للصداقة اذا كانت تحول بين نفسي وبين ما أبغي من الحقيقة . اذ جل ما أقصد خدمة الادب وانارة التاريخ ، لا الإشادة بذكر أناس على غير ما يستحقون ، أو الحط من آخرين والغض من فضلهم ، وما قاعدة الاختيار عندي الا الانفع والاصلح والابقى أثرا والاحمد ذكرا

ويحسن بي هنا ان أعرض رأيا طالما حامت حوله أفكار الكتاب ،وجمجمت به صدور الادباء ، وهو المفاضلة بين المصريين والسوريين في خدمة اللغة العربية، والنهوض بها الى أوج عزها الحاضر . فاقول : اني لا أرى لسوري فضلا على مصري في احياء الآداب العربية في أطوارها الاخيرة ، ولا لمصري مفخرة على سوري ، أو يدا على عراقي ، الا كما يكون للاخوة الرُّحماء من فضل التسابق في مضمار البر بامهم ، والتزاحم على ارضائها بما في وسعهم ، فكلهم بار وكلهم سابق ، ولا وجه لادلال السوري على المصري بجده ونشاطه ، ولا لمفاخرة المصري السوريّ برقة طبعه ، وسلامة ذوقه . على ان كتابي هذا سيكون ان شاء الله كفيلا بتخليد الفضل لذويه من أدباء المصريين، وفضلاء السوريين ، وحفظ الايادي البيضاء لمسديها الى لغة الضاد من أبناء العرب

ثم اطرد القياس فى التحسين الى ان كانت هذه الوثبة الادبية الحديثة فى عصر مولانا العباس أطال الله أيامه ، وامضى أحكامه ، فقد منح الادب العربى من حسن رعايته وفضل عنايته حظا عظيما لم يمنحه اياه من قبل أحد كما أغدق سجال نعمه على الادباء وأقرأ عينهم بتوالى كرمه ، حتى نشطوا التنفيذ ارادته فى احياء الآداب العربية واعادتها سيرتها الاولى لعصرها الذهبى ، عصر هارون والمأمون العباسى ، وتبارى الكتاب فى ساحات البيان وميادين الاحسان ، فسموا بالكتابة الى درجة عالية ، لم تتهيأ لا كثر من سلف من الكتاب ، ولم تبلغ اليها الكتابة فى طور من أطوارها الماضية ، ولا عهد من عهودها الفائتة ، فكان هذا العصر أجدر بان يسمى (عصر الكتابة) وكذلك تسابق الشعراء فى اجادة الاختراع ، واحسان الابتكار ، واحكام النظم ، فاحيوا عهد الشعر ، وأعادوا أيام بشار وأبى نُوَاس والبحترى وأبى تمام والمتنبى والشريف والمعرى وابن الرومى وأمثالهم من المجيدين

ولما كان الله قد خار لى فى الادب ورجاله شحذت العزم لدراسته ، وحبست النفس على تتبع آثار نوابغه قديما وحديثا ، وصرفت من وقتى زمنا طويلا فى الاطلاع على أطواره الاخيرة منذ قرن ونصف على التقريب ، وتتبعت مسالكه تتبع متفهم متثبت ، ودَرست صحائف رجاله الناهضين فى احيائه حتى اليوم ، فرأيت أن أضع كتابا وافيا يصح ان يكون تاريخا للآداب العربية ورجالها الذين نبغوا فى عهد محمد على وعصر اسماعيل . وهذا العصر المبارك عصر مولانا العباس أيده الله ، دعوته (أعيان البيان من صبح القرن الثالث عشر الهجرى الى اليوم) تخليدا لذكر نوابغ هذه المدة من الادباء واحياء لآثارهم

على اننى لست بالحافل كثيراً بالشهرة ولا معتداً بها فى اختيار الاعيان كل الاعتداد اذ لست أرى نباهة الذكر وبعد الصيت فى أكثر الاحيان دليلا على التفوق أو معياراً يوزن به النبوغ ، ولا رأى الجماعات بذلك الرأى الناضج الصادر عن

تستل منه بقية رونقه ، ويسلب مسحة جماله ، وصفاء جوهره

وقد ظل الادب فى اغماءته الى أوائل القرن الثالث عشر الهجرى حيث استقام الامر فى الديار المصرية لمحييها العظيم محمد على باشا، وسرى نفوذه الى بلاد الشام . فكان للعلوم العربية والآداب نصيب وافر مما صرف عنايته لاحيائه ، اذ أنشأ المدارس والمكاتب وعَمَرَ معاهد التعليم المختلفة الدرجات وحشد اليها أبناء البلاد كما مهدها للوافدين عليها من سائر البلدان . ومابرحت تسمو به همته — رحمه الله — حتى أرسل البعثات العلمية الى أوربا لدراسة وسائل التقدم وأسرار النجاح ، ورد ما استعاره القوم من الآداب العربية فى القرون الاخيرة الى لسان العرب

ولما عاد رجال هذه البعثات من أوربا بعد أن وردوا مناهل العلوم الافرنجية الجارية باسباب العظمة والسؤدد ، واستقوا من عيونها المتفجرة بالحكم والآداب ، وضعوا أيديهم فى أيدى أفاضل السوريين وظاهرهم نخبة من جهابذة الازهر وتوفروا جميعا على تكوين نهضة يكون لها فى أطوار الادب العربى أحسن الاثر ، وأجمل الخبر ، فانشؤا الصحف ، وترجموا الكتب ، ونشروا الاسفار بالطبع ، وكتبوا الرسائل المفيدة ، وحرروا المقالات النافعة لتكوين الافكار وتنبيه الاذهان ، وانشدوا الاشعار بما وسعه النظم وما بلغ اليه قرض الشعر فى ذلك العصر

ثم تلا هذه النهضة نهضة ثانية فى عهد مُترِف مصر الخديو اسماعيل وعلى يده حيث تأثر جده فى ارسال البعوث العلمية الى بلاد الافرنج ، وأعار الادب العربى عناية فائقة ، فنبغ فيه رجال خدموا اللغة العربية ، وبرعوا فى الانشاء حتى بلغت الكتابة فى وقتهم مبلغا عظيما فاتت فيه الشعر اشواطاً . وما كانت جريدة الجوائب ومطبعتها وهى ماهى ، ودائرة المعارف البستانية الا حسنة من حسناته الى لغة الضاد ، وغرفة من بحر افضاله على الادب العربى

ابن خلدون ، وابن عبدربه ، وابن سعيد ، وابن زيدون ، وابن الخطيب ، وابن خاقان ، وغيرهم من عيون الادباء ، وخيرة الكتاب والشعراء ، و والله لتكاد النفس تذهب حسرات ، وتفارق القلوب مرابضها من الصدور أسى وحزنا، ولوعة وكمدا ، كلما ذكر هذا المجد الضائع ، والنجم الافل ، والكوكب الهاوى قبل تمامه . وما أرى النهضة الاندلسية الا كينبوع ماء مالبث ان فار حتى غار ، أوكبدر ماعتم أن أضاء حتى وقع فى السرار ، ومامنزلة الادب الاندلسى من الادب العربى الا كمنزلة مدنيته من مدنيات الاسلام ، شامة فى خد الحسناء ، أوكلمة حكمة فى صحيفة بيضاء

ولما كان ارتقاء الكتابة وانحطاطها تابعا لما تكون عليه حال الدولة من قوة السلطان ومظاهرة الاعوان ، أوسقوط السطوة ووهن النفوذ ، علت الكتابة فى ابان عز الدولة العباسية ، وانحطت باضطراب حالها، وانتقاص أطرافها، واغارة التتر عليها ، وغزو المغول لها ، ولم تتنفس الكتابة بعد ذلك صعداءها الا فى عهد الدولة الايوبية فى مصر والشأم ، حيث أخذ بيدها وأقال عثارها القاضى الفاضل ، والعماد الكاتب، ولما شعثها ، ونظما ماانتثر من عقدها ، وأجادا فيها ماشاءت لهما الاجادة ، واحسنا ماتطلب الاحسان

ثم أصاب الكتابة بعد ذلك بحران عميق طالت مدته، وامتدت فترته الى غروب القرن الثانى عشر ولم يظهر فى هذه الآونة من الكتاب والشعراء الاشخوص كانوا رجرجة بين مجالى الادب كدروا صفو الانشاء بما أراقوه على بساط البلاغة مما دعوه بالمحسنات البديعية ، وتفانيهم فى ارهاق النفوس بالغوص على مستغلق المعانى ، ونابى المرامى ، والعبارة عنها بساقط الالفاظ ، ومتكلف التعابير ، حتى كادوا يذهبون بما كمن فى البيان من الذماء بالاسجاع الباردة ، والاوضاع الشاذة . كما هووا بالشعر الى أسفل الدركات بجمود خيالهم ، وخمود قرائحهم ، وحتى أشرف الادب ان

والارادة المطاعة

وكان إفعام لسان العرب بآداب الفرس وفلسفات الهنود وعلوم اليونان والرومان سببا الى تصادم الافكار، وظهور الفرق، ومجاهرة قادتها بآرائهم وتأييدها بعذبات ألسنتهم، وأسلات أقلامهم . فمن بين صريف هذه الاقلام وتسابقها فى حلبات التناظر والخصام، ظهر الجاحظ وصنوه بشر بن المعتمر وقبضا على ضَبعى العلوم والآداب، وتناولا طريقة من سبقهما من أئمة الكتابة فدحياها وانتهجا فيها نهجاً جديدا من طول الباع فى تناول الاغراض البعيدة المرام، ومزج العلوم الآلية بالآداب، والتبسط فى أساليب الكلام، والضرب فى مختلف الفنون بأوفر سهام، والتمكن من ناصية اللغة وفقه أسرارها، والتغلغل فى انحاء البيان، بما لم يعهد من التبيان . وقد انفرد الجاحظ من بين أئمة الكتاب بمذهب بديع وأسلوب حكيم، وهو الكفاية والاقتدار على تكييف التعبير عن مرامى العلوم ومقاصد الفلسفة والآداب بالالفاظ الشفافة المتخيرة، والكلمات الآخذة الساحرة، مع اطراد النسق ووضوح المعانى وجمال الانسجام

وبهذا الانتقال والتحول أخذت الكتابة شكلا غير شكلها الاول ولبست من التنميق والتجويد ثوبا معلما، واكتست رداء موشى، نسجت برودة أيدى كتاب الرسائل . كبديع الزمان والخوارزمى، والصاحب والصابئ وابن العميد، وكالعتبى والحريرى وابن حبيب، ومن أخذ إخذهم وتعزى بعزائهم من كتاب المقامات المسجعة، والمقالات المرصعة

وفى هذه الاثناء بزغ هلال المدنية العربية، والحضارة الاسلامية فى أفق أفريقية وجزيرة الاندلس ومالبث أن نما حتى استنارت به عقول أدهشت العالم بروائع ثمارها، فنشأ فى خصب أرضها، وانسياب مائها، وصحو سمائها، وازدهاء رياضها، أمثال

البرهان ، والافصاح عما أشربته قلوبهم من النحل والاهواء ، وجرى فى ضمائرهم من العقائد والآراء ، مالم يتسن لسواهم من زعماء العصائب و رؤساء الاجناد . فاجتل ـ حفظك الله ـ حسن البيان وجمال الادب من مقالتهم ، واجعل دَبر أذنك مرامى نحلتهم ، ومغازى قالتهم . فما البيان الا مابه أفصحوا فى مآقط (١) اللجاج ، وما الادب الا ماعنه أبانوا فى مآزق الحجاج (٢)

و فى هذا الابان نبغ عبد الحميد وابن المقفع واختطا للناس فى صناعة الانشاء نهجا قويما ، وابتدعا أسلوبا مهذبا حكيما ، اعتمد أولهما فى تعبيد (٣) مذهبه على ماوهب له من كمال الطبع ، وسلامة الذوق ، وما ألهمه من لحون لغى النفوس وأهازيج الارواح . واستعان ثانيهما على تذليل طريقه بالآداب الفارسية وعباراتها اللطيفة ، فاحل ما انتقاه من معانيها الشريفة المتهدلة تهدل الازهار من الاكمام ، الالفاظَ العربيةَ ، العذبة النقية ، الجارية مع النفس مجرى الصهباء فى الاعضاء . وكلاهما نافذ الطريقة فى الادب ، مصيب الرمية فى الحكمة وفصل الخطاب

ولما شيدت أركان الدولة العباسية على انقاض سابقتها الاموية ، وانبثت لها الدعوة فى الامم وخفق لواؤها فى الشعوب ، ودفعتها دوافع الملك و بواعث الفتوح والاتساع الى الاحتكاك بما وليها من الدول والحكومات والاخذ عنها . زهت الآداب العربية واتسع رحابها بما نقل الى علومها من علوم الاقوام وآدابهم ، وأسست دواوين الانشاء و رحب نطاقها ، وتولى الكتاب فيما تولوه من أمور الدولة وسياسة الملك ، شؤون الاحكام . وجِبوة الاموال . والهيمنة على الجيوش . فكان منهم الوزراء أصحاب الحول والطول ، و بطانة الملك ، وحاشية السلطان ، وذوو الكلمة المسموعة

(١) مآقط جمع مأقط وهو موضع التحام القتال

(٢) مآزق الحجاج بمعني مضائق الخصام (٣) تذليل

طور من أطوار الكتابة أنشئت ؟ ولاى قصد صنعت ؟ هذا قليل من كثير ، ونمد من غزير من منثور الكلام . أما منظومه فحدث فى دخيله عن البحر ولا حرج

ومازال الانشاء العربى فى أرجوحة مهده الى أن أشرقت شمس الرسالة المحمدية فى سماء جزيرة العرب ، وأرسلت اشعة هداها الى زوايا العقول ، وتصاكّت (١) الاذهان بما جاء به الرسول صلوات الله وسلامه عليه من محكم الآيات ، ومعجز البينات ، واتجهت القلوب الى بارع حكمه ، ونوابغ كلمه ، انتقلت الافكار من حالتها الفطرية الى مقام سام استقام معه محال البيان . واذ دعت الحال الى ارسال الرسل وتسيير البعوث ، مست الحاجة الى الكتابة والكتاب فارتقى الانشاء الى مستوى تجلت آثاره فى خطب الخلفاء الراشدين و رسائلهم . فليس أفضل من كلام الرسول بعد كلام الله ، ولا أشرف من خطب الخلفاء بعد خطب رسول الله ، ناهيك بفُصح الامام على و بلاغته المتدافعة تدافع الغيث المدرار

ولما جاء عصر بنى أمية والمدة المروانية ، بلغت صناعة انشاء الخطب وتحبير الرسائل مبلغا كانت الكلمة فيه تثير الشعب الخامل وتلوى بالامة الثائرة الى الاخلاد والسكون . فقد ملك زمام الكلام فيه رجال قادوا الشعوب باقوالهم ، وأقاموا عظائم الامور بشقاشق (٢) ألسنتهم . كزياد والحجاج من أمرائهم ، و بنى المهلب من قوادهم ومساعير أجنادهم . واذا ذكرت هؤلاء ، فلا تنس خصومهم من الخوارج والازارق ومواقفهم التى كانت تفزع الدهر وتلفت صروف الايام . فقد أوتوا حظا من قوة اللَّسَن ، و مِرّة اللدد ، واختصوا ببسطة اللسان ، ومكانة البيان ، وعضد

(١) تصاكت . تقارعت

(٢) أصل الشقشقة للبعير واستعيرت للخطيب المنطبق وقد سميت احدى خطب الامام على بالشقشقية

اليه نفس أحدهم ان يحضر مجلس صاحب السلطان فيعرض بين يديه من مغربة الاخبار، وجائبة (١) الانباء والآثار، مايكون زلفى الى بسط اليد له بالنوال ، غير حامل نفسه من العناء الاعلى مايسبك به حكايته فى الغريب من قوالب الإعراب ، ومايسندبه روايته الى بعض جفاة الأعراب ، نفيا لدغله ، وتوصلا الى أمله

و رواتنا رحمهم الله وان لم يستطيعوا ان يخدموا التاريخ بصدق الرواية وتمحيص الحقيقة ، فقد أهدوا الى الادب العربى بما ابتدعوه فيه من الاساليب ، وما اخترعوه من المناحى والتراكيب ، طُرفا حلت من نفوس المتأدبين محلا عجيبا ، وان كانت فى عيون النبلاء من أهل الادب وأولى التحقيق قذى حال بينهم و بين مايشتهون من الوقوف على مااعتور الانشاء العربى فى أطواره من أصول نَشئِه ، وأسرار ارتقائه

أدر طرفك فى مناظرة النعمان وأصحابه لكسرى أنو شروان (٢) ، ووصف الجارية التى زعموا ان المنذر بن ماء السماء أهداها الى ملك الفرس(٣) ، وغير ذلك مما طغت به كتب الادب ، ونسب الى جاهلية العرب . بل انظر الرسالة المعزوة الى أبى عبيدة التى افتروها على أبى بكر وعمر فى حق على كرم الله وجهه (٤) ، ونعت الاسد فى حضرة عثمان بن عفان وماقاله لواصفه ، وأعرض ذلك وأمثاله على ميزان عقلك ومحك رويتك ، و بعد أن تجرد نفسك من ثياب الهوى ، وتطلقها من قيود التقليد ، قفنى على واضعها : أبدوى هو أم حضرى؟ وسليقى أم صناعى ؟ و فى أى

---

(١) مغربة الاخبار أي الاخبار الغريبة . جائبة الانباء أى البعيدة التى تحتاج في الحصول عليها الي قطع البراري والقفار وتحمل مشاق الاسفار

(٢) هذه المناظرة قد ملات كتب الادب قديمها وحديثها حتي لاتكاد ترى كتابا فى المختارات الا وجدتها فيه لمكانتها من البلاغة ومنزلتها من الجودة ، ولشهرتها اجتزأنا بالتنويه بها

(٣) قد كرر وصف هذه الجارية في كثير من كتب الادب أيضاً

(٤) هذه الرسالة مبسوطة في صبح الاعشى وهي طويلة جدا تستغرق عدة صحائف ولولا ذلك لاثبتناها هنا لجودة صوغها ومحكم نسجها

ولقد مرت بالكتابة العربيـة عصور تناولتها أثناءها أيدى النهوض والعثور ، وتناوبتها دواعى الظهور والدثور ، فكانت فى العصر الجاهلى وجودا أشبه بالعـدم لانصراف العرب عن عمل النثر الى قرض الشعر فى تأدية معانيهم وأغراضهم ، ولاستغنائهم به فى وصف أحوالهم وأطوارهم ، والابانة عما له اتصال بحياتهم . كالنجوم وبزوغها ، والانواء وسقوطها[1] ، والسحب وتثجاجها ، [2] والجبال ووعوثها ، والسهول وميوثها [3] والابل والشاء ، والاسد والظباء ، والخيل والسلاح ، والسيوف والرماح . والاشادة بوقائعهم وحروبهم ، ومواقف الفرسان ، ومقارعة الاقران ، فى الدفاع عن الاعراض ، والنضح عن الاحساب ، والتفاخر بالانساب [4] ، وما الى ذلك من بواعث البداوة ، ومستلزمات الفطرة ، وقليل من مطامح النفوس ، وخفايا القلوب ، ومناجاة الحبيب . حيث كان الشعر ديوانهم ، اليـه مرجعهم فى تخليـد مآثر أيامهم ، ومآبهم فى تدوين مفاخر أعمالهم ، اللهم الا حثالات من مرذول الفقر ، وثمالات من سفيف الاسجاع ، نسبت الى الكهان من أصحاب الهياكل ، وعزيت الى الرهبان من احلاس الصوامع

ومهما بالغ الرواة فى توثيق ماجاءونا به من منثور الكلام المسند الى أهل ذلك العصر القديم ، وانى تعددت مصادره ، ووفرت مراجعـه ، فلا تسخو نفس بأن تؤمن بخلوه من بضاعتهم المزجاة ، أو سلامته من صناعتهم المتعملة ، فقد كان جل ما تصبو

(١) جمع نوء وهو أن يسقط نجم في المغرب مع الفجر ويطلع آخر يقابله لساعته فى المشرق وكانت العرب تعرف بذلك أوقات الغيث ولهذا سموا المطر نوءاً

(٢) شـدة الانصباب وفي القرآن الكريم : وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا .

(٣) الوعوث الصعوبة والحزونة والميوث اللين والسهولة

(٤) من أحسن ماقرأت لبعض الاعراب قوله مفتخراً بنسبه

اذا مضر الحمراء كانت أرومتى ... وقام بنصري خازم وابن خازم

عطست بأنف شـامخ وتناولت ... يداي الثريا قاعـدا غـير قائم

وتصفّحَ أسفار الطبيعة واكتنه أسرارَها ، واقتطف أزهار العقول وجنى ثمارها ، ودرس صحائف الدهور وطروس الاجيال . ملك اعنتها ، وراض عصيها ، وكانت له فيها الحياة الخالدة على الايام والذكر الباقى على الزمن . ومن قصر شأوه عن بلوغ مداه ، أو وقف به التحصيل عند أولاه ، كان خلوده منتهى جهده [1]

ولست أرى فرقا بين كلام الناثرين كاتبهم وخطيبهم ، وقول الناظمين شاعرهم وراجزهم . غير أن هذا أقيم مجازه من قواف شدت بأسباب وأوتاد ، ممتدا على اثباج [2] بحار العروض ، وذاك انبعث مرسلا ، وجرى مطردا ، لا ضابط له غير ذوق الكاتب ، ولا قيد الا سلوك سبيل الفحول من أعيان البلغاء وأئمة المترسلين . وكلا الكلامين ينتهى الى غاية واحدة ، ويفضى الى غرض مشترك ، وهو ابلاغ ما فى نفس المنشىء ـ كاتباً كان أو شاعرا ـ من بنات خواطره الى نفوس القارئين ، كل على قدر تطوله فى الفصاحة ، وتبسطه فى البيان لبث ما يروم بثه مما حواه صدره من نتائج مشاهداته ، ومستكنات ضميره

وما أحسب الادب الا طائرا جميل المنظر ، حسن الشكل ، بديع التغريد ، مطرب الصوت ، جناحاه المنثور والمنظوم ، يهبط الى صدور الكتاب ورؤس الشعراء فيتخذ منها مساكن يقيم بها ويبعث باغاريده البديعة الى قلم الكاتب فيرقص القلوب فى الصدور بمختلف النغمات ، ويرسل صوته المطرب على لسان الشاعر فيهز الارواح فى الاجسام بمؤتلف التوقيعات . وما الكتاب والشعراء فى ديوان الادب الا أغصان وأفنان ، ومزاهر وعيدان ، يحركون النفوس الى منازل الكمال ويبيحونها ساحات الجمال

---

(١) يريد أن الكتابة قد تكون ملكة في النفس غير أنها لا تظهر الا بآلات التعلم والدرس .
(٢) الاثباج الامواج . والمجاز يراد به الجسر أو الطريق

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ، الاحياء بآثارهم النافعة وأعمالهم الصالحة ، وسلم

وبعد فالكتابة — أسعدك الله — هى الوسيلة لإبراز مايجول فى النفس من الخواطر الحاصلة من ارتسام المرئيات فى صفحات الفكر ، وتصوير ما يعلق بلوح الخيال من المعانى والاغراض ، واحالة ماينبض به الذهن من بروق الامانى وسوانح الآمال، مثالا قائما تحسه الافئدة ، وتدركه الالباب ، وتشهده الأبصار

وهى كما علمت – ربقة ما يندّ فى سماء المشاعر من أوابد الافكار ، وضبط مايخفق فى بساط الحواس من آل المدركات (١) . فمن انتهج من المنشئين طريقها واعدّ لها عدتها من نفس زاكية ، وقريحة صافية ، وطبع سليم ، وذهن قويم ، وحافظة وروية ، وبديهة والمعية ، واطلاع واسع ، وأخذ باطراف الفنون ، وتفنن فى الصناعة ، وافتنان فى الصياغة ، وابتكار للمعانى ، وإحكام للمبانى .

---

(١) المراد . أن الكتابة قيد شوارد الافكار ، وضبط مشاهد الابصار .



اهداء الـكتاب

— الى صاحب النيل ووارث عرش اسماعيل —

« الجناب العالى خديو مصر »

عباس باشا حلمى الثانى

مولاى :

هـذا عبد من عبيدك المخلصين ، وكاتب من كتـاب مصرك الأمين ، نشأ فى أيام دولتك ، وظهر فى عصر سلطانك وصولتك ، يرفع الى علياء سـدتك كتابا وضعه فيمن أيقظ الادبَ العربى بعـد رقـدته ، وأنهضه بعـد كبوته ، من أولئك الاعيان « أعيان البيان » الذين لولا أيادي آبائك المتسابقة ، وروادف نعمائك المتلاحقة ، ماعرف الادب الى نفوسهم سبيلا ، ولا كان التاريخ لذكرهم حافظا أو كفيلا

ولقد أنعم الله على مولاى فيما أنعم ان أضاف الى جلالة ذاته ، وكمال صفاته ، همة محمد على ، وبطولة ابراهيم ، ومجد اسماعيل ، وفضل توفيق ، فـكان خير من تهدى اليه الاسـفار ، وتتوّج باسمه الآثار ، لا سيما اذا كانت حسنة من حسنات عصره ، وأثراً من آثار عهده

حسن السندوبى

أعيان البيان

من صبح القرن الثالث عشر الهجري الى اليوم

كتاب خاص بتاريخ الآداب العربية فى هذا العصر
وتراجم مشهوري الادباء من الكتاب والشعراء

تأليف
حسن السندوبي
١٣٣١

﴿ الطبعة الاولى ﴾

سنة ١٣٣٢ هـ
١٩١٤ م

« المطبعه الجماليه بحارة الروم ـ بمصر »